حديث الشهر

الثقافة الجادة وعالم اليوم :

خبر صغير كبير الدلالة ، مر عليه الناس مروراً عابراً ، ولم يحط به علما أكثرهم ..

فقد رفضت الحكومة البريطانية فى الشهر الماضى أن تبنى مسرحاً قومياً فى لندن ، تلحق به ثلاث فرق تمثيلية من الطراز الأول ، تعمل إحداها فى لندن ، وتطوف الثانية بالجزر البريطانية عامة ، على حين تقوم الثالثة برحلات دائمة فى بلاد العالم المختلفة .

رفضت حكومة بريطانيا هذا المشروع الثقافى الكبير بحجة أنه سيتكلف — ابتداء — مليونين من الجنيهات ، ويتطلب أربعة ملايين أخرى فى كل عام . وهـذا مبلغ وجدت الحكومة أنه سيبهظها ويشق كثيراً على دافعى الضرائب تحمله ؛ فقررت — ببساطة — أن تتخفف منه بحجج مختلفة ، منها أن المسرح القومى المقترح فكرة غير شعبية ، لم تطالب بها الجماهير العريضة ، ومنها أن فرق الأقاليم أحق بالإنفاق عليها ، من فرق كبرى فى لندن ، التى تحظى فعلا بخدمات مسرحيـة كثيرة ، تحرم منها عواصم الأقاليم . . !

وقد علّقت صحيفة الأوبزيرفر على هذا المنطق المعوج تعليقاً لاذعاً فقالت إن بلداً ينفق مائة وخمسين ألفاً من الجنيهات فقط على شئون الدراما ، فى الوقت الذى تحظى فيه فرقة الكوميدى فرانسيز وحدها بإعانة سنوية قدرها ثلاثمائة ألف جنيه ، خليق أن يستكثر مبلغ المليونى جنيه كمصاريف ابتدائية ، والأربعة ملايين السنوية بعد ذلك .

ثم نشرت الصحيفة إحصاءات تبين منهـا أن بريطانيا ذات التاريخ المسرحى الرائع — بريطانيا التى أنجبت أكبر عقليـة دراميـة فى العالم ، والتى يتنوع تاريخها المسرحى تنوعاً خلاقاً وفعالا بحيث يمكن أن تقدم مسارحها دائماً تراثاً عميقاً ومسلياً فى الوقت نفسه — بريطانيا هذه هى أقل دول العالم الغربى إنفاقاً على المسرح . أقل حتى من دول صغيرة مثل هولندا وبلجيكا ، والنورويج ... ! فى حين يرتفع الإنفاق على المسرح فى دول غربية أخرى ؛ فيبلغ فى حالة ألمانيا الغربيـة ثمانية ملايين ونصفاً من الجنيهات !

***

لماذا كل هذا التخلف فى بريطانيا ، وهى ليست دولة فقيرة بحال من الأحوال ؟

لقد وقف مندوب بريطانيا فى مهرجان العرائس الدولى الذى أقيم فى بوخارست فى العام الماضى يتلقى منى نبأ الأموال التى تنفقها جمهوريتنا الفتية على الثقافة عامة ، وعلى النشاط المسرحى خاصة ، وهو مذهول .

لما قلت له إننا ننفق أكثر من عشرة آلاف

جنيه على مسرح العرائس لم يصدق أول الأمر ، ثم لما أكدت له أنني صادق ، وأنني أتحدث بصفة رسمية ، استعادني الرقم ، وتأكد منه ، ومضى يسألني : هل مسرحنا مسرح دائم ، وهل سننفق عليه باستمرار ، وهل يتقاضى أفراده رواتب ثابتة .. الخ ..

ولما قلت له إننا ننفق أكثر من ربع المليون جنيه على النشاط المسرحي ، والإنشاءات ، وإننا ماضون بعزم في سبيل إرساء دعامة قوية لنهضة مسرحية كبيرة في بلادنا ، وإن حكومتنا لا تبخل علينا بالمال والرجال ، وإنها تضع تحت تصرفنا إمكانيات كبيرة ، منها النقد الأجنبي العزيز ، وحق استقدام الخبراء الأجانب — لما قلت له كل هذا تأمل الأمر طويلا ثم قال : لا غرو أن يتقدم مسرح العرائس عندكم هذا التقدم السريع الذي لا يكاد يصدق . لقد فعلتم في عامين ما عجزت بريطانيا عن أن تفعله في عشرة أعوام .

إن سبب تخلف بريطانيا في ميدان الإنشاءات المسرحية ، وخاصة الجديد منها ، كالعرائس والفنون الشعبية والسيرك ، راجع إلى أن الحكومة هناك تتعامى عن حقيقة واضحة لم يعد مفر من مواجهتها ، ألا وهي : إن الفنون لن تقوم لها قائمة بعد الآن إلا إذا تعهدتها الدولة تعهداً كاملا فمنحتها كافة ما تطلبه من مال ، ووجهتها الوجهة التي تخدم فيها المصالح العميقة للشعب

وأقول المصالح العميقة لأن المغرضين وهواة التشويش على الحقيقة يرددون دائما بإزاء كل مشروع ثقافي جليل لاتظهر نتائجه فوراً لعيونهم التي تتغاضى أو لاترى : أين هذا من مطالب الناس الأساسية ؟ الناس محتاجون إلى الغذاء والكساء ، فلنخصص كل قرش لتوفير هذين ، أما ما عداهما فهو من الكماليات

فإذا تصدى لهم من يذكرهم بأن الناس ليسوا أبداناً فقط ، وإنما هم أرواح كذلك ، وأن الروح محتاجة هي الأخرى إلى الغذاء والكساء ، ووافقوا على مضض : ثم راحوا يطالبون بأن يكون الغذاء تافهاً والكساء رقيقاً متهالكاً ، بحجة أن هذا هو ماتطلبه الجماهير وما تطيقه .

وفي بريطانيا قام سير تايرون جاثري ، أحد المديرين السابقين لفرقة « أولد ڤيك » يرد بعنف على مُزَيِّفي مطالب الجماهير والمتحدثين باسمهم بلا دعوة ولا استئذان ؛ فأوضح أن المشاريع الثقافية الكبرى لاتحظى عادة بحماس الجماهير . وأحياناً لا تظفر بمجرد رضاها ، لأن نتائج هذه المشاريع لاتبده العين أو العقل وعلى هذا ، فلو أننا شئنا أن نقتل أحد هذه المشاريع فلنجر استفتاء شعبياً بشأنه . وستكون النتائج عجباً من العجب . سيقول بعض الناس : أزيلوا المتحف القومي من مكانه ، فإن الأرض المقام عليها لا تقوّم بمال ، ولو أننا بنينا عليها مكاتب أو إدارات للشركات التي تغذي الاقتصاد القومي ، لكسبنا مئات الألوف من الجنيهات .

وسيطالب فريق آخر بالتزام الحد الأدنى من الإنفاق على الجامعات ، بحجة أن خريجي الجامعات ليسوا إلا قلة متحذلقة من الناس ، تستهلك الكثير من أموال دافعي الضرائب ، بينما الكثرة التي تخدم وتبني وتصنع ، لا يهمها من الخدمات التعليمية إلا التعليم العام ، الذي يكفي حاجتها وزيادة .

الحقيقة أننا في ميدان الإنشاءات الثقافية الكبرى محتاجون إلى قيادة واعية واسعة الأفق تنظر إلى الناس لا كما هم ، ولكن كما ينبغي أن يكونوا ، إن الذين ينصرفون عن النشاط الثقافي والفني ، لايفعلون هذا لأنهم أعداء للثقافة أو لأنهم لا يبالون بها بل لأنهم لم يتدربوا على هذا الإقبال ، ولم يمكنوا ، من أن يمارسوه ، وعلى هذا فمن واجب القيادة الثقافية الرشيدة ، أن

تتيح لهم الثقافة وأن تربطهم بها ، وأن تدربهم على التمتع بلون بعد آخر من ألوانها . إذ ذاك يرتفع الوعى الثقافى عند الناس إلى الحد الذى يصعب فيه على المزيفين والمقتحمين أن يقنعوا الناس بأنهم أجساد ولا أرواح ، وأن هذا هو الاتجاه الطبيعى الذى لا غبار عليه ، وأن ما دونه حذلقة وسفسطة وانفصال عن الشعب ومشاكل الشعب .

كأنما الشعب كتلة من الصخر الصلد ، لاتتغير ولا تتطور ، ولا ترقى أبداً عن مستوى الأرض .

* * *

على أن للمسألة وجهاً آخر ينبغى أن نتفحصه لتكمل الصورة ، وتصبح أقدر على إبراز الواقع .

إن ثمة انفصالا واضحاً بين « القيمة » فى الثقافة وبين درجة الإقبال الشعبى عليها . بمعنى أن الأعمال القيمة لا تحظى دائماً بإقبال الجماهير ، بل إن هذه الجماهير قد لا تفهمها أحياناً .

فماذا يفعل أنصار القيم الجادة العميقة بإزاء هذا الوضع المتناقض الخطر ؟ هل يقفون مكتوفى الأيدى لا يفعلون شيئاً لتصحيح الوضع ، أم هل يكتفون بالسخط على المزيفين والانتهازيين الذين يتملقون تحيزات الجماهير ، ويستغلون ميل الناس إلى الراحة ، فيقدمون لهم الغث المريح ؟

كتب الكثيرون فى هذا الموضوع فى الشهور الماضية ، وطالب فريق لا بأس به منهم بأن يترك أنصار الثقافة القيمة المنصَّات التى يقفون عليها فى وقار ، ليبشروا بقيمهم الجادة ،وأن يتحركوا طويلا وفى مجالات عدة ، ليستكشفوا الأرض التى يقفون عليهم ، فإن تغيراً كبيراً قد طرأ عليها منذ أقيمت منصّاتهم ومنابرهم .

هناك حقائق ثقافية كبرى فى عالم اليوم ، يحسن بالمثقفين الجادين أن يسارعوا إلى الإفادة منها . هناك المنابر الشعبية الكبرى التى أنتجها العلم الحديث ووضعها تحت تصرف من يشاء من الناس ، المخلصين منهم والمزيفين ، الجادين والمهرجين .

هناك الصحيفة اليومية الكبرى التى توزع ملايين النسخ كل صباح أو كل مساء .

وهناك محطة الإذاعة والتيليفزيون التى يعد عملاؤها بعشرات الملايين .

وهناك الطبعات الشعبية الرخيصة من الكتب القيمة ، وهذه أيضاً تبيع عشرات كثيرة من الملايين .

وهناك الملايين فوق الملايين يغشون دور السينما يوماً بعد يوم .

وهذه كلها أجهزة ثقافية محايدة ، بمعنى أنها تستجيب لمطالب من يقوم بإدارتها ، فإن وقعت بين أيدى الجادين فهى جادة ، وإن استولى عليها المزيفون وتجار الثقافة ، فهى مزيفة مستغلة مثلهم .

وإذن يكون من واجب المثقفين المخلصين أن يسعوا إلى هذه الأجهزة سعياً ، ولا يتركوها تقع غنيمة فى أيدى أعدائهم . عليهم أن يوالوها بإنتاجهم ويعملوا على أن تحصل هذا الإنتاج على نصيب متزايد من وقت هذه الأجهزة ومساحتها ، وعليهم أن يطالبوا ويلحوا فى طلب أن تكون هذه الأجهزة فى أيد تستهدف المصالح الحقيقية للجماهير ، وليس مصالح قلة قوية وغنية وكافرة بكل ما هو ثقافى . .

هذا هو الموقف الحافل بالإمكانيات الذى يجد فيه المثقفون المخلصون أنفسهم فى أجزاء كثيرة من العالم .

إن عليهم أن يحملوا ثقافتهم إلى الناس حملا ، ويستغلوا فى هذا ما وضعه العلم الحديث فى أيدينا من تسهيلات كثيرة ، لم يكن يحلم بمثلها أو ما يقرب منها المجاهدون الصابرون فى القرون الماضية ، الذين كان سبيلهم إلى نشر كتاب ليس مجرد دعوة الناس إلى شرائه — كما نفعل اليوم — ، بل كانوا ينسخون الكتاب بالحبر ودمع العين ، وأعصاب المخ ، ليضمنوا أن

يصل ما فيه من معرفة إلى دائرة أخرى من الناس قد تكون أوسع من دائرتهم ، وربما كانت أضيق !

هل يضيع الفن فى «الفضاء» ؟

كان برنارد شو يقول دائماً : إننى أطمع فى الخلود . أى إننى آمل أن تبقى أعمالى فى ذاكرة الناس ووعيهم خمسين عاماً بعد وفاتى . وهذا هو الحد الأقصى للخلود فى العالم الحديث . . !

ولم يكن شو متواضعاً كما نعلم ، ولكنه كان يضع فى اعتباره السرعة المذهلة التى تتغير بها الأشياء والقيم من جيل إلى جيل ، وهى سرعة قد تفاقمت أخيراً ، بعد أن أخذ الإنسان يترك الأرض ، ويحلق بأجنحة من الصلب ، تدفعها روح من الوقود فى أجواز الفضاء .

وليس هذا التحليق فى جوهره شيئاً جديداً على الإنسان ، فقد ظلت روحه تحلق دائما منذ أن ترك عهد الحيوانية الأولى ، وأخذ ينير كهفه وعقله معا بالنار والنور المنبعثين من اكتشافاته وفنونه .

ولكن الجديد أن التحليق يتم هذه المرة بالجسم أيضاً . إلى جوار الروح والخيال . ومعنى هذا أن رقعة اليقين تتسع دائماً أمام الإنسان ، وتنكمش فى ذات الوقت الرقعة الحرة التى يعمل فيها خياله — الرقعة التى لم يغزها العلم اليقينى بأرقامه ومعادلاته ، ووثوقه الشديد .

وهذا أمر يقلق بال الأدباء والفنانين . فهم يقولون : إذا كان العلم سيتولى تزويدنا بالخبر اليقين عن كل شىء فماذا يبقى للخيال ؟ ماذا يبقى للأدب والفن ؟

لقد رد برناردشو على هذا السؤال مراراً ، فقال : لن يبقى لها شىء ! سيأتى وقت تنظر فيه الإنسانية إلى الفن والأدب مثلما ننظـــر نحن الآن إلى أكاذيب الأطفال البيضاء ، وإلى التمثيليات الصغيرة التى يصنعونها من لهوهم بدماهم .

ولهذا السبب حدّد «شو» فترة «خلود» أعماله بخمسين عاماً .

هل يختفى الفن والأدب إذن فى عالم الغد ؟ من الصعب التكهن برأى ، وإن كان فى ظنى أن الإنسان سيظل يغنى دائماً طالما هو يعمل . . ومتى قدر للغناء أن يستمر ، فسيبقى الفن بطريقة أو أخرى

على الراعى



الزعيم السياسي قائد فكري

بقلم أحمد سيكوتوري رئيس جمهورية غينيا
ترجمة الأستاذ فوزي سليمان

لعله من القول المعاد أن الثقافة من أهم مقومات حياة الناس ، في مرآة حياتهم ؛ تروي واقعهم ، وتصور آمالهم ، وتشحذ هممهم ، وتدفع بهم إلى الأمام .

والقائد السياسي الذي ارتضاه الناس زعيما يعبر عن آمالهم ، ويقودهم في طريق المستقبل ، لا بد أن يكون واعياً بكل القيم والمبادئ الفكرية التي تشكل حياة شعبه ، والتي من خلالها يتحرك للأمام .

وقد يكون من السهل على الشعوب التي تتمتع بحريتها واستقلالها أن تمارس نشاطها الفكري ، وتعبر عن قيمها ومبادئها وسائر اختلاجاتها في حرية ويسر وقد تساعد هذه الحرية وهذا اليسر على تطوير هذه القيم وهذه المبادئ . ولكن الحال على عكس ذلك تماماً في الشعوب المستعمرة والمغلوبة على أمرها ، فهي لا تستطيع أن تعبر عن خلجات نفسها ، ولا تستطيع أن تبرز قيمها ومبادئها الفكرية ، وقد فرض الاستعمار عليها ستاراً كثيفاً فمنع تطورها ونموها . وقد يجعل هذا مهمة القائد السياسي والفكري على درجة كبيرة من الصعوبة ولا يذللها أمامنا سوى فهمنا العميق الدقيق لطبيعة العلاقة الوثيقة التي تربط بين عناصر الكفاح السياسي وعناصر الكفاح الثقافي داخل الوحدة المجالية التي تنبثق من واقع حياة الناس .

فالقائد السياسي إنسان على درجة كبيرة من الوعي والنضج الذي يؤهله لأن يدرك مقومات حياة شعبه المادية والمعنوية ومدى ما يعانيه من أنواع الظلم الاجتماعي والاقتصادي ، وكيف ينعكس هذا على تكوينه النفسي فتتحلل شخصيته ، وينهار تراثه ، وتضطرب قيمه ومبادئه ، ويستشف رغبته في التحرر من هذا الواقع المرير . والانتقال من حال إلى حال معناه تغيير في الأوضاع المادية وفي القيم والمبادئ والتقاليد وسائر مقومات الحياة الثقافية .

ولكي ينجح الزعيم السياسي في قيادة الجماهير لا بد له أن يرتبط بواقعهم هذا ، وأن يعبر عن آمالهم تلك ، وأن يقودهم بأمانة وصدق في الطريق إلى تحقيق هذه الآمال . وبهذا يكون قد تحمل مسئولية تطوير الأوضاع الثقافية في الوقت نفسه الذي تحمل فيه مسئولية تطوير الأوضاع المادية ؛ لأنها كما قدمنا عناصر متكاملة في مجال واحد .

ولن ترضى عنه الجماهير ، ولن تتبعه ؛ إلا إذا كان هو نفسه خاضعاً للقيم والمبادئ التي يدينون بها . وإن هذه القيم وهذه المبادئ هي التي تشغل تفكيره وتحدد أهدافه وجميعها تنبع أصلا من واقع حياة الناس . وبهذا تتحدد الصلة القوية بين الكفاح السياسي والكفاح الثقافي ، ولا مكان لأحدهما بغير الآخر .

* * *

وتختلف ثقافات الشعوب باختلاف واقع كل منها والظروف المشكلة لهذا الواقع ، ولعل هذا هو سبب اختلاف الثقافة العربية عن الثقافة اللاتينية مثلا ، فقد

خضعت كل منها لألوان من التفكير ومن النظم ومن الظروف المادية والتكنولوجيّة والاجتماعية مما أدى إلى أن تأخذ ثقافة كل منها شكلا محدداً وطريقة فى التعبير خاصة ، أى أصبحت لكل منها شخصية مستقلة محددة تتقدم بها فى مجال الأدب والثقافة العالمية .

وتقيم الدول الاستعمارية بناء ثقافياً ضخماً يتكامل مع إمكانياتها العلمية والاقتصادية وقيمها الأخلاقية والأدبية تبرر به سيطرتها وتدافع به عن سيادتها على الشعوب الأخرى .

وللشعوب المستعبدة — بالمثل — قيم ثقافية ومبادئ وأخلاقيات ذات طابع مخالف ، إذ تسودها الرغبة فى التحرر والكفاح فى سبيل الاستقلال والمساواة والتطلع إلى مستقبل أفضل .

والمستويات العلمية والنظم الاقتصادية والاجتماعية والقيم الفنية والأدبية التى وصل إليها العالم الحديث تتطلب السمو بالبشرية إلى مستوى إنسانى رفيع من حيث القيم والمبادئ ، وإذا كان العالم الاستعمارى لم يصل بأسباب التقدم إلى غاياته الإنسانية المنشودة بل إنه استخدمها فى تبرير وتأييد أطماعه التى لا تمتُّ إلى القيم الإنسانية بصلة .

ونظراً إلى أن حضارة الشعب ومستوى تقدُّمه الحقيقى تقاس بمدى ما يقدمه للعالم من مشاركة فعّالة فى إقامة صرح القيم الإنسانية السامية مثل مبادئ المساواة والتضامن والوحدة والأخوّة بين الناس فإن على قادة إفريقية السياسيين فى هذه المرحلة الحاسمة من تحررها وتطوُّرها ونزوعها نحو الكشف عن نفسها وبلْورة شخصيتها التى حاول الاستعمار عبثاً القضاء عليها ، عليهم أن يوجّهوا القيم الفكرية الإفريقية النامية نحو غاياتها الإنسانية والحضارية السليمة ، وأن يساعدوا الشخصية الثقافية لإفريقية على الظهور . ولن يتمّ هذا إلا إذا ارتبطوا ارتباطاً واعياً بالكفاح الإفريقى ضد الاستعمار السياسى والاقتصادى والنفسى ، واستمدوا أسس ووسائل ومقومات هذا الكفاح من واقع الحياة الإفريقية بمقوماتها المختلفة وأهمها التراث الثقافى ، واتجهوا بهذه المقومات وهذه القيم من خلال المعركة القومية الكبرى نحو المبادئ والمفاهيم الإنسانية ذات الطابع الإفريقى والإنسانى .

لا يتم التحرر بمجرد الخروج من تحت سيطرة البلد المستعمر ونيل الاستقلال الرسمى ، وإنما لا بد من التحرر الكامل من الروح الاستعمارية التى تحرص الدولة المستعمرة عادة على بثّها فى نفوس أبناء المستعمرات والتى تمكن لها من الشعب المستعمر إذ تحيله إلى شعب خاضع مستسلم فاقد الثقة بنفسه وقدراته منحلّ خلقياً ، فارغ العقل ، فاقد الثقافة ، منهار القيم .

وإذن فعلى المكافحين فى سبيل الاستقلال الكامل أن يعملوا على خلق ونشر الجو النفسى الملائم للتطور المطلوب لأنه سيملأ الفراغ الناتج عن خلخلة القيم التى بثّها الاستعمار وربّانا عليها طوال مدة إقامته فى بلادنا ويساعد على التمهيد لغرس القيم الجديدة .

على الشعب أن يعى القيم الفاسدة التى غرسها الاستعمار فيه حتى يسهل عليه الخلاص منها ويتفهّم ، وعلى أسس من واقعة الاتجاهات التى يتحدد وفقاً لها مستقبله .

• • •

والواقع أن استخلاص الشخصية القومية من براثن الاستعمار وطغيان الشخصية الاستعمارية فن قائم بذاته ويحتاج لمهارة فى الأساليب لكى تقاوم الاتجاهات التى أدت إلى تزييف واقعنا النفسى ، والتى جرّدت فضائلنا من القيم وقضت على مقومات حياتنا الأصلية فى سبيل القضاء على ذاتيتنا ومحو شخصيتنا القومية . ولقد كانت هذه هى الخطوط العريضة التى رسمها الاستعمار لسياسته فى بلادنا فقد وضح له منذ البداية أن استعماره لبلادنا

لن يدوم طويلا إلا إذا تمكّن من القضاء على الشخصية القومية لنا فلم يكن أبداً من باب المصادفة أن يسعى الاستعماريون الفرنسيون للترويج — وهم فى قمة مجدهم الاستعمارى — لنظرية « العقلية البدائية » وإعطائها ثوباً علمياً براقاً .

وكلنا يعرف الصورة التى قدمها عليها العالم الفرنسى ليفى بريل فقد صاغ النظرية بحيث تنطبق فى مضمونها على الشعوب الإفريقية السوداء فتحدّث عن الشعوب ذات التطور الناقص والتى لا تسمح لها إمكانياتها بأن تتعدى مرحلة معينة من مراحل التطور البشرى ، ونسى أو تناسى من تبعه من العلماء والساسة ممن روّجوا لهذه البضاعة — نسوا أو تناسوا أن الاستعمار قد عمل جاهداً على وقف التطور الحضارى فى المستعمرات . . ونسوا أو تناسوا أن هذه الشعوب التى ينعتونها بالانحطاط والقصور كانت ذات حضارات زاهرة باهرة ، وذات تراث عريق وقيم إنسانية ربما كانت تعلو من حيث الدرجة والمستوى الإنسانى على القيم التى يتشدّق بها الرجل الأوروبى نفسه . وإن هذه الحضارات وهذه القيم وهذا التراث لا يحتاج لمهارة علمية كبيرة لكشفه بقدر ما يحتاج للأمانة العلمية والروح الموضوعية غير المتحيزة فى البحث والعرض والتقييم ، ولعل هذه السياسة الاستعمارية الخبيثة قد نجحت فى وقف تطورنا وفى نشر عقدة الاستعمار بيننا وامتدّت جذورها فى حياتنا بشكل ينذر بالخطر ، ويدل على أن كفاحنا السياسى والثقافى ليس هيناً وأن تغلبنا على هذه الأوضاع ليس سهلا .

ومع ذلك أفليس من الحمق أن ننصت إلى ترّهات الرجل الأبيض وأكاذيبه الخبيثة عند ما يدّعى أنه صاحب القيم والمبادئ الحضارية الإنسانية وأنه صاحب العلوم والفنون والآداب والأخلاق ، وأنه معلم البشرية فى العصر الحديث . . .

والتاريخ البشرى يدل بما لا يدع مجالا لشك على أن التراث البشرى من علم وفن وثقافة وخلق ومن قيم ومبادئ وتقاليد ، هو نتاج البشرية كلها وملك للبشرية كلها ، وأن نسبته إلى شعب بعينه أو جنس بعينه لون من ألوان الحمق وقصر النظر ، فقد سبق أن أخذ الغرب عن الشرق ليأخذ الشرق من الغرب ثم . . . وتدور عجلة الزمن لتزيد من تفاعل الفكر البشرى كله ماضيه وحاضره وشرقه وغربه .

* * *

والواقع أن الاستعمار لم يعد يؤكد شخصيته وسيادته باستعراض الجند أو بتفجير القنابل الذرية كما تفعل فرنسا فى صحراء الجزائر وإنما هو يعتمد أساساً على تحطيمه للشخصية القومية للبلد الذى يستعمره فقد بثّ فينا منذ حل معانى تفوّقه وعظمته فأصبحنا وفى دمائنا إيمان بعظمته وبعجزنا أمامه . . وهذا التاريخ الطويل الذى خطّط له الاستعمار من قديم وحاربنا فى قيمنا ومبادئنا وعاداتنا وأخلاقنا وثقافتنا هو العدو الأول الذى يجب أن يتّجه إليه كفاحنا . . . كفاحنا الثقافى إلى جانب كفاحنا السياسى العام .

لقد نشأنا ونحن ندرس فى المدارس الاستعمارية فى بلادنا تاريخ فرنسا وحروب الغال وحياة جان دارك وتاريخ نابليون وأشعار لامارتين ومسرح موليير ، والتنظيم الإدارى لمقاطعات فرنسا كما لو كانت إفريقية بلادنا بلا تاريخ ، وبلا واقع جغرافى ، وبلا حياة ثقافية وبلا قيم وبلا أخلاق . . . وبلا وجود .

هكذا كانت تتحكم العقلية الاستعمارية فى تشكيل عقلية الأجيال الناشئة فى المستعمرات ، ولم يكتف الاستعمار بهذا بل حرص على أن يشعر أبناءنا فى كل مرحلة من مراحل حياتهم وتربيتهم أن الأوروبى صاحب الفضل عليهم فى تعليمهم وتنوير عقولهم ، ورفعهم إلى هذا المستوى الحضارى الذى ينعمون به ، وأنه لولا الاستعمار لظلوا فى

دياجير الجهل وظلام التأخر، والجاهلية القبلية ، وأن واجبهم يقتضى — لصالحهم ولكى يصبحوا فعلا جديرين بالانتساب للعالم المتحضر — أن يتابعوا الرسالة فيخلّصوا أنفسهم بأنفسهم من كل ما فيها من آثار ومخلّفات إفريقية بائدة ، وأن يربأوا بأرواحهم وعقولهم عن هذا العالم المظلم المتأخر الفانى وأن ينزعوا على قدر ما يستطيعون إلى الارتباط بمقومات الحياة الأوروبية وأن يتشبهوا بهم إن لم يكونوا مثلهم .

وقد استطاع الاستعمار بهذا المنطق أن يؤثر فى عقلية بعض أبنائنا فآمنوا بأن تطور بلادهم مرتبط بوجود الاستعمار ، وأن دخول الاستعمار لبلادهم كان حادثاً سعيداً نتج عنه التقدم الذى حقّقته بلادهم وأصروا على أن اكتساب المعرفة الحقة والعالم الكامل يتطلب التنكر التام للقيم والثقافة والتراث القومى والفناء فى الثقافة الغربية .

ويعود بنا هذا إلى الحديث عن عالمية العلم وإنسانية الثقافة ودولية الحضارات فلم يحدث أن سمعنا ولن يحدث أن نسمع عن هندسة صينية أو كيمياء فرنسية أو طبيعة إنجليزية . . . إلى غير ذلك ؛ إنما توجد فى العالم كله هندسة واحدة وكيمياء واحدة وطبيعة واحدة وهكذا . . .

ولم يختلف اثنان حتى الآن على أن العلم والثقافة التى تملأ جوانب العالم كله حضارة ونوراً هى بلا قومية . . إنه إنتاج الفكر الإنسانى فى صورته العامة العالمية ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ونحن نسخر من المحاولات الغبية التى يحاول بها البعض أن يثبت أو يرد أصول علم من العلوم أو كشف من الكشوف أو مبدأ من المبادئ إلى دولة بعينها ، وهى عبث لا يضيف إلى العلم جديد .

ومع ذلك فإن الاستعمار فى الوقت الذى يزهو فيه علينا لأنه يقدم لنا العلم والحضارة الإنسانية إنما يخون مبادئ وأخلاقيات هذه الحضارة التى يدعيها لنفسه من أنه لا يقدم لنا من العلم والثقافة إلا القدر الذى يرى أنه يخلق منا آلات نافعة فى جهازه الاستعمارى الضخم فهو فى حاجة لكى يدبر أمور حكم الجموع الهائلة من شعوب المستعمرات إلى معاونين على قدر من العلم ضئيل ؛ ولكنه يكفى لكى يفصل بينهم وبين جموع مواطنيهم من حيث العقلية والمشاعر والأهداف ، وتربطهم بعجلة المستعمر الذى يظل دائماً مثلا أعلى أمامهم يتفانون فى تقليده والخضوع له وتنفيذ سياسته الاستعمارية ، ولم يحدث أن خرّجت المدارس الأجنبية واحداً من الإفريقيين مزوّداً بروح البحث العلمية التى تمكنه من دراسة تاريخه القومى أو تراثه الحضارى أو البحث عن أصول الشخصية الإفريقية . إن المستعمر وفى داخل مدارسه ومؤسساته الثقافية ينافق ويخون حضارته ويخون روح البحث العلمى والموضوعية التى هى إحدى دعائم الحضارة الغربية أو هكذا يقولون .

• • •

ولست أدرى كيف كان سينتهى بنا الحال غداة حصولنا على استقلال بلادنا ؛ غنيا لو لم نكن قد حسبنا لهذا اليوم عدته ، وأعددنا فى تنظيماتنا الوطنية معهداً لتخريج الإداريين الذين يستطيعون الإشراف على الشئون الإدارية ويكوّنوا الأداة التنفيذية لحكم البلاد وبغير هذا كنا واجهنا موقفاً عصيباً وكان من الممكن أن يفلت زمام الحكم من أيدينا خاصة إذا أخذنا فى اعتبارنا المؤامرات التى يصر المستعمر على أن ينهى بها فترة استعماره لبلد من البلاد والتى يأمل من ورائها أن يعود فى حكم هذه البلاد أو على الأقل وضع العراقيل أمام الحكام الوطنيين لاثبات أنهم عاجزون بدون الرجل الأبيض .

هذه الرغبة الشريرة فى إبقاء شعب المستعمرات فى حالة دائمة من التأخر هى التى تميز فى الواقع وتحدد اتجاهات وطبيعة التعليم فى ظل الاستعمار . لقد أرادوا

للمعلم الإفريقي أن يظل دائماً فى مستوى منحط حتى لا يتخرج على يديه إلا مستويات أكثر انحطاطاً وضعفاً.

• • •

ولقد أراد المستعمر أن يزيد الإفريقيين شعوراً بضعفهم وعجزهم فغالى فى تقدير درجاته العلمية ووضع العراقيل أمام الإفريقيين حتى لا يحصلوا عليها وتظل دائماً أملا بعيد المنال ، وحتى إذا سمح للقليل من أعوانه ، ومن ثبت له إخلاصهم له بالحصول عليها كان ذلك مبرراً لرفعهم فوق طبقات الشعب الأخرى . . . ولطالما أدت المنافسة بين بعض الشباب الإفريقي على تقدير الدرجات العلمية التى حصلوا عليها من بلاد المستعمر إلى ألوان من الشقاق والخلاف وبذرت بينهم الفرقة والحسد بدلا من التجمع والتكتل لمكافحة الاستعمار والمستعمرين .

ولقد لجأ المستعمر إلى سياسة إنشاء درجات علمية خاصة بالوطنيين وشهادات ممتازة للأوروبيين فلا يتساوى الطبيب الأبيض مع الطبيب الملون ولا المهندس ولا المحاسب ولا المعلم وهكذا ، وبذلك استخدم طبقة المتعلمين الملونين فى تنظيم وتشغيل جموع العمال الوطنيين الذين يعملون فى المناجم والمزارع الهائلة التى استولى عليها الرجل الأبيض ، وهذا ما حدث فى الكونغو وأنجولا وموزمبيق وغيرها من المستعمرات ، وفى الوقت نفسه احتفظوا بهم فى مستوى أقل من نظرائهم الأوروبيين .

والواقع أنه يجب علينا أن نتخلص من الوهم القائل إن الثقافة التى نتلقاها على يد المستعمر هى طريقنا إلى الارتفاع بمستوانا ومستوى شعوبنا ، وإنما سبيلنا إلى فتح أبواب المستقبل وطريق الحرية والاستقلال . ويجب أن ننظر إلى الموقف نظرة موضوعية خالصة فكم من شبابنا الذين تعلموا فى مدارس المستعمر وتثقفوا بثقافة المستعمر استطاع أو حتى حاول أن يبحث عن تراثه القومى ليطوره من خلال ما تعلم . إن قيمة ثقافتك لا تظهر إلا إذا تحولت إلى نشاط وظيفى يخدم التطور الاجتماعى وأدت هذه الثقافة إلى أساليب وأنماط سلوكية وتقاليد وعادات . . .

إننا لا ننكر فضل المفكرين الأوروبيين الكبار على الإنسانية والحضارة البشرية ، ولكن الذى يحدث أننا نغرق فى دراسة تراث المفكرين الغربيين وإنتاجهم وننسى تراثنا وإنتاجنا القومى الإفريقى . .

كم من شبابنا قضوا معظم شبابهم يدرسون ديكارت وبرجسون وغيرهم من فلاسفة الغرب ، ولم يفكروا أو بعبارة أدق لم يسمح لهم الاستعمار أن يفكروا فى الفلسفات القومية وحضاراتنا الأصيلة وقيمنا وتراثنا ..

كم منهم يعرفون المفكر الوطنى الحاج عمر . . .

وطالما أننا نفكر بهـذا الأسلوب الذى يتبعنا للخارج وطالما أننا نفكر من خلال قوالب ومفاهيم الثقافة الاستعمارية فلن نستطيع أبداً أن نستقل بشخصيتنا ولن نكيف أفكارنا وتصرفاتنا وفقاً لمفاهيمنا القومية فى حين أن طريق القومية والشخصية الإفريقية هو طريق نهضتنا الوحيد . . الشخصية الإفريقية القائمة على الملامح التى يحددها واقع حياتنا والممتدة جذوره إلى تراثنا وثقافتنا الأصلية ، وأن نتطور بهذا التراث وهذا الواقع وهذه القيم والمفاهيم إلى المستوى الحديث ، وأن نستخدم ثقافتنا الأوروبية لتحقيق هذا الغرض لا العكس .

إن الفرد ابن بيئته ، ولذلك احتفظ الفلاح الوطنى فى قرانا بخصائصه الإفريقية الخالصة على عكس الموظف والعامل الذى يعيش فى المدينة ويتأثر بالجو الذى يخلقه المستعمر حوله ، ولقد بذل المستعمر جهداً كبيراً فى القضاء على المقومات الإفريقية للشخصية الوطنية واهتم اهتماماً بتكوين العقلية الاستعمارية عند سكان المدن

ولكن الفلاح ظل فى قريته النائية وفى بيئته الإفريقية الخالصة ومع تراثه الإفريقى الصميم .

وعلى المكافحين فى سبيل الحرية والاستقلال أن يبذلوا جهداً كبيراً للقضاء على الروح الاستعمارية بين سكان المدن من المتعلمين ، وأن يهتموا بدراسة التراث الإفريقى القومى من منابعه الأولى فى القرية وعلى قدر ما نتّجه إلى دراسة واقعنا الإفريقى وعلى قدر ما نطوّع تفكيرنا لهذا الواقع وعلى قدر ما ندرس مشاكلنا فى ضوء هذا الواقع من خلاله ، على قدر ما تكون الحلول التى نصل إليها سليمة وطبيعية لأنها نابعة من هذا الواقع وعلى قدر ما يتقبلها الناس ببساطة ويستجيبوا لها فى طبيعية ؛ لأنها نابعة من واقع حياتهم ومتّفقة مع تاريخهم ونسيج حياتهم وعلى قدر ما يؤدى هذا إلى تطور سليم فى القيم والاتجاهات والأنماط السلوكية وبهذا نصل دائماً إلى حلول إفريقية من خلال واقع إفريقى وبتفكير إفريقى ومقومات إفريقية ، وهكذا نستعيد شخصيتنا القومية ونسير فى طريق التطور السليم البنّاء .

كم من الشباب فقدوا ذوقهم القومى وتذوقهم لرقصاتنا الوطنية وأناشيـدنا الشعبية فى حماسهم للتانجو والفالس والمغنين الأجانب ، وكانت لهذه النزعة آثارها الخطيرة لأن إنسانية الفرد تتكون من تفاعل إمكانياته مع بيئته خلال تاريخه وتراث قومه ونتيجة لهذا التفاعل وهذا النمو ، تتكون شخصيته وقيمه وذوقه وتكتسب الأشياء دلالاتها ويصبح قطعة حية من مجاله الحيوى أما تعلقه بالذوق الأجنبى والثقافة الأجنبية مع عدم وعيه بذوقه وثقافته القومية فيؤدى إلى انعزاله عن مجاله الحيوى وعن بيئته الاجتماعية مما يؤدى إلى انحراف فى نمو شخصيته الإنسانية وقيمه واتجاهاته وتفقد الأشياء دلالاتها الحقيقية عنده ، ويصبح غير قادر على التفاعل أو النمو أو التطور .

من هنا جاءت أصالة الفلاح الإفريقى ، وجاء انحراف السائرين فى ركب الاستعمار ممن فقدوا قوميتهم وشخصيتهم الإفريقية ، ولم يكتسبوا الشخصية الأوروبية الكاملة ، ولن يتيسّر لهم أن يكتسبوها أبداً لأنهم ليسوا أوروبيين .

وللإفريقية شخصيتها الكاملة ولا يمكن أن تفهمها إلا من داخلها والنظر إلى العادات والتقاليد والقيم الإفريقية من الخارج يفقدها دلالتها تماماً .

ولإفريقيا خصائصها الجماعية ، وفيها أقوى مثل للتضامن الاجتماعى والأخوة والمساواة وهى قيم إنسانية لعل البشرية فى حاجة إليها الآن ، وعادات وتقاليد الإفريقيين تنبع من هذه الاتجاهات وفصلها عنها يفقدها معناها . ولم تحاول الدول الاستعمارية أن تتفهّم طبيعة الحياة الإفريقية من داخلها لأن الروح الاستعمارية تتميّز أولا وقبل كل شىء بالأنانية ولا ترى غير نفسها ، أليست الحضارة الأوروبية التى أدت فى مراحلها الأخيرة إلى الاستعمار هى نفسها التى أنتجت نظرية الفن للفن ، وهى تمثل اتجاهاً فردياً انعزالياً خطيراً أبعد ما يكون عن الروح الإنسانية وأليست هى نفس الحضارة التى امتلأت بنفسها فلم تعد ترى فى الوجود ثقافة ولا فكراً ولا علماً ولا فناً إلا إذا كان أوروبياً ، وهى نفسها التى خلّفت فى بلادنا الطبقة من أذناب الاستعمار الذين لا يرون إلا ما هو أوروبى ولا يطربون إلا لما هو أجنبى . . امتصّوا منطق الاستعمار .. منطق السيادة وأصبحوا ينفثونه سمّاً يقتل الروح القومية والشخصية الوطنية ولم تعد لأغانينا وموسيقانا الشعبية فى نظرهم أية قيمة إلا إذا صيغت فى قوالب وأشكال غربية ، وفنوننا عندهم فنون تقليدية وتماثيلنا وأقنعتنا وتراثنا القديم أشكال تتضمن تعبيراً جمالياً محدوداً ولا شىء أكثر لأن هؤلاء الإفريقيين وبفضل النظرة الأوروبية الاستعمارية التى تبنوها فقدوا القدرة على إدراك أن الفنون الإفريقية ، هى بالدرجة الأولى فنون ذات وظيفة ودلالة اجتماعية ، وذات قيمة

نفعية ولا يمكن فهمها خارج هذا المعنى وهذا الإطار . .

* * *

إن أهم مايميز الفنون الإفريقية هو مضمونها المستمد من واقع حياتنا، والذى يعبر عن هذه الحياة ويوظف فيها وإن أعمال المفكرين والفنانين والكتاب وغيرهم لا قيمة لها إلا بقدر ما تكون ذات وظيفة ودلالة فى حياة الناس وإن العمل الفنى هو عمل متكامل يضم الفكر والعمل والأمل فى حياة الناس . . .

والفنان الذى لا تمتد جذوره فى بيئته التى هى بيئة الناس الذين سيكتب لهم محكوم عليه بالانعزال وبموت، فنه إذا صح أن نسميه فناً .

والمفكر الذى ينفصل عن تراثه وشخصيته القومية وتاريخه وبيئته ويربط فكره وذوقه بثقافة وذوق المستعمر مفكر محكوم عليه بالعزلة وبالموت الأدبى والاجتماعى .

وليس معنى هذا أننا فقدنا إلى الأبد ذلك النفر من المثقفين الإفريقيين الذين تأثروا بالعقلية الاستعمارية، حقاً أنها مهمة صعبة أن تحاول ردّهم إلى أصولهم الإفريقية بعد أن تشكّلت شخصياتهم واكتسبوا ألوانا من السلوك والعادات والتقاليد وأنماط التفكير الغربى وقيمه ومبادئه بحيث تكونت لهم طبيعة ثانية حجبت إن لم تكن هدمت الشخصية الأصلية ذات الجذور الإفريقية .

والطريق السليم هو الارتباط بالمجال الإفريقى السليم والذى يضطرهم إلى إعادة التكيُّف وتكوين عادات وألوان من السلوك وأنماط فكرية وقيم تتفق والمجال الإفريقى الذى تقرر أن يندمجوا فيه ليعودوا لأصلهم . . وتكامل الإنسان مع بيئته الأصلية ليس أمراً شاقاً وأن يعود الإفريقى إلى إفريقية ويعيش حياة إفريقية ليس عملا مشيناً . . . وعندئذ فقد يتاح لهم أن يروا الأمور على حقيقتها . سيرون مشاكلنا وسيلمسون الخيوط الرئيسية للشخصية الإفريقية التى عمل الاستعمار على تقطيع أوصالها منذ حطّت أقدامه على أرضها . . .

وسيتذوقون فنوننا وآدابنا وسيدركون القيم الإنسانية لتقاليدنا . . . وعندئذ فقط سيجدون أن علمهم الغربى وثقافتهم الأوروبية قد أصبحت ذات نفع وأنها أدوات تفيد فى عملية تطوير حياتنا دون أن تصبغها بصبغتها وسيجدون أن الحلول التى تعرض لهم لمشاكل حياتنا وكفاحنا حلول نابعة من واقع حياتنا، وأن الناس ستقبل هذه الحلول ببساطة . . . وسيجدون أكثر من ذلك أن العمل الثورى الكامل لا تكفى فيه المفاهيم الديمقراطية وشعارات الحرية ، وإنما العمل الثورى مشاركة فعلية للجماهير فى حياتها ومعايشة مشاكلها والارتباط بها ثم التعبير عنها والكشف عن حلولها والانطلاق الجماعى بها . . .

ولا يكفى أن نكتب نشيداً ثورياً لنشارك فى ثورة العملاق الإفريقى بل يجب أن تمارس هذه الثورة مع الناس ، وعندئذ تأتى الأناشيد طواعية من تلقاء نفسها . . . يجب أن تكون جزءاً حياً نابضاً من إفريقية تفكر بفكرها وتنبض بفنها وعنصراً نشطاً من عناصر الطاقة الشعبية المتحركة نحو الحرية والمناضلة فى سبيل الاستقلال، ولا مكان لفنان أو مفكر جدير بهذا الاسم خارج هذا الكفاح .

* * *

ولقد عانى الرجل الإفريقى طويلا من احتقار الرجل الأبيض ومن إقصائه عن المجالات الدولية وتسخيره عبداً يشقى ليقدم لهم ثروات بلاده غنيمة باردة ، وقد آن لهذا الرجل أن يثور لكرامته وأن يثأر لإنسانيته المهدّدة وأن يطالب بثروته المنهوبة وأن يهبّ مكافحاً فى سبيل استقلاله وحريته .

وكفاح الرجل الأسود ليس كفاحاً عادياً فقد استعدّ له الاستعمار الذى استمرأ استعباده واستحل استغلاله وبدأ يضع العراقيل أمام ثورته فصوّره فى صورة الجنس العاجز الضعيف بحكم تكوينه وخلقته ، والذى تقصر به طبيعته عن بلوغ شأو الرجل الأبيض فى

الحضارة والتقدم ووضع أمامه حاجزاً من العنصرية المادية والمعنوية وكان فى حربه هذه نذلا وضيعاً ضيق الأفق . . . أما ضيق الأفق فقد خبرناه عند ما تحدثنا عن أنانية حضارة المستعمر وامتلائها بذاتها وقصورها عن رؤية ما عند غيرها .

وأما نذالته وجبنه فلأنه لم يتردد عن أن يسحق قسماً من إخوته بنى البشر ويحكم عليهم بالإعدام الأدبى ويسلبهم حقهم فى الحياة الحرة الكريمة ،ويقضى على شخصيتهم القومية فى سبيل أطماع مادية حقيرة . . إنها مسئولية كبيرة وجريمة ينوء بها ضمير الرجل الأبيض وحضارة الرجل الأبيض أن تكتل قوى الحضارة الغربية لتحطيم مجتمعات بشرية كاملة .

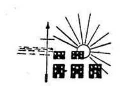
ولكن بفضل صلابة الأحرار وكفاحهم أمكن القضاء على عصر القوة الغاشمة والبربرية البيضاء ، ولم يعد فى وسع دولة استعمارية اليوم مهما كانت أن تفرض سيطرتها على دولة صغيرة بالقوة كما كان الأمر قديماً ولقد نما الرأى العام العالمى وازداد وعى الإنسان ومطالبته بالحرية والمساواة والعدالة والكرامة والسلام .

• • •

واليوم يحاول علماء الغرب التمسح فى إفريقية ومجد إفريقية وتجوب بعثاتهم القارة العتيقة منقبة عن حضاراتها القديمة وتراثها العريق الذى عملوا فيه تمزيقاً وتشويها ، يبحثون فيه اليوم عن القيم والاتجاهات الإنسانية التى عجزت حضارتهم أن توفرها للإنسان .

لقد ظلت إفريقية قروناً تستمع وهى ترسف فى قيودها إلى أنبياء الحرية ورسل الإنسانية ينطلقون من مختلف بقاع العالم ، واليوم تنفض إفريقية عن نفسها أغلالها ،وتتقدم إلى المجتمع الإنسانى عاقدة العزم على أن نشارك فى بناء مستقبل البشرية على أسس من الأخوة والمساواة والعدالة والتضامن الاجتماعى والتعاون الدولى ولعل الرجل الإفريقى اليوم أقدر من غيره على الشعور بأهمية هذه القيم كأهداف تسعى إليها الإنسانية لتحقيق السلام والاستقراء والسعادة لبنى البشر . وهو أقدر من غيره لأنه عاش قروناً فى ظلام الظلم والعسف والاستبداد وظل طوال هذه القرون يتطلع إلى الحرية وإلى المساواة وإلى الكرامة الجديرة بالجنس البشرى، فهو خير من يعرف أهمية هذه القيم والأهداف لتحقيق سعادة الجنس البشرى والاستقرار والسلام على الأرض .

ولعله بفضل تراثه الحضارى القديم القائم على التعاون والتضامن والسلام والذى لا يعرف الأنانية ولا الفردية العمياء .. لعله بحكم هذه القيم التى تكون الملامح الأولى للشخصية الإفريقية أقدر من غيره على تقديمها إلى عالم اليوم ، ليرسم من خلالها خطوط مستقبل البشرية .



دفاع عن الحرية

بقلم الأستاذ إسماعيل مظهر

سبعة رجال ، كلهم أساتذة فى جامعة صغيرة ، ترفعوا جميعاً عن الانغماس فى سياسيات عصرهم . غير أنهم لم يلبثوا أن اتحدوا صفاً واحداً ، ولأول مرة فى خلال قرن كامل ، مسوقين بدافع من ضمائرهم ومشاعرهم ، محتجين على الأساليب غير المشروعة التى اتخذت وسيلة إلى الانتقاص من دستور بلادهم .

ومن غير أن يفكروا قليلا أو كثيراً فى سلامة أنفسهم ، عبّروا بصراحة عما كان يساور كل مواطن مستقيم الفكر من مخاوف وانفعالات . وكان بعض من هؤلاء السبعة ، من العلماء الذين يمثلون بجدارة غاية ما يصل إليه النضج ، كل فى مجاله العلمى .

غير أن صيتهم الذائع عند مواطنيهم ، لم يكن راجعاً إلى فراهتهم العلمية وحسب ، ولكن إلى استقامة أخلاقهم وصلابة عودهم . ولقد توصلوا بشجاعتهم الأدبية ، أن يصبحوا أبطال الساعة فى أمة تؤمن بالقول المأثور : « إن كرامة الإنسان فوق العرش » . ذلك بأن الصفات الخلقية التى اتصفوا بها ، كانت نادرة فى تاريخ تلك الأمة .

كانت صيحة الأساتذة السبعة راجعة إلى انتهاك حرمة الدستور فى « هنوڤر » ، ذلك الانتهاك الذى لم يقتصر أثره المثير ، عند نهاية العقد الثالث من القرن التاسع عشر ، على الأمة الألمانية وحدها ، ولكنه شغل الأذهان فى بقية أمم أوروبا جميعاً . لقد كان ذلك الانتهاك مبعث هم مقيم ساور الدوائر السياسية العليا فى أوروبا ، وحفز « بالمرستون » ، وزير إنجلترا الكبير ، أن يكتب دفاعاً ، اتصف بالاتضاع والمهانة ، عن أمير ألمانى انغمس فى الأخطاء والخطيئات ، ولكنه كان مرشحاً فى خلال بضع سنوات ، أن يصبح ولياً للعرش فى المملكة المتحدة (إنجلترا) .

* * *

فى العشرين من يونيه سنة ١٨٣٧ مات ملك بريطانيا « وليم الرابع » فى قصر وندسور . ولقد وقع فى عصره إصلاحات عديدة فى قانون الانتخاب . أما « هنوڤر » ، وهى مسقط رأس أسرة « جويلف » الحاكمة فى بريطانيا منذ سنة ١٧١٤ ، وكانت مرتبطة والمملكة المتحدة برباط شخصى ، فقد وضع لها دستور تشريعى فى سنة ١٨٣٣ ؛ دستور حديث يضفى الحقوق ، ويعين المسئوليات . وكان من حسنات هذا الدستور أنه أخضع المالية لمراقبة برلمانية ، وزاد إلى سلطة الهيئة التشريعية ، ولكنه ، مع هذا ، لم يتناول مركز الملك واختصاصاته بأى تحوير أو تبديل .

كانت وراثة العرش فى « هنوڤر » خاضعة للقانون السالى[1] ، وهو قانون يحجب النساء من ولاية العرش . فلما مات « وليم الرابع » ، أدى موته إلى انحلال الرباط الشخصى الذى كان يربط « هنوڤر » بالمماكة المتحدة . حدث هذا باعتلاء الملكة « ڤكتوريا » — بنت عم الملك المتوفى ، وكانت عذراء لم تتزوج — عرش بريطانيا .

(١) Salic Law : نسبة إلى قبيلة جرمانية كانت تؤلف جزءاً « من الفرنجة » . وأول من ذكرها المؤرخ « أميانوس » فى القرن الرابع الميلادى .

فى حين أن عرش « هنوڤر » قد علاه حاكم قضى أكثر أيامه فى الريف . وكان ذلك لأول مرة فى مدى ثلاث وعشرين ومائة سنة . ذلك الحاكم هو « إرنست : دوق كمبرلند » ، أخو الملك المتوفى ، وكان فى السادسة بعد الستين ، متخذاً لنفسه لقب « إرنست أوجست : ملك هنوڤر » .

كان « إرنست أوجست » « أفره أولاد الملك » چورج الثالث ملك بريطانيا ، وهم ثلاثة عشر عداً . هذا بالرغم من أنه كان عجولا ينقصه ضبط النفس ، جاهلا ، محتقراً للعلم ، حتى لقد كان ينعت مبعوثيه السياسيين بأنهم : « البهائم الذين هم بمثابة مغامس الأقلام فى حقاق الحبر » ، كذاباً خوّاناً ماكراً مسرفاً متلافاً ، مستغرقاً فى الدَّين ، مغموراً منذ شبابه فى مشكلات وفضائح من كل لون وضرب ، تتراوح بين فضائح حب ، وفضائح قتل ، لم تفسر أسبابها ولم تعرف بواعثها . هذا ما وصفه به مؤرخو الإنجليز ، وما نعته به معاصروه .

درس عند صباه فى جامعة « جوتنجن » ، فلم يتقن حتى اللغة الألمانية . ولكنه برز فى الفروسية وركوب الخيل ، قاد كتيبة من الفرسان فى مغزاة الأراضى المنخفضة ، فأبدى شجاعة ورباطة جأش بالغين ، لم يدانهما من شيء إلا جبروته وقسوته ، حتى إن القائد الألمانى «شيرنهورست» لم يسعه إلا أن يبدى امتعاضه إزاء ذلك ولا يخفيه .

كان أكبر ما يفخر به أن عديله الملك « فردريك ولیم » ملك بروسيا ، قد أقامه قائداً للواء « الهوسار » . أما من حيث المزاج فقد كان خشن الطبع ، بهيمياً متكبراً ، مصعراً خده للناس ، كما أن ملامحه كانت جافة معبرة عن خبيثات فى نفسه . غير أن مظهره كان ممسوساً بالفخامة والوقار ، بله حسن هندامه وأناقته .

ظل الدوق بعض الزمن زعيما لفئة المحافظين فى مجلس اللوردين(١) ، كما كان فى الوقت ذاته ، السيد الأعظم لمحافل « أورانج » ، تلك المحافل التى كان يساور الناس منها الشك فى أنها تسعى إلى استبدال « وليم الرابع » التقدمى ، بكمبرلند الرجعى . ولما نوقش هذا الأمر فى مجلس العموم ، تنصّل الدوق منه محتجا بأن شيئاً من ذلك لم يصل إلى علمه ، وأنه جاهل كل الجهل بهذه الخطة وأشباهها . غير أنه بالرغم من تأكيداته هذه ، حمل على أن يحل هذه المحافل . وليس هنالك من دليل قائم على أن الدوق كان على علم بخطط هذه المحافل ، ولكن من المحتمل أن أغراضها كانت متمشية مع رغباته وميوله . ذلك بأنه كان يحمل للملك « وليم الرابع » حفيظة فى نفسه ، ويكن له حقداً فى قلبه ، لا لأنه أدخل اصلاحاته الكبيرة على قانون الانتخاب لا غير ، بل لأنه عندما أراد الملك أن يعين نائباً لولاية « هنوڤر » اختار أخاه الأصغر دوق كمبردج ، متخطياً إياه .

بوصف أنه أمير من البيت المالك ، كان قد أبدى فى ظل الوصاية وفى حكم الملك « وليم الرابع » ، وجهة نظره فى الإصلاحات الدستورية فى « هنوڤر » . ولكنه لم يصارح بذلك ولم يجهر به . واقتصر ذلك على مذكرات شخصية أبدى فيها معارضته عند اجتماع مجلس الطبقات فى سنة ١٨١٤ ، والإصلاح الدستورى الأول فى سنة ١٨١٩ .

وعندما أخذ رأيه شكلياً بوصفه ولياً للعهد فى سنة ١٨٣٣ ، عارض فى نشر محاضر البرلمان ومخصصات أعضائه ، ولكنه برر القانون وهنأ أخاه به . وإجابة لرغبته أصلحت المواد الخاصة بنشر المحاضر ومخصصات الأعضاء . غير أنه بالرغم من موافقته ظاهرياً ، فإنه أفضى سراً بتعليقات مضادة على الدستور الجديد ،

---

(١) ما يكتبه الصحفيون « مجلس اللوردات » وهو خطأ شائع بينهم .

لأنه لم يجد من الشجاعة ما يمكنه من إبداء رأيه جهرة . ذلك بأنه لم يشأ أن يزجَّ بنفسه فى مأزق ، متربِّصاً بذلك حتى يعتلى العرش .

ولقد فرح الشعب الإنجليزى واغتبط كل اغتباط عندما أعلن بعد وفاة الملك « وليم » أنه تخلَّص منه بوصفه ملكاً ، فضلا عن الأمل فى أن يغادر إنجلترا أولا وأخيراً . ومن أجل ألاّ يفقد لقبه ومركزه باعتباره أميراً بريطانياً ، ومخصصات تبلغ ٢١,٠٠٠ جنيه سنوياً ، أعلن مقسما بالولاء للملكة الصغيرة ، قبل أن يغادر البلاد إلى مقر ملكه .

أما أهل « هنوڤر » وكان علمهم بحاكمهم الجديد أقل من علم الإنجليز به ، فقد ابتهجوا بأن أصبح لهم ملك خاص ، بعد مرور أكثر من قرن من الزمان ، يستقر عندهم ، ويقيم بين ظهرانيهم .

هبط الدوق ولاية « هنوڤر » فى الثامن والعشرين من يونيه ، مُظهراً قليلا من الاكتراث وقليلا من الاستجابة لمثل ظرفه . وفى اليوم التالى مباشرة تهامس الناس بأن الملك الجديد ، كان فى الساعات المتأخرة من ذلك اليوم ، يعقد اجتماعاً وزعيم الحزب الأرستقراطى « هرفون شيل » .

كان « شيل » فى القرن الثامن عشر ، من طراز «كويسلنج»[1] فى القرن العشرين ، انحاز اختياراً فى العصر النابوليونى إلى « مجلس الدولة » الذى ألَّفه « جيروم بونابرت » وكان أخوه « نابوليون » قد نصَّبه ملكاً على « هنوڤر » . ذلك بالرَّغم من عقيدته الثابتة فى مشروعية الولاية وفى اعتلاء العروش . وبعد سقوط « نابليون » سعى حثيثاً حتى استطاع أن ينحاز إلى الدوائر القائلة بمشروعية الولاية ، وارتدَّ بعد ذلك رجعيّاً من أخبث الرجعيين . ولقد ثبت فى عهد الملك « وليم الرابع » بأنه اعترف فى محادثاته مع الدوق ، بأن دستور « هنوڤر » ، كأنما هو من صنع الدهماويين والسوقة .

دعا « الديَّات »[1] للاجتماع فى التاسع والعشرين من يونيه . وكان من المتوقع ، عند جمهور الناس ، وبناء على مواد الدستور ، أن يفتتح الملك مجلس «الديَّات» بكتاب يفضى فيه باعتلائه العرش ، ويؤمِّن الدستور . ولكن الأمور جرت على العكس من ذلك ، صدرت إرادة ملكية تقضى بتعطيل اجتماع المجلس ، وأجَّل اجتماع المجلسين ، الأول والثانى بغير جلبة . وبعد ذلك بقليل أعلن تعيين « فون شيل » رئيساً للوزراء . وفى الوثيقة التى أعلن فيها ولاءه ، ضرب الملك بخط بيده على العبارات التى تشير إلى احترامه الدستور والمحافظة عليه . وبذلك بدأ حكمه بانتهاك صارخ لحرمة الحقوق العامة .

كان من رأى « فون شيل » أن يفض مجلس « الديَّات » فوراً . غير أن « إرنست أوجست » رأى أن هذا الإجراء قد يحدث أزمة غير مأمونة العواقب فى تلك البرهة . ذلك بأنه كان يلاعب الزمن حتى يحصل على قرض قيمته ثلاثة ملايين « ثالر » ، فتردد لهذا فى تنفيذ ما بيَّت عليه النية ، وأرجأه حتى حين .

ولقد أخذ الناس همٌّ مقيم من جراء تعطيل مجلس « الديَّات » ، وتنصيب « فون شيل » رئيساً للوزراء . وبعد أيام من الشك والريبة ، وتحديداً فى الخامس من يوليه ، أصدر الملك ثانى إراداته الملكية ، معلناً أنه يعتبر أن الدستور غير ملزم له ، لأنه ناقص فى كثير من الاعتبارات ، وأنه يحتاج إلى إعادة النظر فيه . بل كان فى هذه الإرادة إشارة ملتوية ، تنظر إلى أن « فون شيل » والملك كليهما ، يرومان العودة إلى الدستور الرجعى الذى صدر فى سنة ١٨١٩ ، وكان

(١) خائن نرويجى تواطأ مع الألمان فى الحرب العالمية الثانية .

(١) مجلس النواب

يضفى على الحاكم حريات أكبر واختصاصات أوسع ، وبخاصة فيما يتعلق بالمسائل المالية .

لم يوقع فى هذه الإرادة غير الملك ووزيره الأول « فون شيل » . فإنهما لم يأبها حتى بأن يطلبا من بقية الوزراء التوقيع معهما فى تلك الوثيقة . وتوقع الناس أن يعارض الوزراء فيها ، غير أنهم لم يبدوا إلا اعتراضات تنقصها الحرارة وينقصها الإيمان ، بل قالوا إن الدستور سوف لا يتغير منه إلا توافهلا قيمة لها . أما الملك « إرنست أوجست » فقد رفض هذه الاعتراضات فى كتاب قصير أرسل به إلى « فون شيل » فى السابع من يوليه . ولم يكن ذلك الكتاب وثيقة سياسية لا غير ، بل كان وثيقة أدبية أيضاً . فقد جاء فيه :

« أما وقد اطلعت على الاعتراضات ، فإنى أشعر أنه مما يخل بوقارى ، أن أترك الشك يساور حقيقة رأيي ورغباتى ، ولذلك أعلن أن الإرادة التى صدرت عنى ، ستظل قائمة » .

* * *

علت صيحة الغضب من جانب الصحافة الألمانية ، عند ما أذيع فحوى تلك الإرادة الملكية . فإذا ساغ فى « هنوفر » أن يكون من حق الملك انتهاك حرمة الدستور ، فلا شك فى أن الدستور سيصبح ألعوبة فى جميع الولايات الألمانية . وفوق كل هذا ، فإن ذلك الاعتداء الصارخ ، قد اتخذ من جانب « نقيل » وافد على البلاد ، يحاول أن يصبح من حقه أن يقرر ما إذا كان الدستور صالحاً أو غير صالح . وظهرت فى الوقت ذاته نشرات ورسائل أجمعت على مجاهدة ذلك « الكمبرلندى » . أما أقوى تلك الرسائل ، فرسالة كتبها وزير الدولة « جرسووف » لم يطبع منها غير خمس وعشرين نسخة ، وظهرت غفلا من اسم كاتبها . ومضت أقوى الصحف الألمانية وأذيعها وأوسعها انتشاراً ونفوذاً ، تهاجم « إرنست أوجست » بغير هوادة .

وطلب كثير من مجالس « الديات » فى كثير من الولايات مثل ساكسونى وبفاريا وبادن ، تدخل « الديات الفدرالى »(١) . غير أن ملك « هنوفر » قد بادر فأعلن أنه لا يسمح بتدخل حكومة من الحكومات فى الشئون « الهنوفرية » بَلْهَ مجلس من مجالس « الديات »

وأخذ القلق يمتد عبر حدود ألمانيا . ففى فرنسا بدأ الحديث عن وقوع ثورة ألمانية أشبه بثورة يوليه الفرنسية . وأراد رئيس وزراء بريطانيا ، لورد « بالمرستون » ، أن يقوم ببحوث مستفيضة فى « هنوفر » ، ليتبين مدى صلاحية الدستور . غير أن الملك « إرنست أوجست » ردّه بجفاء قائلا إنه سوف لا يفضى بأية معلومات عن أمر لا علاقة له بأية حكومة غير ألمانية . ولقد اعتذر « بالمرستون » لجلالته ، كما أن الحكومة الفرنسية ، وكانت قد عمدت إلى تأليب الدول الغربية الحرة ، قد ارتدت عن ذلك الموقف ، لما أن رأى الملك « لويس فيليب » أن ذلك سوف يخلف من ورائه الاضطراب ويزيد القلق ، كما أنه سوف يقوى الحركة الراديكالية فى كل البلدان .

* * *

فى أوائل شهر أغسطس ، ذهب الملك إلى « كارلسباد » مستجماً . وجرت بينه وبين « مترنيخ » محادثات فى قصر « كونجزوورث » ، ناقش فيها ذلك السياسى الفذ ، ظروف السياسة فى « هنوفر » مع الملك . واتفق كلاهما على معالجة الموقف باللين وأخذ الأمور بالهوادة والاعتدال ، ليحولا بذلك دون عرض الأمر على « المجلس الفدرالى » . ذلك بأن الحكومات الدستورية ، كانت قد أعلنت فى مؤتمر عقد فى « ڤينا » سنة ١٨٣٤ ، بأنها تؤيد كل التأييد ضرورة احترام الدساتير وعدم الاعتداء عليها ، وأضاف « مترنيخ » إلى ذلك ، أن كل ما من شأنه أن يقوى دعائم النظام الملكى ومبدأ الملكية ، أمر مرغوب فيه مرحب به ،

---

(١) مجلس النواب الفدرالى أى الاتحادى .

واختتم حديثه بأنه يرغب فى أن ينجح الملك فى إصلاح الدستور ، مع مراعاة كل الاعتبارات التى ليس من مراعاتها بد . وكان « إرنست أوجست » يود أن يستميل بقية الدويلات الفيدرالية ، وأمراء ألمانيا الجنوبية ، أو على الأقل يضمن سلبيتهم الودية . غير أن بعوثه إليهم ، لم تفز بطائل إلا قليلا .

* * *

وانقضى الصيف . غير أن أحداً ما لم يستطع أن يتكهن كيف يستطيع الملك أن يخرج من المعركة التى أشعل نارها . وكان الكساد قد عمّ أنحاء البلاد ، إذ راجت الأقاويل وعمّت الإشاعات ، بأن إلغاء دستور سنة ١٨٣٣ ، وهو قانون البلاد الأساسى ، أصبح أمراً مفروغاً منه مقطوعاً به .

أما الحقيقة فإن « إرنست أوجست » كان قد وقع فى ذلك الحين على الرجل الذى كان متهيئاً لأن يصوغ الأسباب القانونية المبررة لتحطيم الدستور ، بالرغم من أن لجنتين كانتا قد تعاقبتا للبحث عن تلك الأسباب ، فقررتا أن الدستور صحيح وأنه صالح قانوناً من جميع الوجوه .

كان ذلك الرجل قانونياً ألمانياً اسمه « لايست » . وكان كهلا هدّته الأيام . بل كان زميل « فون شيل » فى خدمة « جيروم بونابرت » فخيّل إليه أن فى ذلك الأمر فرصته المواتية ، بعد أن ظل متعطلا سنين عديدة . وكان من رأيه أن الدستور أصبح بغير سند قانونى ، لأنه منذ سنة ١٨٣٤ لم يفز الدستور بموافقة « ولى العهد » (١) وأن الملك قد عدل من بعد ذلك فى مسودة الدستور . وبناء على ذلك الرأى ، فض مجلس « الديّات » فى ٣١ من أكتوبر سنة ١٨١٩ ، وفى اليوم التالى عطل القانون الأساسى ، وأعيد دستور سنة ١٨١٩ مرة أخرى . ومن أجل أن يفوز الملك برضى الجمهور ، خفضت الضرائب المباشرة بمقدار ١٠٠,٠٠٠ « ثالر » .

إن مثل هذا الانتهاك الصارخ للدستور لم يكن متوقعاً ، فظل الناس فى حيرة ، لا يعرفون ماذا يفعلون . وسدى ما توقع الناس أن يتخذ الوزراء الذين هم فى الحكم ، أيه خطوة كانت . غير أنهم ظلوا صامتين ، واستمسكوا بمناصبهم . أما موقف الموظفين المدنيين ، فكان من أنكد ما يتصور . ذلك بأنهم كانوا قد أقسموا بالولاء لدستور ١٨٣٤ ، وما لبثوا أن رأوا أنفسهم ، وبمحض إرادة الملك ، فى حل من قسمهم بالولاء ، من غير أن تصدر بذلك إرادة برلمانية .

* * *

كان هذا بالذات موقف أساتذة جامعة «جوتنجن»— جورجيا أوغسطينا القديمة ، التى اكتسبت بالزمن قداسة وشرفاً ، فكانت من أعرق الأكاديميات الجرمانية . لقد ارتطموا بقضية عظمى ، قضية هل هم أحرار فى أن يقسموا بالولاء للملك وللدستور المعاد ، من غير أن يحلّهم البرلمان من قسَمهم الأول ؟

مع ذيوع هذه الإرادة الملكية ، نبتت فكرة فى الدوائر الأكاديمية بأن خطوة ما ينبغى أن تتخذ ، حتى يعرف الملك أن إرادته هذه ، قد فرضت على الضمير العام ضريبة فادحة ، وأوقعته فى نضال مرير . وكان الأساتذة « ألبرخت » و « جرفينوس » و « دالمان » أول من رأوا بوضوح أن هذه الخطوة لا بد من أن تُتخذ ، وعملوا على أن يضموا إليهم إخوانهم الأساتذة ، وكانوا بعد منقسمين فى الرأى .

وبعـد أن نوقش الموقف من جميع نواحيه واحتمالاته ، كتبت مذكرة ، وقّع فيها سبعة أساتذة وتقدموا بها إلى مجلس الجامعة . وبلغة هادئة لا يواقعها ضعف أو خضوع ، بيّن الأساتذة أن القانون الأساسى الصادر فى ٢٦ من سبتمبر سنة ١٨٣٣ ، لم ينتقص من الاختصاصات الملكية شيئاً ، وأنه على العكس من ذلك عمل على إقرارها بوضوح ،

(١) كان إرنست أوجست ولياً للعهد فى إنجلترا . ولما عرض عليه دستور هنوفر عدل فيه .

وأن « الديات الفدرالى » لم يستئن فى أى ظرف ، شيئاً من ذلك ، وأن ألمانيا قد أجمعت على أن دستور « هنوفر » مدموغ بالحكمة والاعتدال والتبصر .

وجاء فى المذكرة أن الموقعين فيها لا يستطيعون ، ما لم يخالفوا ضمائرهم ، أن يتسمحوا فى أمر جلل كإلغاء القانون الأساسى ، بحكم القوة . وأنهم فوق ذلك، مقيدون بقسمهم الدستورى، وأنهم يرفضون أن يشتركوا فى الانتخابات الجديدة لتأليف مجلس الطبقات(١) ، أو يقبلوا مقاعد فيه ، وأنه لا يتسنى لهم أن يعترفوا بشرعية جمعية تنتخب بحيث يكون انتخابها مناقضاً للقانون الأساسى .

وذكروا فى ختام المذكرة أنهم ظلوا ، فى كل ظرف ، يحذرون طلبتهم من التطرف السياسى ، وأن نشاطهم ، بوصف أنهم معلمين وأساتذة ، كان يرتكز دائماً إلى استقلالهم الذاتى . فإذا ما ظهروا أمام طلبتهم بأنهم رجال يحنثون فى أيمانهم ، ولعبوا هذه اللعبة القذرة ، فإن كل ما ينشدون بتعاليمهم من خير ، سوف يذهب ولا شك سدى ، ولا يخلف من ورائه أثراً واختتموا مذكرتهم قائلين : ماذا يغنى الولاء عن جلالة الملك ، إذا صدر عن رجال حنثوا بأيمانهم ؟

ولقد وقع فى هذه الوثيقة التاريخية سبعة أساتذة هم :

فردريك شارل دالمان : الأستاذ فى القانون الدستورى ، وواضع مشروع القانون الأساسى ؛ وولهلم إدوارد ألبرخت : أستاذ القانون الجرمانى ؛ وجاكوب جريم : أستاذ الميثولوجيا الجرمانية والتاريخ ، وولهلم جريم : أستاذ الميثولوجيا الجرمانية والتاريخ ؛ وجورج جوتفريد جرفينوس : أستاذ الأدب ؛ وجيورج أوجست إيوالد : أستاذ فقه اللغة ، وولهلم إدوارد فيبر : من المواليدين (علماء التاريخ الطبيعى) .

كان أحدهم من مواطنى « هنوفر » ، هو « إيوالد » ، أما الآخرون فمن ولايات جرمانية متفرقة . كان الأخوان « جريم » من مختارية « هيس » ، و « جرفينوس » من « هيس دالمستاد » ، و « دالمان » من « مكلنبرج » ، و « ألبرخت » من « بروسيا الغربية » ، و « فيبر » من « ساكسونى » البروسية . ولم يكن منهم من أخذ بضلع فى السياسة من قبل ، بل إنهم جميعاً قد وقفوا أعمارهم وجهودهم على الدراسات العلمية .

(١) States-General : يتألف منه النبلاء والاكليروس والعامة .

من الواقع أن « دالمان » ظل بضع سنوات عضواً فى « الديات » ممثلا للجامعة ، ولكنه ناصر الحكومة دائماً . ولما تقدم الأحرار إلى المجلس ليقرر العفو عن ثوار سنة ١٨٣١ ، قام « دالمان » غاضباً وهاجم الأحرار قال : « إن الانتقاض على أى شىء حبيب لبنى البشر ، والخروج على كل ضروب الولاء، ليس مما يثير الإعجاب . وليس فى هذه الدنيا من تحررية مطلقة القيمة . وإن الإنسان ليفخر بالأغراض الخيرة . وإذن يكون الحكم على المرء جزءاً من وسائله . وإنى لأعتقد أن السياسة لا يمكن أن تنفصل عن الفضائل . أما إذا كنت على غير الحق فيما أعتقد ، فإنى سوف لا أضحى بساعة واحدة فى سبيل السياسة » .

لم يترك « دالمان » من شك فى أن يحمل الأرجحية لروح المحافظة على روح الإصلاح ، على اعتقاد أن الاستمساك بالمحافظة، حالة تسبق وقوع الإصلاح بالفعل . أما بقية الموقعين فى الوثيقة ، فلا شك فى أنهم كانوا جميعاً من المحافظين تفكيراً وفعلا ، فبعدوا بذلك عن الروح الراديكالية كل البعد .

وانتشرت أخبار معارضة هؤلاء السبعة الأساتذة فى كل ألمانيا انتشار النار فى الهشيم . وبعد أيام قلائل نشرت الصحف نص الوثيقة . وما إن نشر ، حتى اختفى كل أثر للخوف والتردد فى « هنوفر » . وانضم إليهم هيئات أخرى تحتج وتعترض . وهتف الطلاب لأساتذتهم وحيوهم مؤيدين . وشعرت الهيئات المشرفة على الجامعة بقلق معنت ، وطلب المشرف عليها من الأساتذة أن يسحبوا وثيقتهم غير أنهم رفضوا .

وثارت ثائرة الملك عند ما وصله خبر ذلك الاعتراض ، وصرح بأن من المسلم به ، أن رعاياه ، والأساتذة منهم خاصة ، يخضعون لإرادته بغير قيد أو شرط . وقال إن عملهم ذاك ، بالرغم من أنهم أقاموا احتجاجهم على أسس تتعلق بالضمير والكرامة ، عمل ثورى وبمثابة خيانة عظمى .

ولقد قام فى ذهنه بداءة ، أن يذهب إلى « جوتنجن » ليقضى على الحركة بالقوة ، ولكنه عدل عن ذلك ، ورأى أن ينتقل إلى قصر « روذنكرخن » بمقربة من الجامعة ، ولا يبعد عنها أكثر من ساعات قلائل مشياً على القدمين ،

ليصفى حسابه هنالك مع الأساتذة . وعن طريق نائب مدير الجامعة أوعز إلى مجلس الجامعة الأعلى ، أن يتوجه وفد ليمثل عند الملك ، واتفق أن يرأس الوفد الأستاذ « برجهان » نائب المدير وعميد كلية الحقوق ، وسلفه فى ذلك المنصب ، وعمداء بقية الكليات ، ليحادثوا الملك فى الموقف .

إن احتجاج الأساتذة السبعة ، لم يناقش فيه عند ذلك ، ولم يتلق الوفد تعليمات بما يفعل أعضاؤه ، لو أن الأمر قد عرض للبحث .

وصل أعضاء الوفد إلى ذلك القصر ذات يوم فى أواخر نوفمبر ، فاستقبله أحد رجال البلاط ، هو ابن الوزير « فون شيل » ؛ فسألهم : هل أعدوا كلمة يلقونها فى حضرة الملك ، وإلا فسوف لا يمثلون أمامه فأعد رئيس الوفد كلمة رفضها رجل الحاشية بحجة أنها غير كافية . وبدلا من أن ينصرف الوفد من غير أن يقابل الملك ، أجمع الأعضاء على أن تعد كلمة أخرى يعبرون فيها عن ثقتهم بنوايا الملك الطيبة ، ويؤكدون فيها أنهم سوف لا يجنحون إلى آراء أو منازع لا تتفق ومنهجهم هذا .

كانت هذه الكلمة مرضية ، فوافق عليها « شيل » الصغير ، وسمح لرجال الوفد أن يمثلوا لدى الملك ، وأن تتلى كلمتهم . وفى أثناء الحديث أشار الملك إلى وثيقة الأساتذة السبعة ، وأكد أنه كرماً منه ومنّاً ، سوف لا يعاقب الجامعة ، ولكنه سوف يقتص من المخطئين وصرف الوفد غير الأستاذ « برجهان » الذى ظل فى حضرة الملك بعض الوقت . وعند عودة الوفد إلى « جوتنجن » لم يفض أحد من أعضائه بما وقع جهرة ، بل ظل الأمر حديثاً يتناقل سرًّا .

* * *

فى أوائل ديسمبر نشرت صحيفة شبه رسمية اسمها « هنوفرش زيتونج » مقالين تناولت فيهما موقف الأساتذة السبعة ، ومحادثات قصر « روذنكرخن » أما المقال الأول فيقول إن موقف الأساتذة غير مشروع ، لأنهم إذا احتجوا على الغاء الدستور ، إذن لوجب أن يستقيلوا من مناصبهم . أما المقال الثانى فتأييد للكلمة التى ألقاها وفد الجامعة بحضور الملك فى قصر « روذنكرخن » ، مع النص الكامل لها ، ثم ذكرت الجريدة أن أعضاء الوفد قد نكصوا على أعقابهم ، وانشقوا كلية على زملائهم . وكان نشر هذا المقال موضع استنكار عمّ جميع أنحاء ألمانيا . وطلب وكيل الجامعة أن يصحح الوضع علانية ، ولكنه منع من ذلك .

انفرد اثنان من الأساتذة السبعة — وكلاهما من أعضاء مجلس الجامعة ، وكانا يعرفان تفصيل ما حدث فى المقابلة الملكية — بأن نشرا مقالا فى جريدة « كاسارزتيونج » أثبتا فيه أن « هنوفرش زيتونج » قد شوهت القضية ، وأنها روجت لأكذوبة تناقلتها صحف ألمانيا .

بعد فترة وجيزة بدأت إجراءات المحاكمة تلقاء السبعة العلماء . ففى الرابع من ديسمبر مثُلوا أمام مجلس تأديب الجامعة ، وسئلوا عن حظ كلٌ منهم فى الاشتراك فى إذاعة نص وثيقة المعارضة . ولقد علقت أهمية كبرى على مسألة لم تدُر أبداً فى أذهانهم . فمن قبل ذلك اليوم ، وفى الثانى عشر من نوفمبر تحديداً ، أى بعد كتابة الوثيقة بيوم واحد ، نشرت جريدة إخبارية اسمها «رسول كاليجلانى» الفرنسية أن سبعة أساتذة من جامعة « جوتنجن » قد رفضوا أن يوقعوا فى رسالة موجهة إلى الملك ، يعلنون فيها ولاءهم له . فهذا الخبر ، وبخاصة ذكر « سبعة أساتذة » بالذات فى سياقه ، أحيا فى ذهن المسئولين فكرة أن هنالك علاقة بين تلك الجريدة وأساتذة الجامعة .

قرر جميعهم أن ليس لهم من علاقة بالدوائر الفرنسية ، كما ذكر الأستاذ « جاكوب جرِم » فى دفاعه ، أنه حتى صبيحة الثامن عشر من نوفمبر ، لم يكونوا يعرفون كم منهم سوف يوقعون فى الوثيقة ، أخمسة أم سبعة أم أكثر من ذلك وذكر بعضهم أنهم كتبوا عدة نسخ من وثيقتهم ، وأطلعوا عليها بعض أصفيائهم ، أو أرسلوا بها إلى خارج « جوتنجن » .

وما إن انتهى المجلس من سماع أقوالهم ، حتى بادر

السبعة إلى رفع مذكرة جديدة أنهوها إلى وكيل الجامعة كرروا فيها ما جاء بوثيقتهم الأولى ، ونقضوا كل شك ساور موقفهم من حيث اتصالهم بما نشرت الصحيفة الفرنسية ، واختتموها قائلين : « إن الآراء التى انطوت عليها الثورة الفرنسية ، ليست من آرائنا فى شىء . وليست التحررية الفرنسية هى التى حفزتنا أن نكد وأن نعمل لنرفع عن كواهلنا وبطريق التعبير الصريح عن إيماننا الذى هو مسألة ضمير ووجدان ، قيداً أدبياً ، بنا منه خشية وخوف ، يشعر بمثلهما كثير من زملائنا ومواطنينا ، ممن لا يجسرون على الجهر بما يشعرون به . إننا لم نحط عملنا بالسرية ، بل اجتهدنا فى أن نقنع ذوى قربانا وأصدقائنا وزملائنا ، إننا لم نعمل إلا مايجب أن يعمل بطريق قانونى مشروع . وليس فى هذا شىء من التحررية الفرنسية » .

* * *

بعد ثلاثة أيام وفد على مراقب الجامعة ضابط من فرقة « الدراجون » وسلمه رسالة مختومة ، فبادر هذا إلى دعوة الأساتذة السبعة إلى اجتماع يعقد فى أصيل ذلك اليوم ، وكان الرابع عشر من ديسمبر ، وهنالك تسلم كل منهم قراراً بفصله من الجامعة بأمر ملكى موقع فيه من الملك ومن الوزير الأول « ڤون شيل » . وجاء فى ذلك الأمر أن الملك قد صحت إرادته على أن يقلع عن المحاكمة القانونية فيما يختص بالنشر فى الصحف ، ولكنه « استجابة لالتزامات مقدسة ، عمد إلى إجراء حاسم تلقاء الذين وقعوا فى ذلك الاحتجاج ، ليتفادى بذلك نتائج خطيرة ذات بال » وأنهم نقضوا فرض الطاعة لحاكمهم الشرعى وسيدهم ، وأنكروا أن الملك الذى عينّهم فى مناصبهم والذى أقسموا على خدمته ، هو وحده الذى له أن يعفيهم من قسمهم ، وأن الواجب الذى فرضته عليه العناية الإلهية ، يمنعه من السماح لرجال لهم مثل تلك الآراء ، أن يباشروا وظائف عمومية بوصف أنهم معلمون ، وإلا فإنه يخشى أن تصبح القواعد التى ترسو عليها الدولة ، مهددة ملغمة .

أما الأساتذة الثلاثة الذين اعترفوا بأنهم أحاطوا بعض أصدقائهم بحقيقة الواقع ، فقد أمروا أن يغادروا البلاد فى مدى ثلاثة أيام ، فإن لم يفعلوا فسوف تتخذ تلقاءهم إجراءات المحاكمة جزاء ما روجوا للوثيقة بالنشر ، وأنهم سوف يحتجزون فى مكان ما فى « هنوفر » . هذا مع النصح لإدارة الجامعة بأن تصرف لهم مرتباتهم حتى يوم الفصل .

كان هذا الأمر الاستبدادى ، انتهاكاً جديداً لحرمة القانون . ولم يكن صحيحاً أن هؤلاء الأساتذة قد شقوا عصا الطاعة . بل إنهم باعتبارهم موظفين مدنيين ، لهم ما لبقية المواطنين من حق فى أن يعبروا عن رأيهم فى أعمال التاج . وفوق هذا وذلك ، كانوا ملزمين بأن يدافعوا عن الدستور ، تلقاء ما أقسموا على ذلك من قبل .

* * *

فى سنة ١٨١٩ صدر قانون فدرالى ، بيّن بوضوح كل الحالات التى يصحّ معها فصل الأساتذة والمعلمين من وظائفهم . وليس فى هذا القانون حالة واحدة يمكن أن تنطبق على هؤلاء الأساتذة . فإنهم لم يظهروا عجزاً فى كفاياتهم أو القيام بمهامهم ، ولم ينشروا تعاليم خبيثة ، من شأنها أن تزعزع أمن الدولة .

لقد عم الاستياء جميع الأساتذة والطلبة والمواطنين فى بلدة « جوتنجن » ، عند ما أذيع أن السبعة الأساتذة قد فصلوا من وظائفهم ، وأن ثلاثة من أقربهم إلى القلوب قد أبعدوا من البلاد . وكان الطلبة قد وقفوا فى صف الأساتذة منذ أن نشر نص وثيقتهم ، فضلا عن أنهم نقلوا منها نسخاً وزّعوها فى الناس . ووصف « دالمان » بأنه رجل« الكلمة والفعل » ، ووقعت مصادمات بين المواطنين ورجال الشرطة . ومن أجل أن تتفادى الحكومة أحداثاً أخرى ، أرسلت سبعمائة من الجنود إلى « جوتنجن » . ولقد قال الأستاذ « ايوالد » فيما بعد، إن هؤلاء الجند قد تصرفوا كما لو كانوا قد خرجوا منتصرين من موقعة كبرى على عدو عنيد شديد المراس ، ومشوا مستعرضين قوتهم فى شوارع المدينة صائحين صاخبين .

وتحوّل كثير من رصفاء الأساتذة السبعة إلى تأييدهم . فإن كثيراً منهم قد شاركوهم وجهة نظرهم فى مرسوم ١٥ من نوفمبر . غير أنهم آثروا السكوت لأنهم لم يجسروا على الإفضاء بآرائهم . وخشى آخرون — كالأستاذ « جاوس » العالم الطبيعى ، والفيلسوف

« هربارت » ، والأستاذ « هوجو » — أن يشتركوا فى الاجتماع ، خشية أن تقف عجلة العمل المثمر ، وتضطرب الحياة الأكاديمية الهادئة ، إذا ما أخذت الجامعات بضلع فى السياسة . فى حين أن آخرين نكصوا عن التأييد خضوعاً لاعتبارات أقل من هذه قيمة . لقد خشوا — كما قال الأستاذ « چاكوب جريم » فيما بعد — أن تعصف الأحداث بهدوئهم وراحتهم ، فى حين ينشد الآخرون مصالحهم النفعية .

* * *

فى اليوم السابق على فصل الأساتذة من وظائفهم . أرسل ستة من أساتذة الجامعة رسائل إلى رؤساء تحرير صحف ألمانية مختلفة ، استنكروا فيها الاعتداء على كرامة رصفائهم على صفحات جريدة « هنوڤرش زيتونج » ، وأيدوهم بعبارات هادئة رصينة ، فى موقفهم السياسى . وخوفاً من أن يتطور الموقف تطوراً سيئاً ، عدل الملك عن اتخاذ أى إجراء تلقاء هؤلاء الستة . وبالرغم من ذلك فإن الوزير « فون شيل » قد عاود الكرة ، فنشر فى هذه الجريدة أن العبارات التى أذيعت عن الأساتذة السبعة صحيحة من جميع الوجوه . غير أن جريدة « كاسلرزيتونج » قد نشرت فى اليوم نفسه ، وبتوقيع أولئك الذين شهدوا اجتماع القصر الملكى فى « روذنكرخن » ، مقالا أبان عن كذب الوزير وفساد قوله، وخيانته للحقيقة .

كان الأجل الممنوح للأساتذة السبعة ينتهى يوم الأحد . وخشية من أن يقوم الطلبة بمظاهرات فى « جوتنجن » صدر الأمر إلى حوذية المدينة ألا ينقلوا شيئاً إلى خارجها . ومن أجل أن يؤدوا واجب التوديع لأساتذتهم ، قصد مئات من الطلبة فى الصباح الباكر إلى قرية « فتزنهوفن » ، على حدود إقليم « هيس » . وسيق الثلاثة « دالمان » و « جرفينوس » و « چاكوب جريم » سوق المجرمين ، ومن حولهم حرس شديد ، إلى تلك القرية ، حيث قابلهم طلبتهم بهتافات مدوية . وكان الفندق القائم عند الحدود مزدحماً بالناس . ولقد وصف « جريم » حادث خروجه من « هنوڤر » فى رسالة له عنوانها « حول طردى » فقال : « اختلط كثير من الفلاحين بالطلبة ، ليروا الرجال الذين ذاع صيتهم بسرعة فى أنحاء ألمانيا » . وتقدم فلاح صغير السن خجول يستخفى من وراء جدته التى تقدمت نحو « جريم » وقالت — « صافح هذا السيد . إنه لاجىء » ويقول : « وأين رميت بهذا الوصف ؟ فى وطنى ومسقط رأسى ، الذى قبلنى ، ورفض صاحبى » .

* * *

بانتهاك حرمة الدستور ، لم يربح ملك « هنوڤر » من شىء إلا الشك والحقد ، يعتلجان فى قلوب أهل ألمانيا أجمعين . ولم يتكشف عمله تلقاء السبعة العلماء ، إلا عن صيت عريض تلقوه من يدى الملك سائغاً هيناً بين يوم وليلة . لقد مجدهم الكتاب والشعراء . ونشرت صحيفة قصة فى ثوب أسطورة وقعت فى سنة ١٨٣٧ ، قصت فيها حكاية الملك الأحمق والعهد المنتهك والسبعة الأوفياء ، والثلاثة المبعدين . وانتهت القصة بأن يصيح الطفل الذى يستمع إلى القصة : « مستحيل . هل هذا ممكن » ؟

وقامت مظاهرات للتعبير عن التأييد والعطف فى جميع أنحاء ألمانيا ، بله الكتب والرسائل التى عبر فيها كاتبوها عن معانى الإعجاب والثقة ، حملت إليهم من أركان الدنيا الأربعة . وأرسل أساتذة جامعة « كييل » كتاب تقدير إلى زميلهم « دالمان » . وأيد اتحاد « ايلنبج » الأستاذ « ألبرخت » مواطنهم ، وأبدوا نحوه أعظم مظاهر العطف . وأضفت جامعة « كونجزبرج » درجات الشرف عليه وعلى زميله « فيبر » . وأطلق أحد أصحاب السفن اسم « دالمان » على إحدى سفنه . وصنع أصحاب مخازن لعب الأطفال لعبة تمثل توديع الطلبة لأساتذتهم فى « فتزنهوفن » . وعلى الصحاف وأنابيب الماء رسمت صور العلماء السبعة الذين أقدموا على أن يواجهوا الملك بكلمة الحق . وتألفت فى « ليبزج » جمعية ، سرعان ما امتدت فروعها إلى جميع أنحاء ألمانيا ، لجمع الاكتتابات التى يمكن منها

طريقها أن يحتفظ هؤلاء العلماء بكرامتهم المعاشية ، بعد أن انقطع عنهم دخلهم الحلال ، وحرموا من حقوقهم المدنية ، حتى تتهيأ لهم فرصة العودة إلى الحال السوية .

* * *

كان الناس فى مملكة « هنوڤر » أكثر تحفظاً ، خشية أن يثيروا غضب الملك . ولكن موظفاً كبيراً قد صرح جهرة قائلا : « إننا لا نخشى أن نعارض الملك . . . إن سبعة أساتذة قد فعلوا ذلك من قبل » . وقال آخر فى استقالته « إننى مستعد لأن أوقع فى أية وثيقة . . . لسنا إلا كلاباً ضعفاء » وحاول البعض أن يتخلصوا من ولائهم للدستور ومن حساب الضمير قائلين بأن التزاماتهم قبل الملك ، كانت سابقة فى الزمن على التزاماتهم نحو الدستور . وحاول آخرون أن يتخلصوا من شكوكهم ، فقالوا إن الملك هو الذى أدخل فى القسم الذى يقسمه موظفو الدولة ، الولاء للدستور واحترامه . ولكن لم يناصر « إرنست أوجست » ووزيره « فون شيل » غير قلة منهم . وكان كل رجعى يحاول الانتقاص من شأن هؤلاء الأساتذة ، موضعاً لانتقام الجمهور وحقده . أما القسم الجديد الذى طلب الملك من موظفى الدولة أن يقسموا به ، فقد أقسم به كثير منهم مع الإشارة إلى صلاحية القانون الأساسى للبلاد ، وإلى توطيده . وأقسم قضاة محكمة « رسل » العليا ، وتبعهم قضاة المحاكم الأخرى ، قسما مشروطاً بتحفظات . ولقد خشى الوزير « فون شيل » غضبة الرأى العام ، فأقلع عن طرد الموظفين أو محاكمتهم . بل ذهب إلى أكثر من ذلك ، بأن مضى يخفى اعتراضاتهم ، ويحاول أن ينساها . ولقد أرضى الموظفون أنفسهم بأن توهموا أنهم قاموا بواجب الاحتجاج على الموقف ، وعبروا عن سخطهم عليه .

أما السبعة العلماء ، فاتخذوا موقفاً آخر . ففى غضون بضعة الأشهر التى تلت طردهم ، ظهر فى « سويسرا » وفى « ساكسونى » وغيرهما من البلاد ، منشورات يبررون فيها موقفهم ، ويناقشون ، فرادى أو مجتمعين فى مسألة الدستور وموقفهم منه . قال « دالمان » فى إحدى رسائله : « أريد أن أترك البلاد رجلا شريفاً . إنى أرفض بتاتاً أن أكذب على طلابى أو أخدعهم عن الحق . إن ألمانيا الآن فى الميزان . فإذا كان من الهين أن يتحطم الدستور كما لو كان لعبة صبيان ، بالرغم من أن صلاحيته مجمع عليها ، وأن يقع ذلك تحت سمع « الديات الفدرالى » وبصره ، فإن مآل ألمانيا ، حالا ومستقبلا ، يكون فى مهب الأقدار » .

أما عن الأسباب التى حملته على أن يقاوم إرادة الملك ، وأن يحتج على مرسومه ، فإنه قال فى رسالة عنوانها « ابتغاء التوضيح » : إن حافزه لم يكن الاحتفاظ بوظيفته ، ولا الاعتداء على القانون الأساسى ، ولا أن يدلف إلى معترك السياسة » ولكن حُمل على ذلك بوحى من ضميره . وقال « ياكوب جريم » فى رسالته « حول طردى » ، وقد نشرت فى « سويسرا » أيضاً : « الحق وحده يسود ويبقى . إن العالم ملىء برجال يفكرون باستقامة ويعملون بأمانة . ولكن عند ما يدعوهم داعى العمل ، تضطرب قلوبهم وتصطرع بالريب والشكوك والخوف . وفى التاريخ وقائع تشير إلى رجال أحرار نبلاء ، أقدموا على الجهر بالقول الحق فى مواجهة الملك . وغالباً ما تثمر أقوالهم ، وكثيراً ما يبورون وتتلف نفوسهم . غير أن أسماءهم تظل باقية ، فلا تبور ولا تندثر » .

وقال فى مقدمة رسالته : « إن « دوق كبرلند » ولد فى أوسع بلاد العالم حرية ، وأكثرها أمنا وأسعدها حالا ، وتشرب روح الدستور البريطانى منذ نعومة أظفاره . فما ينبغى له إذن ، أن يشعر بكل الانطباعات التى تخلفها فى الذهن تلك العظمة ، وذلك التنظيم المحبوك الأطراف الذى يمارسه السلطان البريطانى على كل إنسان كائناً من كان ، وبالأحرى على كل مواطن من المواطنين . ما من شىء هناك يكون أفعل فى الشعور ، وأشد إيلاماً للنفوس ، وأعجل فى الاستثارة والانتقام ، من أن تنتهك حرمة الحقوق العامة التى تقوم النظامات المدنية حارساً أميناً عليها » .

ولقد ذاعت هذه الرسائل ذيوعاً كبيراً ، وأيدت روح المقاومة تلقاء ملك « هنوڤر » ، واعتدائه على الدستور . وعلى حين غرة ظهر منبه جديد أيد من حركة التحرر والخلاص من استبداد العرش ، والفت فى عضد السلطان الفردى . فإن هذه الأحداث حملت برنس « مترنيخ » أن يكتب إلى ممثله فى « هنوڤر » قائلا « لم أشك ساعة واحدة فى أن اللاجئين السياسيين على اختلاف أوطانهم ،

والذين هم يعملون سوية ابتغاء قيام الثورة ، يتخذون من مظاهر القلق فى مملكة « هنوڤر » وسيلة إلى أغراضهم » .

فقد عمد لاجئو « هنوڤر » إلى إصدار منشورات فى صورة كتيبات ورسائل فى « سويسرا » احتجاجاً على موقف الملك واعتدائه على الدستور ، وكان من أثرها أن تجددت المظاهرات فى شهر مارس من سنة ١٨٣٨ فى « جوتنجن » ، تؤيدها أخريات فى أنحاء متفرقة من « هنوفر » .

* * *

فى أثناء هذه المعركة ظل « إرنست أوجست » ثابت اليقين فى أن أعداءه سوف يخضعون ويقلعون عن موقفهم . قال ذات يوم للعالم الكبير « اسكندر فون همبيولد » : « إن الأساتذة والمومسات والراقصات فى الفنازج(١)، يمكن للمال أن يغرى بهن » .

أما تلقاء السبعة العلماء ، فقد كان واهماً مخدوعاً عن الحقيقة ، حتى لقد ثار ثورة عارمة على أعمال « هؤلاء المجرمين » كما سماهم أو « السبعة الشياطين الملاعين » كما وصفهم ، فعمل على أن يضارهم بكل ما لديه من قوة وسلطان ، عامداً إلى أن يمنع تعيينهم فى جامعات أخرى ، وأن يعوق نشر رسائلهم التى ينشرونها دفاعاً عن موقفهم .

فقد كان « دالمان » لاجئاً فى « ليبزج » ثم فى « جينا » . ورشح للأستاذية فى جامعة « مكلنبرج » . غير أن الملك أشار إلى البلاط فى « شفرين » و« أوسترلتز » أن هذا مما لا يروق فى نظره ، فأسقط الترشيح .

ونشر الأستاذ « جيورج بسلر » رسالة يؤيد فيها الأساتذة السبعة . فبادر « إرنست أوجست » بأن طلب من أرشيدوق « مكلنبرج » أن يعاقبه . ومن أجل ألا يغضب الملك ، ألف الأرشيدوق لجنة تحقيق من ثلاثة رجال ، كان يعلم حق العلم أنهم سوف لا يدينون الأستاذ « بسلر » .

وسمحت جامعة « ليبزج » لبعض منهم أن يحاضر بها ، فما لبث الملك أن حظر على الطلبة الهنوڤريين أن يطلبوا العلم فيها . ولم يكن بهذه الجامعة منهم غير طالب واحد . وتفادياً لغضب الملك لم يعين الأستاذ « ألبرخت » أستاذاً فى جامعة « ليبزج » ، بل سمح له أن يلقى محاضرات خاصة ، مما كان سبباً فى أن يسمى « الأستاذ الخاص » . ولم يستطع أن يشغل وظيفة مدنية إلا من بعد ذلك بسنين عديدة .

لقد كان من الفضل الكبير أن تسمح السلطات فى « ساكسونى » أن ينشر باسم هؤلاء السبعة بيان يتناول حقيقة الموقف ، بعد أن رفع منه كل الانتقادات التى وجهها الأستاذ « دالمان » إلى معارضيه وخصومه . واتخذ بلاط « الدانمرك » موقفاً مؤيداً لموقف الملك . فإن أساتذة جامعة « كييل » عند ما أقدموا على كتابة رسالة تأييد للأستاذ « دالمان » ورصفائه ، زجروا ووجه إليهم أعنف اللوم ، وأمر المراقبون فى إقليم « شلزفيج هولشتين » أن يتخذوا حيطتهم حذر أن« يصدر عن الرأى العام صوت مرفوع » قد يكون سبباً فى إحباط ما يسعى إليه الملك « إرنست أوجست » ويفسد تدبيراته . وكذلك فعلت حكومة « هيس » . فإنها رفضت أن يعطى للأستاذ « جرفينوس » وظيفة ثانوية ، هى وظيفة « خازن المخطوطات » .

وكان هنالك أمل فى دوائر حكومة « بروسيا » أن يسمح الملك « فردريك ولیم الرابع » بتعيين أربعة منهم فى وظائف جامعية ، هم « الأخوان « جرم » والأستاذ « دالمان » والأستاذ « ألبرخت » . واتصلت « بتينا فون أرنيم »(١) بولى العهد عن طريق المشترع المعروف

(١) المراقص العامة .

(١) كاتبة ورائدة من رائدات الحركة النسوية فى ألمانيا فى أواسط القرن التاسع عشر .

« سافينى » ، وكاد الأمر يتمُّ ، لولا أن وقع ما يؤسف له . فإن أمر التعيين كان من اختصاص الوزير « فون زوخوف » ، وهو ممن عارضوا اعتداء « إرنست أوجست » على الدستور ، ولكنه كان يعتقد فى الوقت ذاته أن اعتراض الأساتذة السبعة ، تدخُّل غير مستحب وتقحم فى السياسة العليا للدولة . وكان يعلم فوق ذلك أن « الملك فردريك وليم » يحـاول ألا يأتى شيئاً يغضب « إرنست أوجست » ، فمنع نشر كل ما له علاقة بالأساتذة السبعة أو يصدر عنهم من بيانات . ومن أجل أن يحمل « زوخوف » على إصدار أمر التعيين ، أرسل إليه سياسى معروف من الأحرار نسخة من كتاب « ألبنج » ، الذى أرسل به إلى الأستاذ « ألبرخت » . ولقد استشم « زوخوف » ريح الخطر يساور الدولة من أنحاء مختلفة ، ويلاحقها من جهات متفرقة ، فوافق بعد إغراء ، أن يكتب رداً على الكتاب . وكان رداً أكسبه معابة قال :

« ليس من حق المحكوم أو من المحتوم عليه أن يزن أفعال الحاكم بمقتضى وجهة نظره المحدودة الضيقة ، وأن يزن مشروعيتها علانية ، وبقسوة تشوبها الكبرياء » .

لم يشذ عن القاعدة إلا « وليم » ملك « فورتمبرج » . فإنه تحدّى آل « جويلف » وتصدّى لغضبهم ، فعيّن الأستاذ « ايوالد » فى جامعة « توبنجن » . وسرعان ما صدر الأمر إلى الهنوڤريين ألا يدرسوا فى تلك الجامعة .

بعد سنه من ذلك التاريخ ، التقى الملكان فى اجتماع ببرلين ، فسأل « إرنست أوجست » الملك « وليم » ، وهو من جرمان الجنوب : « لماذا وظف فى الجامعة أستاذاً طرده هو » ؟ فأجابه « وليم » : « لهذا السبب بالذات » .

وهكذا عمل « إرنست أوجست » بطريقة لا تخلق بملك ، حتى يشعر السبعة الطرداء ، بقوّته وجبروته .

قيل إنه بعد إقصاء الأساتذة ببضعة أسابيع ، أراد « جاكوب جريم » أن يزور أخاه ، وكان قد بقى فى « جوتنجن » ، فصدر أمر رسمى بأن يعاد من حيث أتى . ولما أراد الأساتذة « دالمان » و « جرفينوس » و « چاكوب جريم » بعد عشر سنوات من تاريخ موقفهم النبيل ، أن يزوروا جامعتهم ، أنهى « إرنست أوجست » إلى وزير التعليم بأن أمر الإقصاء ما يزال قائماً .

* * *

من أجل أن يثبت السبعة العلماء أن أمر إقصائهم غير قائم شرعاً ، عمدوا إلى رفع دعوى يطالبون فيها بمرتبات نصف سنة . غير أن « إرنست أوجست » ، جرياً على أسلوبه المعروف ، حاول أن يغلّ يد القانون عن إضفاء الحق على مستحقيه ، فأوعز إلى الإدارة القضائية ، عن طريق « ليست » صفيه وحميمه ، أن ترفض إعطاءهم إذناً بالخصومة . غير أن رئيس تلك الإدارة رفض أن يذعن لذلك الإيحاء . ولقد خشى « إرنست أوجست » تلقاء ذلك ، أن يعمد الأساتذة إما إلى المضى فى دعواهم القضائية ، وإما أن يبسطوا الأمر أمام مجلس الديات الفدرالى . ولكى يتفادى الملك هذا الموقف ، ارتد إلى دعوى عدم الكفاءة ، وبذلك ينتهى الأمر . ولقد تأجل اتخاذ ذلك القرار حتى سنة ١٨٤١ ، عند ما تيسّر تأليف مجلس للدولة يرضى أطماع الملك ، فقضى بأن الطرد ومنع صرف المرتبات ، أمران يدخلان فى اختصاصات الملك ، وعلى ذلك ينبغى للإدارة القضائية أن ترفض إصدار إذن بالخصومة .

* * *

بقدر ما أضفى على هؤلاء الأساتذة من صيت وتشاريف ، خسرت جامعة « جوتنجن » بإقصائهم عنها الشىء الكثير .

إن « جورجيا أوغسطينا »[1] القديمة قد فقدت الكثير من بهائها وعظمتها وسمعتها ، ولم تسترد مكانتها الأولى من بعد ذلك . غادرها الطلبة الأجانب لأن طرد الأساتذة ، كان خسارة يعسر تعويضها . وعبثاً ما حاول مجلس الجامعة المرة بعد المرة ، أن يؤذن بعودة الأساتذة

(١) جامعة جوتنجن ، كما سميت عند تأسيسها .

إلى مناصبهم الكريمة ، تلبية لصالح الجامعة ومنفعة المواطنين . ولكن « إرنست أوجست » مضى فى عناده غير آبه بشىء . هذا بالرغم من أن الوزير « فون شيل » نفسه ، قد تحقق لديه ، أن طرد هؤلاء الأساتذة ، كان خطوة حمقاء ، وأنه كان ينافى مصلحة الملك والحكومة والجامعة معاً .

فى سنة ١٨٣٧ تطايرت الشائعات بأن الأستاذين « ايوالد » و « ألبرخت » قد ندما على فعلهما ، فبادر الملك إلى الجهر بأنه قد يؤذن لهما بالعودة إلى منصبيهما ، على أن يثبت أولا أنهما تابا توبة كاملة .

والواقع أنه لم ينكص أحد منهم عن موقفه ، لا هذين ولا غيرهما ، ولم يصدر عن أىٍّ منهم قول قد يفسَّر بأنه تراجع أو تغيُّر فى الرأى أو العقيدة . لقد تقبَّلوا جميعاً مآلهم بكل رجولة وكبرياء .

بعد أن طرد السبعة العلماء ببضعة أسابيع عرضت عليهم جميعاً كراسى الأستاذية فى جامعة « زوريخ » ، غير أنهم اعتذروا عن قبولها ، آملين أن ينصفهم مجلس الديات الفدرالى . ولقد عمل الملك « هنوڤر » ومعه الأمراء أجمعون ، على ألا يصل الأمر إلى القضاء ، وسعى « مترنيخ » بطريقة معتدلة أن يحمل الملك على أن يعالج القضية باللين والحلم . غير أن « إرنست أوجست » رفض ذلك وأباه . ولم يتح لهؤلاء العلماء أن يفوزوا بوظائف تغنيهم شر الحاجة ، إلا بعد سنوات عديدة .

فى سنة ١٨٤٠ عين « ألبرخت » فى أستاذية بجامعة « ليبزج » . وفى سنة ١٨٤٨ كلفه الديات الفدرالى أن يضع دستوراً فدرالياً جديداً .

أما الأخوان « جريم » : « چاكوب » و « ولهلم » ، وقد اشتهر كلاهما بأنهما واضعىْ كتاب « أساطير للطفل والبيت » كما انفرد « چاكوب » بتأليف كتابه الفريد « تاريخ اللغة الألمانية » ، فقد ذهبا إلى « برلين » فى سنة ١٨٤٠ ، وبعد ثمانى سنوات أصبح « چاكوب جريم » عضواً فى الجمعية القومية فى « فرانكفورت » . وعاد المستشرق « ايوالد » إلى جامعة « توبنجن » بعد إقامة قصيرة فى « لندن » ، وظل حتى بعد ثورة ١٨٤٨ أستاذاً بها . وبالرغم من أنه غير يهودى، فقد اشتهر بكتابه « تاريخ الأمة الإسرائيلية » . وبعد أن اندمجت « هنوڤر » فى مملكة « بروسيا » سنة ١٨٦٦ ، رفض أن يقسم يمين الولاء للملك « ولهلم » واضطر من أجل ذلك أن يستقيل من منصبه مرة أخرى . ولقد استطاع الحزب الهنوڤرى المناصر لأسرة « جويلف » أن يمهد له الطريق إلى كرسى فى مجلس الديات الفدرالى بشمالى ألمانيا فى سنة ١٨٦٧ ، وبعد أن قام « الريخ » فاز بكرسى فى « الريخستاج » .

وعاد « فيبر » إلى « جوتنجن » فى سنة ١٨٤٧ ، بعد أن حاضر فى « ليبزج » ست سنوات . وبالاشتراك مع العلامة « جاوس » الشهير ، اخترع المبرقة الكهراطيسية[1] . ولا يزال حتى اليوم مذكوراً بأنه من مستكشفى النظرية الموجية .

وعين « جرفينوس » أستاذاً للأدب الألمانى سنة ١٨٤٤ فى جامعة « هيدلبرج » . وبالإضافة إلى مؤلفه « تاريخ الأدب الألمانى » اشتهر بكتابين أولهما « شكسبير » وثانيهما « شكسبير وهندل » ، ذاع صيتهما فى أوروبا ، كما عرفا عند الإنجليز خاصة . وكان واحداً من مؤسسى جريدة « دويتش زيتونج » ، وعضواً فى برلمان « فرانكفورت » فى سنة ١٨٤٨ ، ولكنه استقال بعد بضعة أشهر ، لأن التطورات السياسية لم ترضه ، وانضم بعد ذلك إلى العصبة التى قاومت توحيد ألمانيا فى عهد « بسمارك » ، لأنهم أنسوا من أنفسهم عدم القدرة على التوفيق بين منازعهم ، ومنازع الحكومة البروسية . ولقد صودرت إحدى رسائله فى سنة

(١) Electromagnetic

١٨٥٣ وكانت بعنوان «مقدمة لتاريخ القرن التاسع عشر» بحجة أنه يستشم منها ريح التنبؤ بمقدم العصر الديمقراطى.

وعُيِّن «دالمان» أستاذاً للتاريخ بجامعة «بون» فى سنة ١٨٤٢ . ولقد أصاب بكتبه عن الثورة الإنجليزية والثورة الفرنسية ، صيتاً عالمياً . وفى سنة ١٨٤٨ مثّل «بروسيا» فى الديات الفدرالى . وعين عضواً فى المجلس البروسى الأول ، وعهد إليه بوضع الدستور البروسى . وفى الجمعية القومية بفرانكفورت ، قاد جماعة القائلين بتوحيد ألمانيا كلها ، بغير النمسا . وما لبث أن اعتزل منصبه فى الجامعة ، لما أن رفضت «بروسيا» الدستور الذى وضعه لها .

* * *

كانت هذه القضية سبباً فى أن يخوض علماء الألمان فى بحر السياسة المائج ، كما حفز الجامعات إلى أن تصبح مراكز لتلقين المبادئ الحرة . ولقد أشارت الصحافة الإنجليزية فى ذلك العهد إلى أن الجامعات الألمانية أضحت خلايا سياسية أيقظت البلاد ، وانقلب الأساتذة قادة رأى يدافعون عن حقوق الشعب وعن السنن الأساسية التى تصدر عن العقل.

ولا شك فى أن قضية هؤلاء السبعة ، كانت السبب فى أن يحزم الشعب الألمانى أمره فى سنة ١٨٤٨ ، فينتخب رجال العلم والمفكرين أعضاء فى برلمان فرانكفورت . ذلك بأن الحوادث قد ألّفت منهم عصبة صالحة تؤيد بتصميم وحرارة ، الحقوق العامة والفكر الحر .

لقد ظل الشعب الألمانى ثلاث سنوات فى شدة ومقاساة من جراء الصراع حول الدستور الهنوفرى . ولم تسر الأحداث فى هوادة ولين كما أراد «إرنست أوجست» و «مترنيخ» وغيرهما من الأمراء الألمان . فبعد أن أعلنت جميع المدن الكبرى فى البلاد أن القانون الأساسى ملزم لهم ، مقيد لضمائرهم ، وأيّدت كليات الحقوق فى كل من جامعات «توبنجن» و «هيلدبرج» و «جنيا» هذا الاتجاه ، اضطر الديات الفدرالى فى النهاية أن ينظر فى الأمر . على أن الرأى كان منقسما فى الديات ، وقامت فيه مظاهرات صاخبة ، حتى بلغ الأمر أن يسُبَّ بعض رجال السياسة بعضاً . وتألفت فيه الأحزاب ؛ فألّف ممثلو «بڤاريا» و «ڤورتمبرج» و «بادن» و «هيس» وكثير غيرهم من صغار الأقاليم حزباً ، كما ألّف ممثلو «النمسا» و «بروسيا» و «هنوڤر» و «برنسويك» وغيرهم حزباً آخر . وبعد مناورات ودسائس ومؤامرات غذّاها «إرنست أوجست» رفض الاقتراح الباڤارى ، وكان يقضى بمراعاة حكم القانون ، وعدم التغيير فى نصوص القانون الأساسى إلا عن الطريق البرلمانى . ولم يفز المدافعون عن القانون بغير إبداء الرغبة فى أن يتفاهم الملك مع مجلس الطبقات . وبذلك خان الديات ، بغير خجل ولا محاسبة من ضمير ، وإرضاء لأمير معتد على القانون ، واجبه الأول فى حماية دستور الأمم الألمانية ، وأجاز اعتداء صارخاً على الحق الثابت . ولا مفسر لهذا ، إلا أن القوة الغاشمة قد هزمت القانون . وظل «إرنست أوجست» بعد ذلك تسع سنين كوامل يمارس حكماً ذاتياً استبدادياً ، حتى أطاح بحكمه الجائر ، أحداث وقعت فى سنة ١٨٤٨ .

* * *

لقد تذهب كلمة الحق وكأنها صرخة فى الفضاء . ولكنها ما دامت حقاً ، فلا بد لها يوماً من أن تقتلع الأوتاد .

دراسات حول الغزالى

فى دمشق

بقلم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

« العلم فضيلة فى ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة »

« من علم وعمل وعلّم فهو الذى يدعى عظيماً فى ملكوت السموات
فإنه كالشمس تضئ لغيرها وهى مضيئة فى ذاتها »

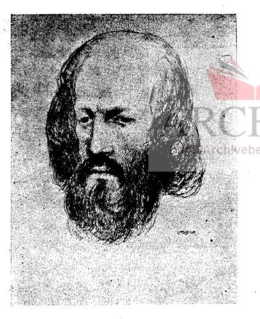
أبو حامد الغزالى

●● حجة الإسلام ، محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالى ، ولد بطُوس ٤٥٠ هـ (١٠٥٩) م وفيها أمضى صباه ، وحفظ القرآن وتعلم الفقه ثم انتقل إلى نيسابور حيث درس على إمام الحرمين الجوينى ؛ وتوجه بعد وفاته إلى بغداد حيث تولى التدريس بالمدرسة النظامية من سنة ٤٨٤ إلى ٤٨٨ ؛ وخرج من بغداد إلى دمشق والقدس ومكة ، وذهب إلى مصر عازماً على السفر إلى المغرب ولكنه عدل ، ورجع إلى طوس ، ثم قام بالتدريس فى نيسابور ، وتوفى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) فى طوس ودفن بها .

وله مصنفات فى شتى علوم الدين والفقه والكلام والفلسفة والمتصوف ، من أهمها سيرته التى كتبها بقلمه وهى « المنقذ من الضلال » وله فى أصول الفقه « المستصفى » وفى الفلسفة « التهافت » ؛ وأعظم كتبه « الإحياء » إلى جانب رسائل صغيرة مثل مقاصد الفلاسفة وفيصل التفرقة ، ومشكاة الأنوار ، وكيمياء السعادة ، وغيرها ، بين مطبوع ومخطوط ، وكلها مشهورة متداولة معروفة .

ولعلنا نظفر بعد هذا المهرجان بطبع ما لا يزال مخطوطاً من مؤلفاته ، مع طبع ما سبق نشره طبعة جديدة محققة .

وكان ينبغى وقد رأيت أن مولده كان سنة ١٠٥٩ بالميلادية أن يقع الاحتفال به منذ عامين ، ولكن الإعداد للمهرجان طال وامتد إلى ما بعد الذكرى المئوية التاسعة هذا الزمن القصير . ولما كان حجة



الغزالى
(بريشة جبران خليل جبران)

الإسلام من أبرز الشخصيات الإسلامية التى خلفت أثراً لا ينكر فى الشرق والغرب على السواء ؛ وكانت الجمهورية العربية المتحدة قد عزمت على تخليد رجالاتها وإحياء ذكراهم والكشف عن مناقبهم ؛ فقد رأى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية الاحتفال بهذه الذكرى فى دمشق ، عاصمة الجمهورية فى الإقليم الشمالى ، بعد توجيه الدعوة إلى شتى البلاد العربية والأسيوية والإفريقية والأوروبية والأمريكية .

●● اشترك من الإقليم الجنوبى عدد كبير ألقى كل واحد منهم بحثاً فى ناحية من فكر الغزالى ، وهم الدكاترة إبراهيم مدكور (المجمع اللغوى) ؛ أحمد فؤاد الأهوانى ، عثمان أمين (كلية الآداب جامعة القاهرة) ؛ محمود قاسم (دار العلوم جامعة القاهرة) ؛ مهدى علام ، عبدالرحمن بدوى ، حسن الساعاتى (كلية الآداب جامعة عين شمس) ؛ ثابت الفندى ، على سامى النشار ، محمد عبد المعز نصر (كلية الآداب جامعة الإسكندرية) ؛ عبدالحليم محمود (الأزهر) ؛ الشيخ محمد أبو زهرة .

واشترك من الإقليم الشمالى عبد الكريم اليافى ، محمد بهجة البيطار ، خالد معاذ ، تيسير شيخ الأرض ، عبد الكريم عثمان ، هيام نويلاتى .

ومن أفغانستان السفير صلاح الدين سلجوقى ؛ ومن العراق محمد الهاشمى ومصطفى جواد ؛ ومن لبنان عمر فروخ ، والشيخ محمد جواد مُغْنية ، والأب فريد جبر ، ومن شرق الأردن الشيخ إبراهيم القطان ؛ ومن السودان عثمان شاهين ؛ ومن الهند الدكتور عمر الدين ؛ ومن باكستان الأميرة فاريشتا ؛ ومن نيجيريا على أبو بكر ، ومن مراكش الأستاذ محمد المنتصر الكتانى .

وبلغ عدد الدول المشتركة زهاء عشرين دولة وهيئة ، مثل جامعة الدول العربية واليونسكو ، وكذلك الجزائر والمغرب ونيجيريا ويوغوسلافيا وأندونيسيا وتركيا .

●● كان حفل الافتتاح مظاهرة عربية ضخمة ، اجتمعت فيها كلمة الدول العربية على اختلاف الزوايا التى تكلم من خلالها ممثل كل دولة . وما أشبه اليوم بالأمس ! لقد نهض الغزالى يوحد كلمة المسلمين إزاء الغزو الصليبى الوافد من الغرب ، ونجح فى ذلك عن طريق « إحياء علوم الدين » ، فلا غرو أن يكون رمزاً للوحدة .

التقت كلمات الممثلين عند معنيين أساسين الأول أن الغزالى إذ وهب نفسه للبحث عن الحقيقة ، لم يكن ملكاً لنفسه بل للإنسانية كلها ، فهو من هذا الوجه مفكر عالمى . والثانى أن دفاعه عن الحق والمعرفة والحرية والكرامة الإنسانية والمثل العليا الأخلاقية ، حفظ للعرب فى الماضى وحدتهم وللمسلمين دينهم ، ولا تزال ذكراه بعد تسعمائة عام تعمل على توحيد العرب وجمع صفوفهم .

كان حفل الافتتاح بحق شعلة الروح المتقدة من قلب الغزالى الراقد فى ثراه ، الخالد على مر الزمان . وإليك طرفاً من الكلمات التى قيلت فى ذلك الحفل :

● قال وزير الثقافة : إن الغزالى رفع من شأن الفكر وأخلص للحقيقة ، وأن الجمهورية العربية المتحدة عازمة على إحياء التراث القديم لأنه جزء من كيان الأمة .

● وتكلم الدكتور عبد الكريم اليافى مقرر لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بالمجلس الأعلى فقال : إن المهرجان كان ينبغى أن يعقد منذ عامين ، وأن الغزالى أمضى أزهر فترات حياته الروحية فى دمشق حيث لا تزال بالجامع الأموى زاوية تعرف باسم الزاوية الغزالية ، وفيها كتب أعظم مؤلفاته « إحياء علوم الدين » واختتم كلمته بآخر ما لفظ به حجة الإسلام حين حضرته الوفاة يوصى بعض أصحابه : « عليك بالإخلاص » .

● وأشاد ممثل العراق بفضل الغزالى ، وذكر أن

جامعة بغداد وارثة المدرسة النظامية التي درس فيها أبو حامد زمنا .
وتكلم ممثل لبنان عن فضل الدين الصحيح والتمسك به في توحيد الكلمة ، ورفع شأن الأمة .

● وأعلن الأستاذ صلاح الدين سلجوقي أنه يعتز بأنه مسلم عربي ، على الرغم من أنه أفغاني .

● وأسف ممثل غينيا إذ تكلم بالفرنسية لا بالعربية مع أنها لغة دينه ، وقال : إنه يرى فى حضوره هذا المهرجان نوعاً من الحج ، وأن الغزالى بطل من أبطال الفكر لن يموت .

● أما ممثل الجزائر فكانت كلمته صدى للثورة الجزائرية فى سبيل التحرير ، فقد طعن فى الفلسفة المادية لأنها : أصل الأزمات النفسية ، وكيف يحتاج المرء فى مثل هذه الأزمات إلى هاد يهديه سواء السبيل ، وقد دعا الغزالى إلى تهذيب النفس وتصفية الروح عن طريق إحياء الدين .

● وكذلك انعكست فلسفة السودان على كلمة ممثله ، وذلك بسبب التفرقة العنصرية . ولكن الإسلام لا يفرق بين جنس وجنس ولا بين أبيض وأسمر وأسود ، وأنه ليس لعربى فضل على أعجمى إلا بالتقوى . واستطرد إلى الغزالى فقال : إنه ظهر فى عالم إسلامى، ممزق .فوحده .

● وألقى مندوبا الهند والباكستان بالإنجليزية تحية مختصرة ، وتكلم ممثل يوغوسلافيا بالفرنسية ، فجعل من الغزالى فيلسوفاً نقدياً نفع العلم بنقده العميق .

● واختتم ممثل اليونسكو فنوه بالغزالى : مفكراً عالمياً ومصلحاً أخلاقياً ومربياً ، ولهذا السبب ترجمت اليونسكو بعض كتبه كالمنقذ ، وأيها الولد ، إلى الفرنسية .

●● رأس الجلسات التى ألقيت فيها البحوث الدكتور إبراهيم مدكور فكان يقدم المتحدثين ، ويعرف بهم ، ويعقب عليهم ، ولخص أعمال المؤتمر عقب انتهائه فى محاضرة لخص فيها ما ألقى من بحوث بلغت زهاء الخمسين ، وخرج من ذلك إلى أمور أربعة هى أن : الغزالى مفكر إنسانى عالمى ؛ وأنه ملك للفكر الحر الذى يقدس الحقيقة للحقيقة ؛ وأنه لهذا السبب بحثه المسلم والمسيحى على سواء ؛ وأن شخصيته فسيحة الجوانب متعددة الأرجاء ، ومع ذلك لم يستنفد المؤتمر القول فيها .

ورأى أن البحوث التى ألقيت تدور حول عدة أبواب : (١) حياته ومؤلفاته ؛ (٢) منهجه وطريقة بحثه ؛ (٣) آراؤه ومذهبه ؛ (٤) أثره ورأى الخلف فيه .

ومن الطبيعى ألا يتعرض للتفاصيل وهو يعرض خلاصة عامة للبحوث والمناقشات ، ولكنه رسم التخطيط العام لمن يريد أن يدرس الغزالى فى المستقبل . فعلى الدارس أن ينظر فى صحة مؤلفاته ، وهل يعد الكتاب الواحد متناقضاً ، وما صلة كتبه الصغرى بكتبه الأخرى .

أما منهج الغزالى ، فهو الشك الذى يفضى إلى اليقين ، وعندئذ نبلغ المعرفة الذوقية ، وهل يمكن أن يكون للغزالى منهج وضعى ؟ وهل له منهج واحد أو عدة مناهج ؟ وهل هى متعارضة فيما بينها ، أو يكمل بعضها بعضاً ؟

ومذهب الغزالى وآراؤه متعدد الجوانب ، فهو أخلاقى ، ومعلم ، ومربٍّ ، وسياسى ، واجتماعى ، وفقيه ، ومتكلم ، وفيلسوف ، وصوفى . وكان الغزالى الصوفى أكثر جوانبه التى بحثها المشتركون فى المؤتمر . فهل يعارض الغزالى المتصوف الفقيه أو الكلامى ؟

أما الأصول التى استمد منها حجة الإسلام مذهبه فعلى رأسها التعاليم الإسلامية ممثلة فى القرآن والسنة ، وهى ذات أثر واضح فى فقهه وكلامه ، ولكنه مع ذلك تأثر بالفلسفة اليونانية وبغيرها من العلوم ، لأن الأفكار الإنسانية تراث عالمى ينتقل من عصر إلى عصر .

تأثر الغزالى وأثّر . فالغزالى قد أثر فى الفكر الإسلامى على الرغم من معارضته للفلسفة وطعنه عليها . ويمكن أن يعدّ التصوف الإسلامى المتأخر تصوفاً سنياً بفضل توجيه الغزالى . وصفوة القول إن كل واحد ينظر إلى الغزالى من وجهة نظره ، فالمحدث لا يرى فيه محدثاً ، والفيلسوف لا يراه فيلسوفاً ، وهكذا .

ولقد حاول الغزالى إصلاح المجتمع الإسلامى .

وكانت الفرق المختلفة من سنة وشيعة ، وباطنية ، ومعتزلة ، وحنابلة وغير ذلك يكفر بعضها بعضاً ، وبلغت أشدّها فى القرن الخامس ، ثم بدأت تخفُّ حدّتها ، ولم يكد يظهر القرن السادس حتى فقدت المنازعات الدينية حدتها . ولقد تأثرت النهضة الفكرية الإسلامية منذ القرن الماضى بالغزالى أكثر من تأثُّرها بأىِّ مفكر آخر .

واتسمت البحوث بالجد ، واعتمدت فى الأغلب على نصوص من كتب الغزالى ، فهى أصيلة ، أثارت مشاكل ، ووضعتها بغية الوصول إلى حلٍّ لها .

ثم أعلن الدكتور مدكور توزيع كتابين ، أحدهما وضع بتكليف من المجلس الأعلى للفنون ، وهو مؤلفات الغزالى للدكتور عبد الرحمن بدوى ، بلغت عدد صفحاته ٥٦٨ ، قسمه سبعة أقسام ، الأول كتب مقطوع بصحة نسبتها (من رقم ١ – ٧٣) ؛ الثانى كتب مشكوك فيها (من رقم ٧٣ – ٩٥) الثالث كتب من المرجح أنها ليست له (٩٦ – ١٢٧) ؛ الرابع أقسام من كتب الغزالى أفردت مستقلة (من ١٢٨ – ٢٢٤) ؛ الخامس كتب منحولة (٢٢٥ – ٢٧٣) ؛ السادس كتب مجهولة الهوية (٢٧٤–٣٨٠) ؛ السابع مخطوطات منسوبة إلى الغزالى (٣٨١ – ٤٥٧) .

والكتاب الثانى «سيرة الغزالى وأقوال المتقدمين فيه» جمعه وحققه عبد الكريم العثمان ، بدأ فيه بذكر كلام عبد الغافر الفارسى المعاصر للغزالى ، ثم ابن عساكر ، وابن الجوزى وياقوت الحموى ، وابن خلكان ، والذهبى ، واليمانى فى مرآة الجنان ، والسبكى فى طبقاته ، وابن الملقن فى طبقات الشافعية ، والزبيدى فى مقدمته للإحياء . وبذلك اجتمعت كل أقاويل القدماء فى حجة الإسلام فى كتاب واحد ؛ طبعته دار الفكر بدمشق فى ٢٢٠ صفحة من القطع الكبير .

وأنهى الدكتور مدكور كلمته بتوصيات المؤتمر وهى : ابتهاج المؤتمر بالبحوث التى ألقيت وزيادة العناية بأعلام الإسلام ؛ طبع كتاب للبحوث التى ألقيت فى المؤتمر ؛ تأليف لجنة لنشر مؤلفات الغزالى نشراً علمياً ؛ أن تعمل إدارة المخطوطات بجامعة الدول العربية على تصوير مخطوطات الغزالى ؛ وضع لوحات تذكارية فى دمشق فى الأماكن التى عاش فيها ؛ الرغبة إلى اليونسكو أن تولى التراث الإسلامى عناية أوفى .

●● حياته

لم يفرد فى المهرجان بحث خاص بحياة الغزالى ، مع أن هذا الموضوع من أهم الموضوعات ولا تزال جوانب كثيرة من حياته مجهولة لم يلق عليها الضوء . ماذا كانت حياته فى طوس عند مولده ، ومن أبوه ؟ وتذكر كتب التاريخ أنه تعلم الفقه على الإمام الراذكانى . كما حكى السبكى فى طبقاته أن الغزالى «سافر فى صباه إلى جرجان إلى الإمام أبى نصر الإسماعيلى ، وعلق عنه التعليقة» ، «ثم رجع إلى طوس» . من هو هذا الإسماعيلى؟ وما هذه التعليقة التى علقها عنه ؟[1]

وما صلة الغزالى بالإمام الجوينى ؟ كانت هذه الصلة جديرة كذلك ببحث خاص ، إذ أجمعت التواريخ على أن الجوينى كان يحسد الغزالى ، وأنه لما صنف «المنخول» (كتاب للغزالى فى الفقه) عرضه عليه ، فقال : دفعتنى وأنا حى ، فهلا صبرت حتى أموت ، لأن كتابك غطى على كتابى» .

بل لقبُ الغزالى نفسه ، هل هو الغزّالى بتشديد الزاى نسبة إلى غزل الصوف ، حيث كان أبوه يعيش من التكسب منه ، أم أنّ الغزالى نسبة إلى غزالة (قرية قريبة من طوس) . وكان المتحدثون فى المهرجان فريقين : فريق ينطق ، اسمه مشدداً ، والآخر مخففاً .

● ألقى الدكتور مصطفى جواد كلمة عن الحياة السياسية والثقافية فى بغداد فى الفترة التى عاشها الغزالى هناك . وكيف انتشرت الفتن بين أهل المذاهب من أهل السنة والشيعة حول الإمامة ، وبين الحنابلة والشافعية ، واشترك العامة فى هذه الفتن ، وحدث كثير من النهب والسلب عند المدرسة النظامية . هذا فضلا عن مقاومة نظام الملك للباطنية إلى درجة أنه عهد إلى الغزالى بكتابة كتاب «المستظهرى

---

(١) انظر مناقشة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، مؤلفات الغزالى ص ٣ – ٥ ؛ وانظر مقدمة عبد الكريم العثمان عن سيرة الغزالى .

فى الرد على الباطنية » . وقد قتل أحد رجال الباطنية نظام الملك سنة ٤٨٥ ، كما قتلوا ابنه فخر الملك .

● وقد حكى الغزالى أنه خرج من بغداد هارباً سنة ٤٨٨ هجرية ، وقد أصيب بمرض نفسانى منعه عن التدريس ودفعه إلى العزلة . وتناول الدكتور عمر فروخ فى بحثه « رجوع الغزالى إلى اليقين » حقيقة هذا المرض ، وسماه الكنظ أو النفظ ، وهو انقباض أو حزن يوشك منه المريض على الموت ، ثم يشفى منه ، ولكن شفاءه لا يمنع من عودته ، وله أعراض جسمية ونفسية ، منها قلة الطعام والنوم ، وتشتت الفكر ، وحب العزلة ، وتجسيم الذنوب فى الماضى ، والخوف من المستقبل ، والشعور بأنه مدعو للقيام بإصلاح . وهذه الأعراض كلها تنطبق على الغزالى ، الذى أصيب بأزمة نفسية تغلب عليها .

● وتعرض الدكتور عمر فرُّوخ لصمت الغزالى إزاء الحروب الصليبية ، وأنه لم يحرك ساكناً ، حتى إننا لا نجد صدى لهذه الحوادث فى كتبه . وهو يرى أن الغزالى ، وقد كان من المتصوفة ، كان يرى أن الحروب الصليبية غضب من الله لفساد العباد .

لقد حاول باحثون قبل الدكتور فرُّوخ تعليل هذه الظاهرة تعليلات أخرى[1] ، ولكنى أرى أن الكلمة النهائية تحتاج إلى كشف عن مصادر حياة الغزالى فى دمشق ، وهذا الجانب لا يزال مجهولا .

نعم ، حياة حجة الغزالى فى دمشق أغمض جوانب حياته ، وقد حاول خالدمعاذ فى بحثه عن الغزالى فى دمشق أن يأتى بجديد فلم يستطع خلاف ما ذكره الغزالى نفسه فى « المنقذ » من أنه اعتكف فى منارة الجامع الأموى يصعد إليها طول النهار ويغلق بابها على نفسه وأنه كان يجلس فى زاوية الشيخ نصر القدسى ، التى عرفت فيما بعد باسم الزاوية الغزالية .

ومن الطريف أن أحد الحاضرين فى المؤتمر شك فى رواية الغزالى ، واعتكافه فى المنارة على أساس أنها الآن بحسب ما شاهده لا يمكن أن تتسع لرجل ، فأجابه الأستاذ خالد معاذ : أن المنارة قد تغير بناؤها وتجدد وأصبحت فى حجمها الحاضر .

(١) انظر عبد الكريم العثمان : سيرة الغزالى ص ٣٧ .

الجديد حقاً هو البحث الذى ألقاه مندوب المغرب الأستاذ محمد المنتصر الكتانى عن صلة الغزالى بالمغرب ، وهل كان فى نيته السفر إليه . فقد اختلف المؤرخون فى ذلك ، وشكوا فى بعض الروايات القديمة التى نصت على أنه وفد إلى الإسكندرية ثم عدل عن المضى .

كان الغزالى على صلة بيوسف بن تاشفين ، كما كان المهدى بن تومرت تلميذاً له حين كان فى بغداد حتى تخرج عليه ، وانتشرت كتب الغزالى فى المغرب زمان يوسف بن تاشفين ، ولكن ابنه عليا لم يكد يتولى الحكم حتى أوقد فى مساجد الأندلس والمغرب نيراناً وقودها « إحياء » الغزالى .

ولعب الغزالى دوراً سياسياً هاماً فى حياة يوسف ؛ ذلك أن الصليبيين والأوربيين منذ سنة ٤٨٦ هـ أرادوا مهاجمة الشرق وتصفية الأندلس . وجاء العلماء من الأندلس إلى يوسف يقصون عليه أحوال أمرائهم وفساد سيرتهم . وجمع يوسف مجلس العلماء الذى كان بمثابة مجلس الدولة للحكومة ومجلس الأمة للشعب ، وسألهم الفتوى ، فقالوا اخلعوا الأمراء ؛ وكان ممن أفتى الغزالى . ثم إن الغزالى سعى عند خلفاء بغداد للاعتراف بيوسف ، ومعنى ذلك توحيد كلمة المسلمين فى المشرق والمغرب ، وذهبت بعثة إلى المستظهر بالله على رأسها القاضى أبو بكر بن العربى ، فاستجاب الخليفة ، وعقد ليوسف الولاية ، وسمى أمير المسلمين ، وسكت النقود باسم الخليفة العباسى فى المغرب . كل ذلك حتى تكون ولايته شرعية ، وسمى يوسف بأمير المسلمين حتى لا يشارك أمير المؤمنين لقبه .

ثم رغب الغزالى فى الرحلة إلى المغرب فى عهد يوسف ليرى ثمرة توجيهه ، وليرى المدينة الفاضلة كما تخيلها ، وبخاصة أن عصر الغزالى فى المشرق كان عصر فرقة وانحلال . ولكن يوسف عاجلته المنية سنة ٥٠٠ هجرية ، وكان الغزالى بالإسكندرية ، فعاد دون أن يكمل رحلته . أما على بن يوسف بن تاشفين ، فكان على عدله وصلاحه وتقشفه رخواً ضعيفاً ؛ فلم يكد يصل كتاب الإحياء حتى ثار بعض الفقهاء على الكتاب زاعمين أن ما فيه من آراء قد خرج فيها عن مذهب مالك ، وجمع الكتاب وأحرق ، على الرغم من معارضة بعض العلماء . ويقال إن الغزالى دعا على على بن يوسف أن يزيل ملكه ، وكان المهدى بن تومرت حاضراً ، فاستجاب الله دعواه .

أقول : ومما يؤيد امتداح المتقدمين الغزالى وهجوم المتأخرين عليه ، أن ابن باجه لم ينكر على الغزالى تصوفه ، قال فى رسالة مخطوطة نقل بعضها الأستاذ المعصومى حين قدم لكتاب النفس لابن باجة[1] ، مانصه

(١) كتاب النفس لابن باجه ، مطبوعات المجمع العلمى بدمشق ١٩٦٠ ، ص ١٣ .

« وانظر مع نظرك فى مقالات الخير فى « عيون المسائل » ، ثم فى قول أبى حامد ، تجد الكل من نمط واحد ، والكل فى التأويل مع الكتاب العزيز متفق . . » وأيضاً : « انظر إلى قول الغزالى فى آخر كتاب المشكاة فإنه يعتقد أن الأول فطرجميع الفاعلين أن يفعلوا ، والمنفعلين أن ينفعلوا . وانظر إلى قول أبى نصرفى « عيون المسائل » يقول . . . وأيضاً : والطريق للصوفية المستعدين للقبول وطريق الغزالى من الطرق الموصلة والطرق المأخوذة أولا عن نبينا صلى الله عليه وسلم » .

●● الفقيه

● من المفارقات الطريفة أن تتكلم فى مسألة فقهية سيدة ، وقد عهدنا أن أرباب هذه الصنعة هم المشايخ . إنها الأميرة فاريشتا دى زاياس ، من الباكستان . وهى سيدة مهيبة جليلة ، مسلمة ، تعرف العربية ، وتحسن نطق الآيات القرآنية ، وحضرت جميع جلسات المؤتمر واستمعت إلى سائر البحوث التى ألقيت بالعربية . ولكنها ألقت بحثها عن رأى الغزالى فى الزكاة ، باللغة الإنجليزية التى تجيدها إجادة تامة . فالزكاة عماد الدين بالمعنى الواسع . وهى حق الله . وهى تطهير المال . وللزكاة أهداف فردية واجتماعية ، فهى من أقوى الروابط الإسلامية . والآداب المطلوبةمن دافع الزكاة فى نظر الغزالى هى البعد عن المن والأذى .

● وألقِىَ بحث واحد عن الغزالى الفقيه ، كان محاضرة طلية من الشيخ محمد أبو زهرة . فذكر أن كتابه المستصفى أحد كتب ثلاثة يعول عليها فى أصول الفقه الإسلامى وأن الغزالى لم يكن شافعياً محضاً ، ولا حنفياً محضاً ، ولا حنبلياً، لكنه سلك طريقاً مستقلا هو الاجتهاد ، ثم طبق ذلك على أمور ثلاثة هى (١) التحسين والتقبيح (٢) المصلحة (٣) الاجتهاد وشروطه .

والعلوم فى نظر الغزالى ثلاثة ، عقلية محضة ، مثل الحساب والهندسة والنجوم والطب وهذه لا يحث الشرع عليها ولا يندب إليها ؛ ونقلية محضة كالحديث والتفسير وليس فيها مجال للعقل ؛ وعلوم يزدوج فيها العقل والسمع ، ويصطحب فيه الرأى الشرع ، مثل علم الفقه وأصوله ، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ، ولا هو مبنى على محض التقليد الذى لا يشهد له العقل بالتأييد والتسديد .

والأصولى ينظر فى وجوه دلالة الأدلة السمعية على الأحكام الشرعية ، وذلك بمعرفة كيفية اقتباس الأحكام من الأدلة . والغزالى يسمى الأحكام « ثمرات » ، يعنى بها الوجوب والحظر والندب والكراهة والإباحة والحسن والقبح والقضاء والأداء والصحة والفساد وغيرها . وهذه صفتها وحقيقتها فى نفسها ؛ ولها مثمر وهى الأدلة الثلاثة : الكتاب والسنة والإجماع ؛ ولها مستثمر وهو المجتهد ؛ ولها طرق فى الاستثمار هى وجوه دلالة الأدلة .

والرجوع إلى العقل هو رجوع إلى مبادئه ، مبدأ عدم التناقض ومبدأ السببية . وطرق العقل التى يسلكها هى التمثيل الذى يرجع للقياس ، والقياس ويسميه مناهج الأدلة ، والاستقراء الذى يرد طرق العقل إلى المشاهدة . ولكن الاستقراء لابد فيه من مساعدة النور الإلهى ، وهكذا فالشرع لا بد له من أن يدعم العقل .

ثم طبق بعد ذلك هذه الطرق الغزالية على أمور ثلا ثة هى التحسين والتقبيح ، والمصلحة ، والاجتهاد ، وبين الشروط التى يجب توافرها عند المجتهد كأن يكون حافظاً للقرآن ، وآيات الأحكام بوجه خاص والعلم بمواقع هذه الآيات ، ثم السنة ، والإجماع والأدلة الشرعية ، ومواضع النسخ ، وطرق الاستدلال ، واللغة العربية .

وأخيراً طبق هذا الاجتهاد على ثلاثة أمور هى الغناء ، وتحديد النسل ، والرشوة ، مبيناً رأى الغزالى فيها من الناحية الفقهية .

أقول : كنت أودُّ أن أسمع جديداً خلاف تلخيص المستصفى . وأضرب بالجديد بعض الأمثلة :

١ ــ من الواضح أن الغزالى يعتمد فى مقدمة المستصفى على المنطق الأرسطى الذى كان متداولا فى زمانه ، وهو نفسه يحيل القارئ إلى معيار العلم ، ومحك النظر . ومن أجل ذلك يقيم البرهان بأنواعه التى ذكرها على منطق أرسطو . ولكن ما الحال وقد تغير هذا المنطق اليوم ، وأصبح المتداول هو المنطق الرياضى ، وله أصول خلاف منطق أرسطو . هل يتفق المنطق الرياضى الحديث مع الاستدلال الشرعى ؟

٢ ــ يقول الغزالى ما نصه صفحة ٥ إلى ٧ من الجزء الأول من المستصفى : «اعلم أن العلوم تنقسم إلى عقلية وإلى دينية ؛ وكل واحد من العقلية تنقسم إلى كلية وجزئية ؛ فالعلم الكلى من العلوم الدينية هو الكلام ، وسائر العلوم من الفقه وأصوله والحديث والتفسير علوم جزئية . . . إلى قوله . . . فإذن الكلام هو المتكفل بإثبات مبادئ العلوم الدينية كلها ، فهى جزئية بالإضافة إلى الكلام . . . الخ » .

فهل يعتبر الغزالى حقاً الفقه وأصوله فرعاً من علم الكلام ؟

وهل علم الكلام أعلى درجة من الفقه وأصوله ؟ وما صلة أصول الفقه بعلم الكلام ؟

•• المتكلم

وهنا نصل إلى جانب هام من فكر الغزالى هو آراؤه الكلامية . ومع الأسف الشديد لم يتناول أحد من المشتركين فى المؤتمر هذا الجانب بالبحث ، مع العلم أنه درس حين عاش فى نيسابور على إمام الحرمين أحد المؤسسين للمذهب الأشعرى . والغزالى نفسه عماد من عمد هذا المذهب . وانظر إلى ابن خلدون فى مقدمته كيف يذكر أن الأشاعرة سلكوا طريقين ، طريق المتقدمين وطريق المتأخرين ، وأن الفضل فى توجيه هذا الطريق الجديد هو الغزالى . هذا فضلا عن أنه كتب مؤلفات كثيرة فى العقائد ، مثل المقصد الأسنى ، فضلا عن الفصول التى وردت فى « الإحياء » خاصة بالعقائد .

•• الأخلاق

• وألقى عن الغزالى الأخلاقى بحثان ، أولها للسفير صلاح الدين سلجوقى بعنوان « أثر الغزالى فى الأخلاق » والثانى للدكتور عثمان أمين بعنوان « معانى الجوانية فى فلسفة الغزالى » .

مهد الأستاذ السلجوقى بمقدمة عن الأخلاق عند اليونان ، بحسب ما وضعها أفلاطون ثم أرسطو ، ثم كانط أخيراً وانتهى إلى أن الأخلاق لا بد لها من الاعتماد على الاعتقاد فى وجود الله ، والنفس والآخرة . ولكن أرسطو فى كتابه الأخلاق ، لم يشر إلى الآلهة . وترجم فلاسفة العرب أخلاق أرسطو ، والذى نجده فى تهذيب الأخلاق لابن مسكويه . وكتب العرب فى أدب الدنيا والدين كما فعل الماوردى ، ولكن صبغته أدبية أكثر منها أخلاقية . أما الذى دوّن حقاً فى الأخلاق فهو الغزالى فى « الإحياء » . وهى أخلاق إسلامية النزعة اعتمد فيها على القرآن والسنّة . وتقوم فلسفته فى الأخلاق على أمور أربعة هى : (ا) لم ينصح بالتقشف والرهبنة بل بالتقوى واجتناب الحرام (ب) تزكية النفس وإعلاؤها (ج) تأييد الفضائل الفردية والاجتماعية (د) تأكيد الأبعاد الثلاثة فى الأخلاق ، وهى الإنسان مع نفسه ، ثانياً مع أفراد المجتمع ، ثالثاً مع ربه ، أى عقيدته ومبادئه ومثله ومعارفه .

والجوّانى والبرّانى فى اصطلاح الدكتور عثمان أمين هو الباطن والظاهر فى اصطلاح الغزالى وخلاصة الأخلاق أنها تقوم على النية ، على الباعث ، وهذا شىء باطن جوانى . أما الوضعية المنطقية فإنها فلسفة برانية تقيس الأعمال بالظاهر ، مع أن الفعل واحد والنوايا مختلفة وكل عمل أخلاقى إما أن يكون برانياً أو جوانياً ، فالجوانى يعتمد على الصدق والإخلاص . خذ مثلا الصوم قد يكون جوعاً وعطشاً وهذا معنى برانى ، وقد يكون تصفية للنفس وهذا معنى جوانى . والنية فى الحكم الأخلاقى لا تقف عند ظاهر النية بل تذهب إلى روحها ، وحقيقة النية هى العمل . ولقد كان لجوانية الغزالى فضلها فى تصفية الإسلام . وكتابات حجة الإسلام تحمل فى صميمها رسالة أخلاقية إصلاحية هى تغيير الجوانى ، وهذا التغيير شرط فى تغيير البرانى . والتصوف هو الاستقامة والصدق لا الحركات الظاهرة والشطحات والتسبيحات وتربية الذقون .

وتعريف الأخلاق عند الغزالى يجمع بين الإيمان الباطن مع تحقيقه بالمعاملة ، فالأخلاق هيئة فى النفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر . فمعيار الأخلاق هو رسوخ ذلك الاستعداد النفسى ، وطريق الجوانية أن يكون اعتماد المرء على بصيرته وإدراكه وصفاء قلبه لا على الصحف والأخذ عن الكتب وتقليد غيره .

ويؤمن الغزالى بحرية الإنسان ، ولكنها حرية جوانية هى ضبط النفس وقمع الشهوات لأن من قهر شهوته فهو الحر على التحقيق ، وهو الملك . إنها أخلاق مستنيرة بهدى الدين .

•• الصوفى

النزعة الصوفية أهم جوانب الغزالى ، وأبرز ناحية فى فكره ، وهى التى انتهى إليها فى أواخر حياته كما حكى فى « المنقذ » . فلم يكن غريباً أن تدور حول الغزالى الصوفى بحوث كثيرة ، بعضها يتجه إلى هذه الناحية رأساً ، وبعضها الآخر يحوم حولها .

وسنكتفى بعرض بحوث أربعة هى : « معرفة الغيب » للدكتور عبد الحليم محمود ، والحاسة الدينية للدكتور أحمد

فؤاد الأهوانى ، « مفهوم الحب » للدكتور عمر الدين ، «التائية» للدكتور زكى نجيب محمود .

الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ بالأزهر ، وهو متصوف متحقق باطناً ، وظاهراً ، ولذلك كانت كلمته نابعة من صميم وجدانه ، وقبساً من اعتقاده ويقينه .

السبيل إلى معرفة الغيب إما متابعة الرسل ، وإما بطريق مباشر هو الكشف ، وهو السبيل الإشراق . وذلك بأن تأخذ إجازة من مشاغل هذا العالم ، وتفر إلى الله ، وتخلو إليه ، وتستجمع الفكر والإرادة وتتأمل العالم الآخر . عندئذ لا تشعر بما حولك ، ولا بمن حولك ، ولا بالزمن ، انتظاراً لإشراق الأنوار الإلهية . إنها فترة لا تعد بحساب الزمن ، فالنور يغمرك ، وتصبح وكأنك نور متصل بالله بطريق مباشر . إنها على الجملة تجربة دينية ، فتخرج منها بعد ذلك لإصلاح المجتمع . والدليل على إمكان معرفة الغيب الرؤيا الصادقة . وإذا كان الرسول قد عرف الغيب ، فهو ممكن فى حق أى إنسان .

● اتجه صاحب هذا المقال فى بحثه وجهة سيكولوجية فوازن بين الغزالى ووليم جيمس ، كلاهما يعتمد على التجارب الشخصية ، ولا ينكر تعددها ، ويؤمن بالدين ، ويرجع به إلى اللاشعور . وجوهر العقيدة الإسلامية إيمان بالله والملائكة والرسل والآخرة ، وهذه كلها أمور وراء عالم الحس ، وعالم العقل . وكان من الطبيعى أن يطلب الناس لا معرفة الله فقط بل رؤيته ، كما طلب موسى من ربه أن يراه فقال له لن ترانى . وذهب بعض أصحاب الفرق الإسلامية إلى جواز رؤية الله ومصافحته وهم المجسمة ، وأنكر معظمهم رؤية الله فى هذه الدنيا ، وقال بعضهم بجواز رؤيته فى الآخرة بحاسة سادسة .

ويذهب الغزالى إلى أن التدين فطرى فى جميع البشر ، ومن أقواله « كذلك بنو آدم فى فطرتهم التصديق بالربوبية » . فإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من وجود آلة لإدراك الدينيات أو النبييات ، وهى حاسة دينية ، يسميها « عين » القلب . وليس المقصود بالقلب قطعة اللحم الصنوبرية الموجودة فى أيسر الصدر ، بل اللطيفة الربانية التى لها بهذا الجسد تعلق .

والدليل على وجود هذه الحاسة بعض ظواهر نفسانية تشيع فى الناس ، مثل قراءة الفكر ، والجلاء البصرى ، والرؤية عن بعد ، كما جاء عن عمر بن الخطاب فى قوله وهو يخطب : « يا سارية الجبل » ، وفى قصة أنس بن مالك حين دخل على عثمان بن عفان وقد نظر إلى امرأة ، فقال له عثمان : يدخل على أحدكم وأثر الزنا ظاهر فى عينيه ؛ فقال أنس : أوحى بعد النبوة ، فأجابه عثمان ، لا ، ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة .

والدليل الثانى هو الرؤيا الصادقة التى تحصل لبعض الناس فى النوم ، وهى عنده دليل على النبوة . والنوم قطع الشعور الظاهر ، وحياة فى عالم اللاشعور . ويمكن بعث اللاشعور بأمرين ، الأول قطع العلاقة بالشهوات ، والثانى موت الشعور فى النوم . وهناك طريقة ثالثة صناعية وصفها فى المنقذ ، هى نوع من التنويم المغناطيسى بأن يقول الشخص الله الله الله ، ويكررها مثبتاً فكره فيها حتى يغيب .

والحاسة الدينية « ذوق » ، والذوق الدينى شبيه بالذوق الفنى عند الشعراء ، فهو هبة وموهبة ، ويمكن تقويته ، وهو متفاوت فى الناس . فالذوق وجدان ، والعلم قياس .

● والدكتور عمر الدين عميد كلية الآداب بجامعة عليكرة . قال إن الحب هو المبدأ الذى يقوم فى أساس مذهب الغزالى ، لأنه غاية طلب الإنسان ، ونهاية رقيه ، وتمام وجوده ، والقوة الدافعة من وراء كل نشاط له . وهو إلى ذلك جوهر الدين ، وفضيلة الخلق ، وأسمى تجربة للصوفى .

ومنابع الحب أربعة : النافع ، والجميل ، والأفضل ، والروح . وهذه جميعاً موجودة فى الحب الإلهى ؛ لأننا إذا أحببنا النوافع أحببنا الله الذى خلقها ، وكذلك فى الثلاث الباقية . وحب الله متصل اتصالا وثيقاً بمعرفته . يجب أن نعرف أوامره التى جاءت فى الشرع ، وأن نتأمل فى مخلوقاته . والصوفى وهو يسلك الطريق إلى الله يتنقل من مقام الأنس ، إلى مقام الخوف ، إلى مقام الرضا حتى يبلغ أسمى مقام هو الحب .

● وقدم الدكتور زكى نجيب لتائية الغزالى بكلمة عن المتصوف والشاعر ، فأداة كل منهما الذوق ، والحدس الصادق ، واستخدام الألفاظ التى توحى دون أن تحدد .

والتائية منشورة فى ذيل كتاب « معارج القدس » ومطلعها :

بنور تجلى وجه قدسك دهشتى	وفيك على أن لا خفا بك حيرتى
فيا أقرب الأشياء من كل نظرة	لأبعد شىء أنت عن كل رؤية

وقد وازن بين ما جاء فى هذه القصيدة ، وبين الآراء الواردة فى المنقذ ، من مثل عدم الثقة بالمحسوسات ، ومنزلة الضروريات العقلية ، وغير ذلك .

وعلى الرغم من أن الدكتور زكى شكّ فى نسبة التائية إلى الغزالى ، إلا أنه مضى مع ذلك فى تحليلها . والواقع أن هذه القصيدة منحولة .

●● الفيلسوف

أربعة بحوث تناولت الغزالى الفيلسوف ، ولكن

كل بحث منها اتجه وجهة تختلف اختلافاً عظيماً عن الأخرى .

● الدكتور عبد الرحمن بدوى ألقى بحثاً عن « الغزالى ومصادره اليونانية » ، فذكر قول ابن العربى إن الغزالى دخل بطون الفلاسفة ولم يستطع أن يخرج منها . وبعبارة أخرى استمد الغزالى فلسفته من الفلسفة اليونانية ، ولم يأت بجديد . وهذه قضية إن صحت خطيرة ، تنزع عن حجة الإسلام حجيته كمفكر إسلامى وكمفكر عالمى . ولا بد من تأييد هذه الدعوى ، وهذا ما قام الدكتور بدوى بالبرهنة عليه . قال إن كتاب التهافت يعتمد على برقليس وعلى رد يحيى النحوى على هذا الكتاب ، وهذا الرد مترجم إلى العربية وقد نشر . توفى يحيى سنة ٦٢٥ ميلادية ، وأورد ١٨ حجة يثبت فيها أن العالم ليس قديماً ، ويذكر البيرونى كتابه وينقل عنه . أما الغزالى فلا يذكر مصادره أبداً .

وفى ربع المنجيات من الإحياء كتاب بعنوان توبيخ النفس ، وهو مأخوذ عن كتاب معاذلة النفس لهرمس . هناك إذن تشابه فى العنوانين ، كما يوجد تشابه فى أسلوب المعالجة ، فهرمس يخاطب النفس بقوله يا نفس ، أو أيتها النفس ، وكذلك يفعل الغزالى . وكذلك الأفكار ؛ يقول الغزالى إن النفس منساقة إلى الهلكة ولا تتعظ ، ويقول هرمس : حتى متى أنت يا نفس سائرة فى طريق الهلاك ، فلا تنساقين . كل ما فعله الغزالى أنه وضع الأفكار فى إطار إسلامى ، وأضاف إليها فكرة الآخرة .

ثم نظرية النور فى « مشكاة الأنوار » مأخوذة من تاسوعات أفلوطين ، من التاسوع الرابع الفصل الخامس . وقد حاول الغزالى الابتعاد عن مصطلحات الفلاسفة حتى يتطابق مع الإسلام والقرآن ، فليس عنده جديد سوى أنه ربط الفلسفة الأفلوطينية بالعقائد الإسلامية ، وأبرز تلك الآراء فى ثوب إسلامى يبدو منه أنه إسلامى خالص .

● والدكتور ثابت الفندى زميل قديم ، درس فى باريس ، واختص بدراسة المنطق الرمزى ، وانتهى به « الحال » إلى أن يكون من أرباب الأحوال . فهو من هذا الوجه شديد الشبه بالغزالى نفسه ، ألقى عنه بحثاً سماه « من فلسفة الدين عند الغزالى » ، ذهب فيه إلى أن حجة الإسلام فيلسوف دينى ، وأن مذهبه يسمى علم الآخرة ، ثم طبق هذه الفكرة على الصلاة ، والتوحيد ، والمعرفة . وهو فيلسوف دينى لأن محور فلسفته هى الدين . فبحث عن اليقين ، وانتهى إلى أن الحقيقة الصوفية معيار للحقيقة ، ثم بحث فى طبيعة الدين وقيمته ، وصلة الله بالإنسان ، وبأخلاقه بوجه خاص ، وعرض بعد ذلك للكشف الصوفى ، والشعائر والطقوس ، وطبيعة الاعتقاد .

وعلم الآخرة بحسب الغزالى تفسير روحى للإسلام معرض عن الدنيا ، متجه إلى الاستعداد للآخرة . على خلاف الإسلام الشرعى الذى هو طريق للعيش فى الدنيا . فعلم الآخرة هو علم القلوب ، علم اليقين . وفى الإحياء تعريض بالفقهاء أى بالمقلدين ، ووظيفة الفقه أنها وسيلة لحكم السلطان فى الشعب ، أما الغزالى فيريد تجاوز حدود الفقه وإعادة الروح إليه .

واليقين الصوفى أساس الآخرة ، لذلك كان شديد العناية بتقوية اليقين ، لأنه رأس الدين . وعلم الآخرة بدايته تعلم ونهايته كشف . يبدأ بعلم معاملة اقتداء بالمشايخ ، وينتهى بكشف عبارة عن أن الله يقذف فى قلب المؤمن بنور من عنده . والرسالة المحمدية دعوة أخلاقية تفهم بطريق الكشف ، وهناك آيات فى القرآن لمن مثل قوله تعالى « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض » لا تفهم إلا بطريق الكشف . وطبيعة الكشف عند الغزالى انعكاس عن اللوح المحفوظ ، وذلك كلما صقل القلب حتى يصبح كالمرآة المجلوة . والتوحيد باللسان لا ينفع فى الآخرة ، وتوحيد الكلاميين فى قولهم لا شريك لله لا ينفع كذلك ، وإنما التوحيد الصحيح أن تعلم أن لا فاعل إلا الله . والصلاة حركات ظاهرة ، وحضور القلب ، وهذا هو جوهر الصلاة على الحقيقة .

● كان عنوان بحث الدكتور مذكور « الغزالى الفيلسوف » فألم بكافة جوانب الغزالى ، فهو فقيه ، وأصولى ، ومتكلم وصوفى وأخلاقى وفيلسوف . وقد اختلط التصوف بالأخلاق عنده فالإحياء كتاب صوفى وأخلاقى فى آن واحد . والأخلاق دينية أقامها على أسس سيكولوجية . وهو متكلم وله آراء كلامية على الرغم من كتابيه إلجام العوام ، والاقتصاد فى الاعتقاد .

اعتمد العرب فى الفلسفة على النقل ، ولكن منذ القرن الرابع بدأوا يفلسفون لأنفسهم ، وانتشرت مذاهب وآراء مختلفة من باطنية واسماعيلية وعلماء وفلاسفة ومعتزلة وأشاعرة . وقرأ الغزالى كل شئ ثم ألف فى المنطق معيار العلم ومحك النظر ومقدمة المستصفى ، وألف فى الفلسفة مقاصد الفلاسفة يحوى ثلاثة أجزاء هى المنطق والطبيعيات والإلهيات ، وقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية ، ووقف روجر بيكون على مقدمته التى يقر فيها أن الرياضيات والمنطق لا تخالف العقل ، وأن الحق فى الطبيعيات مشوب بالباطل ، وأن الإلهيات هى أكثر عقائد الفلاسفة بعداً عن الحق .

ويعد التهافت من أهم الكتب الفلسفية ، فيه مادة غزيرة ، ومنهج جديد فى العرض والتأليف ، إلى اعتراضات ونقد ، وقد جمع مشكلات الفلسفة فى عشرين مسألة . وقد رد عليه ابن رشد فى تهافت التهافت . وكتاب المنقذ من الضلال كتاب فلسفى على الرغم من نقده للمتكلمين والفلاسفة والباطنية لتعويلهم على العقل لا على الذوق . وفى المنقذ نظرية مكتملة فى المعرفة . وفيه حقائق ثلاث لم يتزعزع إيمانه

بها قط ، وهى : الله ، والنبوة ، والآخرة . على الجملة فلسفته دينية تقول بإله قادر عالم فعال لما يريد ، وشاء هذا الخالق الهداية للعباد ، فأرسل إليهم رسلا من أنفسهم .

● الدكتور محمد الهاشمى أستاذ بالعراق ، تكلم عن العِلّية والاتفاق فى مذهب الغزالى ، وهى القضية التى عرضها فى «التهافت» . يقول الغزالى إن الاقتران فى الوجود بين شيئين كالنار والاشتعال لا يستلزم من إثبات إحدهما إثبات الآخر ولا نفيه ، لأن الفاعل هو الله . فالاقتران علاقة زمنية لا سببية ، والحكم يجرى على العادة المستمرة على طبيعة الأشياء . وقد كان فلاسفة اليونان يزعمون أن للأشياء طبائع ، كالنار طبيعتها الإحراق . وقد رد ابن رشد على الغزالى فقال : إن إنكار الأسباب الفاعلة إنكار للبديهيات . والقول بالعادة قول باطل ، إذ محال أن تكون لله عادة ، وليس للأجسام عادة لأن العادة لا تكون إلا لذى نفس . فلم يبق إلا أن تكون العادة للإنسان ، والكلام على ارتباط شيئين فى الخارج .

● أما الأب فريد جبر من لبنان ، فقد انقطع لدراسة الغزالى زمناً طويلا ، وكتب بالفرنسية عنه كتابين ، أحدهما عن نظرية المعرفة . وكان موضوع بحثه «مع الغزالى فى صميم تفكيره» . ذهب فيه إلى أن الغزالى اهتم بعلاقة الله بالإنسان وأن صميم تفكيره مركز على الإنسان ، الذى إذا صفى نفسه وصقلها قذف الله نوراً فى قلب المؤمن يبدد الشك والحيرة ويؤدى إلى اليقين . وأن الله موجود فى قلوب عباده المؤمنين ، كما قال عمر : رأى قلبى ربى . وللغزالى أدب دينى عبارة عن أدب صرف ، وله تحليلات نفسية رائعة . وقد بسط الغزالى عقيدة أهل السنة وبين موقف الإنسان منها متدرجاً بالاعتقاد وهو لفظى ليس فيه انشراح ، ثم بالعلم وهو إزالة الغفلة والاستبصار بحقائق الأمور ، ثم أخيراً بالمعرفة وهى تقوية العلم بالتصديق ، وهو اليقين .

وقد نوقش صاحب البحث فى بعض هذه الآراء ، منها : أن الله ليس موجوداً فى قلب الإنسان على الحقيقة ، بل هو مجرد استعارة وتشبيه وكذلك قولة عمر . ومنها أن الغزالى لم يكن بارعاً فى اللغة ، وليس له أدب دينى ، ولم يبتدع هذا الأسلوب وهذه اللغة ، وأن اللغة العربية كانت متسعة قبله لجميع المعانى التى ذكرها .

●● الاجتماعى

تكلم الدكتور عبد الكريم اليافى عن تحديد النسل ، فقال : إن العرب جروا على الفخر بكثرة الولد ، وظهرت فى القرن الرابع فى بغداد نزعة لضبط النسل ، وكتب أبو طالب المكى فى مزايا الزواج والعزبة . وتكلم الغزالى عن فوائد الزواج وهى إنجاب الولد ، وكسر الشهوة ، وتدبير المنزل ، ولكن الولد هو الأصل لأنه المقصود من إبقاء الجنس . ومن آداب الزواج عدم العزل . والغرض من تحديد النسل إما محافظة المرأة على جمالها ، أو اشتغالها بالكسب ، أو الظروف الاقتصادية . وهذه الحالة الأخيرة قد يباح فيها ضبط النسل .

● وتكلم الشيخ إبراهيم القطان من الأردن عن الغزالى المربى والمعلم ، فلخّص رسالة «أيها الولد» ، حيث ذكر فيها الغزالى كل ما يحتاج إليه المعلم والمتعلم فى عصره . وقد مزج الغزالى بين العلم والعمل ، فقال إن العلم بغير عمل جنون والعمل بغير علم لا يكون . ثم نصح الغزالى المتعلم بثمانية أمور ، منها ألا يعظ قبل أن يكون هو عالماً أولا ، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

● وحاول الدكتور حسن الساعاتى أن يبين أن منهج الغزالى فى الإحياء «وضعى» ووازن بين منهج الغزالى وأوجست كونت الذى ذهب إلى أن الإنسانية مرت فى حالات ثلاث هى الدور الدينى ، ثم الفلسفى ، ثم الوضعى أى العلمى . ومنهج الغزالى موضوعى ، وغرضه إصلاح المجتمع فى عصره ، وعند ما يبحث موضوعاً يمهد له بمقدمة نظرية ، ثم يبين ما فى جانبه من محاسن وما فى ضده من مساوئ ، التى يسميها الفوائد والغوائل ، ثم يؤيد وجهة نظره بعد ذلك بعد النظر فى السلوك والظواهر وأحوال الناس .

● وتكلم الدكتور عبد المعز نصر عن فلسفة الغزالى السياسية ، معتمداً على كتاب «التبر المسبوك» الذى ألّفه الغزالى لأحمد بن ملكشاه ، وهو كتاب فى فن الحكم ، ويقوم على فكرة العدل التى تتوافر من الأخذ بنظام الدين والدنيا معاً ، فالدنيا مزرعة للآخرة ، ولا نظام للدين إلا بالدنيا . ويعرف الغزالى السياسة بأنها استصلاح الخلق بإرشادهم إلى الطريق المستقيم . ولذلك كان مفهوم السياسة عنده مرتبطاً بالأخلاق والتعليم والتهذيب . والسياسة مفهوم قانونى ، هو علاقة الأفراد بعضهم ببعضهم الآخر ، وعلاقتهم بالدولة . ومن واجب الدولة أن تكون صاحبة سلطة لكبح جماح الشر ، والنظر فى تناسب السكان والموارد الاقتصادية . والشرع الإسلامى كفيل بحل المشاكل . الخلاصة هناك ثلاث دوائر متراكبة بعضها فوق بعض هى الدين ، ثم الدنيا ، ثم الدولة . ولكن لا بد من قيام الدولة أولا قبل وجود الدين والدنيا . والسيادة تتم بالشوكة والقوة ، والشعب مصدر السيادة ، ولذلك نفى فكرة الإمام المعصوم ، والشعب يختار الإمام بالمبايعة طبقاً لإرادة الله . واشترط

الغزالى فى الدولة أموراً أربعة هى النجدة ويقوم بها الجند ، والكفاية ويقوم بها الوزارة ، والورع الذى يجب توافره فى الإمام ويقوم الورع على العدل ، ثم العلم وينهض به العلماء .

وقد أباح الغزالى وجود الحاكم الظالم خشية الفوضى .

●● النفسانى

● تكلم الدكتور مهدى علام عن الحسد عند الغزالى ، فقال إن الحسد أساس الجرائم البشرية ، وله أصول نفسية ، والحسد تمنى زوال النعمة من صاحبها . ويؤدى الحسد إلى الحسرة والآلام النفسية . وقد وصف الغزالى الحسد فى ربع المهلكات من الإحياء ، ورتب أحوال الحسود ، ابتداء من الغضب ، فإذا عجز عن كظم الغضب رجع إلى الباطن وأصبح حقداً ، ثم الحسد وهو ثمرة الحقد ، وعندئذ يحاكى المحسود استهزاء به ، وقد يعتدى عليه . والحاسد يطلب أولا إبطال النعمة عن المحسود ، ثم الشماتة به ، ثم الانقطاع عنه ، ثم الإعراض عنه ، ثم الكلام فيه . وفرق الغزالى بين الحسد والغبطة ، وهما موقفان مختلفان بإزاء من تأتيه نعمة ، الموقف الأول أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها وهذا حرام ، والموقف الثانى ألا تحب زوالها ولكن تشتهى لنفسك مثلها ، وهذه تسمى منافسة وغبطة . وضرب مثلا بالحديث الشريف : لا حسد إلا فى اثنتين . . . الخ .

وأسباب الحسد سبعة ، العداوة ، والتعزز ، والكبر ، والتعجب ، والخوف من فوت المقاصد ، وحب الرياسة وطلب الجاه ، وخبث النفس .

وأعظم أسباب الحسد التزاحم على طلب غرض واحد ، ودواء ذلك أن يطلب المرء نعمة السماء التى لا زحمة فيها .

● وتكلم الأستاذ عبد الكريم العثمان عن وظائف النفس عند الغزالى فبيّن المصادر التى استقى منها آراءه ، وهى القرآن والسنة ، ثم المصدر الفلسفى عن ابن سينا وابن مسكويه ، ثم المصدر الصوفى عن أبى طالب المكى والقشيرى والمحاسبى . وللغزالى ضربان من البحوث النفسية ، الأول فى كتبه الأولى مثل معارج القدس التى يحاذى فيها أرسطو ويقول بالملكات النفسية أو القوى ووظائفها . والثانى بحوثه فى الإحياء ، وهى بحوث أصيلة انفرد بها الغزالى ، ونحا بها نحواً تحليلياً ذهب إلى أعماق النفس البشرية محللا إياها ، مبيناً دوافعها ومظاهر سلوكها .

* * *

●● بقيت بعض بحوث لا يتسع المجال للإشارة إليها ، وسيظفر بها القارئ مطبوعة فى الكتاب الذهبى للمهرجان كاملة . وأحسب أننا بذلك قد قدّمنا صورة أقرب ما تكون إلى ما دار فى أسبوع الغزالى بدمشق بمناسبة مرور تسعمائة عام على مولده . ولا شك أن المشتركين فى ذلك المهرجان ، والذين استمعوا إلى البحوث التى ألقيت فيه قد استفادوا فوائد جمة ، واستناروا فيما يختص بمشاكل كثيرة ، كانت تعرض لهم عند دراستهم للغزالى .

* * *

وهذه بعض انطباعات عابرة عن المهرجان أحب أن أختم بها هذه الكلمة :

● كان البرنامج مزدحماً بالبحوث صباحاً ومساء ، وأعطى لكل متكلم نصف ساعة يلخص فيها بحثه ، فلم يتسع الوقت فى اليوم الأول للمناقشات . ثم اختصر الوقت إلى عشرين دقيقة فقط لكل متحدث ، وهى غير كافية لعرض موضوعه عرضاً وافياً . ثم أفسح المجال للمناقشة ، وهى المقصود الأول من المؤتمر ، إذ يتبادل المؤتمرون الرأى ، ويقرعون الحجة بالحجة .

● نشرت بعض صحف دمشق بحوث بعض الأعضاء كاملة ، فكانت تحية طيبة من الصحافة فى أسبوع الغزالى .

● صليت الجمعة فى مسجد التكية الموجود أمام جامعة دمشق ، فسرّنى أن يتناول الخطيب حياة الغزالى وأثره فى حفظ الدين ، وبذلك شارك الشعب مشاركة فعّالة فى المهرجان .

● أبدى أحد الطلبة الإيرانيين ملاحظة عن كتب الغزالى بالفارسية ، وذكر أن شعب إيران كان يتكلم الفارسية زمان الغزالى . وهذه الملاحظة جديرة بالبحث نعنى هل كانت اللغة السائدة فى فارس هى العربية أو الفارسية ، وهل ألّف الغزالى بالفارسية ، أم ترجمت كتبه . وإن كانت قد ترجمت فمتى وقعت الترجمة ؟

● كان الحضور فى الصباح أقل منه فى المساء ، ولكن عدد المستمعين لا بأس به مما يدل على يقظة الوعى الثقافى والشغف بالاستماع إلى المباحث الجدية . وهذه ولا ريب من علامات رقى الدول .

بعثة رفاعة الطهطاوى

بقلم الدكتور أنور لوقا

تحين فى التاسع والعشرين من شهر مايو الحالى الذكرى الثامنة والثمانون لوفاة رفاعة الطهطاوى . ولقد أصبح اسم « رفاعة » علما يدل على نهضتنا الفكرية الحديثة . ولا شك فى أن أهم طور يشرح لنا فى حياة هذا الرجل — وفى حياتنا — كيف تلقى دوره الكبير ، هو بعثته إلى باريس « لطلب العلم » . وهل كانت هذه البعثة فاتحة عهد جديد فى تاريخنا ، إلا منذ التحق بها رفاعة ، مصادفة ؟ أجل ، وما أكثر ما يتنكر القدر الحاسم فى صورة المصادفة ! إننا سنحاول هنا أن نروى قصة تلك « المصادفة » ، مستقاة من وثائق المحفوظات وشهادات المعاصرين ، حتى نجتلى حقيقة الظروف التى مهدت للبعثة ، وأحاطت بها ، ونقدر النتائج التى أسفرت عنها . وإذ نسلط الأضواء على الحدث بجملته ، نود أن نبرز مكان رفاعة الخاص بالنسبة إلينا ، وأن نزجى هذا المقال تحية وفاء للرائد الجليل .



رفاعة الطهطاوى

* * *

نحن فى ميناء الإسكندرية ، ضحى الخميس ١٢ من أبريل سنة ١٨٢٦ ، نودع أربعة وأربعين شاباً يصعدون ، واحداً تلو الآخر ، سلم السفينة الحربية الفرنسية « لاترويت » (La Truite) ، التى تقصد مرسيليا . ونشاهد أحدهم ، وهو شيخ معمم ، يسرع قبل ركوب السفينة فينحنى على ماء البحر ، ويغمس فيه يديه ، ويغترف منه ويشرب « حثوات عظيمة » . إنه رفاعة الطهطاوى ، يطبق نصيحة أستاذه العزيز الشيخ حسن العطار ، الذى جرب فى رحلاته — إلى سوريا وتركيا — أن « ماء البحر المالح يدفع ألمه » . ورفاعة فتى أسمر ، متوقد العينين ، فى الخامسة والعشرين من عمره ، قد تخرج أخيراً من الأزهر ، بل ألقى فيه بعض الدروس . وقد أفلح شيخه « العطار » فى أن يقنع محمد على بأن يضيفه إلى هؤلاء المبعوثين ليكون لهم إماماً فى « بلاد الإفرنج » التى خلت من الأئمة .

ولم تكن فكرة إرسال بعثة دراسية إلى باريس فكرة جديدة ، فقد دعا إليها «جومار» (E.-F. Jomard) قبل ١٨١٢ . و « جومار » مهندس جغرافى كان بين العلماء الذين اصطحبهم بونابرت إلى مصر ، وظل — بعد جلاء الحملة — شديد الاهتمام بالدراسات المصرية ، فأشرف على نشر أبحاث أولئك العلماء فى المصنف الموسوعى المعروف« وصف مصر » ، وأصبح من

أبرز رجال التربية والتعليم والهيئات الثقافية فى بلاده . لقد عرض على « محمد على » ، عن طريق قنصل فرنسا « دروفيتى » ، مشروعاً «لبعث الحضارة فى مصر بالتعليم» . ولكن محمد على كان لا يهمه إذ ذاك إلا تثبيت أقدامه فى ولاية مصر ، فلم يلتفت إلى هذا الكلام عن « بعث الحضارة » . وكان لقضاء حاجات حكومته الناشئة ، يستعين مباشرة بالأوروبيين . غير أن ضرورة تزويد مصالحه بمطبعة ذات حروف عربية ولاتينية لم تلبث أن ألحّت ، فأوفد حوالى سنة ١٨١٥ « نيقولا مسابكى » — وهو سورى الأصل — إلى إيطاليا ليتعلم الطباعة . لأنها كانت أكثر بلاد أوروبا استشراقاً . ألم يستول بونابرت فى روما على تلك المطبعة العربية التى حملها إلى القاهرة لطبع منشوراته وبث دعايته؟ ولقد كانت اللغة الإيطالية حتى أوائل القرن التاسع عشر أوسع اللغات الأوروبية انتشاراً فى الشرق؛ وكان عدد كبير من الإيطاليين يعملون فى مصر ، لا تجاراً فحسب ، بل ضباطاً وأطباء ومدرسين أيضاً . وعاد « مسابكى » إلى القاهرة — سنة ١٨١٩ على وجه التقريب — ومعه المطبعة التى عين مديراً لها سنة ١٨٢١ ، فى بولاق ، حيث ألحق أولا بمدرسة « عثمان نور الدين » . وفى العام التالى ظهر أول مجلد مطبوع ، وهو قاموس إيطالى — عربى .

و « عثمان نور الدين » هذا رجل تركى ، كان أول طالب أرسل إلى فرنسا . فبعد أن تجوّل لحساب « الباشا » حيناً فى دويلات ألمانيا وسويسرا وأنفق بضع سنوات فى إيطاليا ، نقله من « ليفورنو » إلى « مرسيليا » تركى آخر فى خدمة محمد على هو « أمير البحر إسماعيل جبل طارق » ، أثناء إحدى رحلاته إلى « ستوكهولم »(١) .

وفى مرسيليا أنجز عثمان مع رجال الأعمال مطالب عاجلة لمولاه ، فى أواخر سنة ١٨١٨ ، ثم أقام فى باريس عاماً وبعض عام ، فدرس الفرنسية والإنجليزية والرياضة . ولم يفت جومار أن يزوّده ، عند أوبته سنة ١٨٢٠ ، بصورة جديدة من المشروع ليسلمها للباشا . ولقد سلمها للباشا ، ولكن دون تحمس للفكرة — إذ كان ميالا لإيطاليا التى سرّته المعيشة فيها — فانصرف الباشا عن مشروع جومار مرة أخرى . وأما عثمان فقد عمل مدرساً للغة الفرنسية ، ثم مديراً لمدرسة بولاق ومكتبتها ، ورقّاه محمد على حتى ولاّه قيادة الأسطول سنة ١٨٢٨ ، غير أنه فرّ من غضب الباشا عليه سنة ١٨٣٣ ، حين أرسله لقمع الاضطرابات فى جزيرة « كنديا » فأبى أن يبطش بأهلها .

بدأ الأمر إذن ببعثتين فرديتين ، إلى إيطاليا . ولم يكن بدٌّ بعد ذلك من إرسال بضع عشرات من الشبان دفعة واحدة للدراسة فى أوروبا ، تلبية لما تشعب من حاجات الدولة . فإن الكتاتيب الصغيرة القابعة فى ظل المساجد والكنائس، بل الجامعة الأزهرية التى انعزلت فى عصر الاختناق التركى عن التيارات العلمية الحديثة(١) ، لم تكن بالمعاهد التى تصلح لتخريج الضباط والأطباء والمهندسين ، والموظفين والصناع ، أى جميع تلك الأيدى اللازمة لإدارة المؤسسات الحربية والاقتصادية التى قام عليها نظام الوالى الجديد فى استغلال البلاد واحتكار مواردها(٢) . ولقد لمس محمد على هذا النقص، منذ استتب له الأمر . فنحن نراه يعهد سنة ١٨١٦ — أى بعد أن فرغ من القضاء على المماليك

(١) عن هذه الرحلة ، انظر محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :
Correspondance Consulaire, Alexandrie, vol. 1g, fos. 278-281.
وعن شخصية « إسماعيل جبل طارق » ، مقال Auriant فى Rev. Bleue سنة ١٩٢٦ ص ٦٢٦ وما يليها ؛ ومقال جاك =

= تاجر فى « كراسات التاريخ المصرى» فبراير ١٩٥٢ ص١٠٢—١١٠
وعن « عثمان نور الدين » مقالا آخر لجاك تاجر فى « الكراسات » ١٩٥١ ص ٣٩٢ — ٤٠٥

(١) راجع رسالة الدكتور إبراهيم سلامه :
L'Enseignement islamique en Egypte. Le Caire, Imp. Natitonale, 1939.

(٢) رسالة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم: «تاريخ التعليم فى عصر محمد على» . القاهرة ، النهضة ، ١٩٣٨ ، ص ٣١ .

وغلب الوهابيين — إلى «حسن أفندى الدرويش الموصلى» ، بغلمان من مماليكه ، ليعلمهم فى القلعة الكتابة والحساب . وتمّت هذه المدرسة الخاصة ، وحلّ فيها محل الأستاذ العراقى أستاذ تركى يدعى «روح الدين أفندى» ، ومضى الصِّبية يحفظون القرآن ، ويتلقون مبادئ اللغات التركية والفارسية والإيطالية ، إلى جانب التدريب العسكرى . ونحو سنة ١٨٢٠ — للحصول على من يحسن قياس الأرض ومسحها — افتُتِحت «دار الهندسة» فى القلعة ، وهى التى انتقلت إلى بولاق[١] ؛ ولم يمض عام على وصول الجنرال «بوابيه» (Boyer) الفرنسى وبعثته العسكرية — أى سنة ١٨٢٥ — حتى انتقلت مرة ثانية إلى «قصر العينى» باسم «المدرسة التجهيزية الحربية» . وكان دخول هذه المدرسة الأخيرة مقصوراً على عناصر غير مصرية ، من أتراك وشراكسة وجورجيين وأرمن وأكراد[٢] . وبات محمد على يرتقب النتائج ، ويتعجلها ، فلما نفد صبره قرّر إرسال جملة من التلاميذ إلى أوروبا ، حيث يستطيعون أن يتعلموا فى سنتين أكثر مما يتعلمون فى أربع سنوات ينفقونها بالقاهرة[٣] .

وإلى أى بلد من أوروبا عساه أن يرسلهم كى يحقق أكبر الفوائد ؟

استشار محمد على فى ذلك «باغوص» وزير خارجيته ، واستفتى «باغوص» بدوره «دروڤيتى» ، فنصحه — على الرغم من أنه إيطالى من أهل تورينو — بتوجيه أولئك التلاميذ إلى باريس . وتلك نصيحة نزيهة لم يكتم فيها القنصل حذره من أن يثير محضر رعايا محمد على فى أية مدينة من مدن إيطاليا ، غضب الشعب عليهم : فنحن فى سنة ١٨٢٦ والسلطان — ومن ورائه ، أو من أمامه ، «باشا» مصر — ينكل بشعب شقيق فى اليونان هبّ للمطالبة باستقلاله ، وأما فى باريس فالفرنسيون يظهرون المودة للأتراك ، ويفوقون الإيطاليين تسامحاً ورفقاً[١] .

ولم تُرضِ هذه الفتوى أنصار إنجلترا — التى تريد أن تند النفوذ الفرنسى — ومنهم «باغوص» نفسه ، كما لم ترض أنصار إيطاليا ومنهم «عثمان نور الدين» ، واتخذت تلك المعارضة المزدوجة صور الدسائس والوشايات للتأثير على «الباشا» ، ولكنه بعد أسابيع قليلة انتهز فرصة وقوف السفينة الحربية الفرنسية «لاترويت» بميناء الإسكندرية ، فكلف قائدها «روبيار» (Robillard) بنقل التلاميذ إلى مرسيليا . وقد احتفى محمد على بالقبطان وبضباطه البحريين الأربعة فى القاهرة ، ويسّر لهم زيارة الجيزة وسقارة وأبى زعبل واستقى منهم آخر أنباء البوارج التى بدأ بناؤها فى أحواض مرسيليا لحسابه[٢] .

• • •

واتصلت الرحلة ثلاثة وثلاثين يوماً ، رست خلالها «لاترويت» على مسينا ونابولى . وفى مياه مسينا استغرق تزويد السفينة بالمؤن خمسة أيام ، دون أن يؤذن لركابها بالنزول . وطفق رفاعة يتأمل فى مقة تلك المدينة البيضاء ، لا سيما حين توقد مصابيحها كل مساء ، وأطربه توقيع أجراس كنائسها ، ولم يفسد عليه تزمّت أو تحرّج ما فاض فى قلبه من شعور بالجمال ، فبات ليلة يستشف أثر الموسيقى فى نفسه ويصوره ، ويتغنى فى أبيات رقيقة بحبيب مجهول يصبو إليه

(١) I. Heyworth-Dunne: An Introduction to the history of education in modern Egypt. London, Luzac, 1938.

(٢) Y. Artin: L'Instruction publique en Egypte. Paris, Leroux, 1890, P. 70.

(٣) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس : Correspondance Consulaire, Le Caire, vol. 26, fo. 282.

(١) رسالة بتاريخ ٧ يناير ١٨٢٦ من دروڤيتى إلى باغوص ، فى ص ٨٦ — ٨٧ من : G. Marro: La personnalità di Bernardino Drovetti, Torino, 1951.

(٢) محفوظات وزارة الخارجية الفرنسية بباريس : Correspondance Consulaire, Le Caire, vol. 26, fo. 278.

وينتشى — عفيفاً — من سحر عينيه . إن هذا الشيخ الإمام لشاعرٌ فنان ، مرهف الوجدان ، يسعده الانطلاق إلى آفاق إنسانية جديدة .

وفى ١٥ من مايو ترجّل المبعوثون ، وهم فى ملابسهم الشرقية الفضفاضة ، على أرض مرسيليا ، وذهبوا تواً إلى المحجر الصحى . وكان هذا الميناء يحتضن السفن اليونانية إلى جانب السفن التى يبنيها عمال « دى سيريزى » (Lefébure de Cerisy) لمحمدعلى، مما جعل الأرصفة والأحواض ميداناً للاحتكاك والشجار بين أنصار اليونان وأنصار الترك ، وأوجب استدعاء بعض قطع الأسطول الفرنسى لإقرار الأمن وتشديد الحراسة . ولم يؤدّ ظهور المبعوثين المفاجئ إلى حوادث عنيفة ، بيد أن الأحرار من خصوم الحكومة الفرنسية أفشوا الخبر ، ووجدوا فيه مادة لاتهام رئيس الوزراء الرجعى (Villèle) بالتواطؤ مع عميل السلطان . ولم تسكت الصحف الحكومية ، بل ردت على تلك « المزاعم » . وتوالت تعليقات أحزاب اليمين وأحزاب اليسار ، بحماسة طيرت شهرة هذه البعثة الدراسية ، التى لم يكن أعضاؤها القصّر يدركون من الأمر شيئاً . وظلت الأذهان تربط — حتى فى المحلات الثقافية المتزنة — بين وفود هؤلاء المبعوثين ونية سحق اليونان الباسلة ![1] .

وخرج « الأفندية » من المحجر الصحى بعد تمام ثمانية عشر يوماً . وركبوا « العربات المزينة المجملة ، التى تستمر آناء الليل وأطراف النهار تقرقع ، إلى بيت من القصور المصنوعة خارج المدينة » . ومكثوا فى مرسيليا شهرى يونية ويولية ، يستكشفون أوجه الحياة الافرنجية أثناء نزهاتهم ، ويتعلمون حروف اللغة الفرنسية ومقاطعها . ويأخذ رفاعة فى تدوين مشاهداته وملاحظاته ، كما أوصاه أستاذه العطار ، فيسجل التقاءه التاريخى بأبسط العادات ، كتناول الطعام بالشوكة والسكين ، والنوم على أسرّة مرتفعة عن الأرض ! ويصف المقاهى وقاعاتها المتألقة بالمرايا ، والصحف التى يراها هناك لأول مرة ، وسفور النساء فى الشوارع ونشاطهن فى المتاجر . ويشير فى عجب إلى المسرح بقوله : « ومما رأيته فى مرسيليا الملعبة المسماة السبكتاكل ، وأمرها غريب ؛ ولا يمكن معرفتها بوصفها بل لا بد من رؤيتها بالعين » .

وكان محمد على قد عين للبعثة ثلاثة رؤساء « من أكابر ديوانه » هم : « عبدى شكرى المهردار » ، و « مصطفى مختار الدويدار » و « حسن أفندى الإسكندرانى » . هؤلاء سبقوا رفاقهم فى السفر إلى باريس — يوم ١٤ يولية — بصحبة « يوسف أجوب » المدرس والمترجم الذى هاجر من مصر صبياً سنة ١٨٠١ ، ثم لمع اسمه بين شعراء فرنسا ومستشرقيها . وفى باريس ، دعاهم « جومار » لتناول العشاء على مائدته ، مع نفر ممن عرفوا مصر ، كان بينهم القائد « بليار » الذى تمّ تحت إمرته جلاء الفرنسيين عن القاهرة من ربع قرن خلا . أو ليس فى هذا اللقاء وصل ما انقطع ؟ . . .

وأما باقى « الأفندية » ، فتولى ترحيلهم إلى باريس تباعاً — وقد انقسموا إلى أربع مجموعات — أربعة تراجمة اختيروا من مهاجرى مصر المقيمين فى مرسيليا[1] . وينوّه رفاعة بنفع تلك العربات الكبيرة التى حملته إحداها إلى باريس فى ختام أسبوع ، لم يشعر خلاله بمثل دوار البحر ، بل استمتع بجمال الطريق العامر بالقرى المتتالية ، وبوسائل الراحة التى تقدمها فنادق « فى غاية النظافة والظرافة » .

واستأنف الرأى العام الفرنسى اهتمامه بأخبار البعثة عقب وصولها إلى العاصمة . وراح جومار يذيع نشراته عنها بفخر واعتزاز . فعلم الجمهور أن تلاميذ « الباشا »

---

(١) Rev. Encyclopédique, t. XXX, p. 577.

(١) انظر محفوظات وزارة الحربية الفرنسية بفانسين (Vincennes) : « Réfugiés d'Egypte », dossier de Joanny Pharaon.

قد نزلوا فى ٥ من أغسطس داراً بشارع « كليشى » رقم ٣٣ ، وأنهم بدأوا — منذ ٩ أغسطس — يتلقون الدروس فى اللغة الفرنسية والحساب والرسم من السابعة صباحاً إلى السادسة مساء . وألهم موضوع البعثة محررى الصحافة الفكاهية — ولا سيما « Le Frondeur » و « La Pandore » . وكتب أديبان من أهل مرسيليا — « Barthélemy et Méry » — ملحمة هزلية عنوانها « البكرية » (La Bacriade) تروى قصة يهودى مغربى يدعى « ناتان بكرى » جاء ينفق فى باريس أموالا طائلة ابتزَّها من والى الجزائر ، فأرسل محمد على — بناء على طلب السفير الجزائرى « عثمان » — خمسين تركيًّا إلى باريس للثــأر من ذلك المحتال !

وراجت التعليقات وازدادت طرافة ولذعاً فى العام التالى ، حين أهدى « محمد على » إلى « شارل العاشر » زرافة أثار قدومها إلى فرنسا فضول العامة والخاصة . وعادت إلى الظهور بهذه المناسبة صفحات من النقد والسخرية ، ومثّلت روايات مرحة تصور بعض مواقفها أولئك المبعوثين فى صورة الأتراك أعداء اليونان .

والحق أن ذلك الأدب الشعبى لم يخطئ عندما نسبهم للأتراك . فقد كان بينهم ستة عشر شابًّا من الترك والشراكسة والأرمن ، ولد معظمهم بالآستانة ، هذا عدا العثمانيين المولودين فى القاهرة ؛ وأما المصريون فكانوا خمسة . وكانت للأولين الرياسة ، والدراسات التى تهيئهم للرياسة ، كالإدارة الملكية والإدارة الحربية والإدارة البحرية والعلوم السياسية ؛ على حين وجّه المصريون إلى تعلم صناعات يدوية أو كيماوية أو فنية ، وإلى دراسات شاقة ولكن لا خطر لها على نظام الدولة — كالطب — لكى يظلوا دائماً أتباعاً محكومين .

وتتضح هنا سياسة محمد على : كان يقصى أبناء مصر عن المناصب الهامة ، ويعتمد على طبقة أرستقراطية تدين له وحده بالولاء . ولقد اعترف للقنصل الروسى سنة ١٨٣١ بأنه كان يستجلب — على أيدى تجار أتراك يأتون من الآستانة — مماليك يشتريهم صغاراً ويربيهم ، وقد يرسلهم إلى أوروبا على نفقته لهذا الغرض[1]. وتشهد بذلك كثير من وثائق المحفوظات[2] ، وكتب المعاصرين[3] .

لا عجب إذن أن نرى من يبلغ عمره الخامسة عشرة إلى جانب من أمسى فى السابعة والثلاثين ، وأن نسمع معظمهم يتخاطبون باللغة التركية . ولن يجدينا البحث عمن يفهم الفرنسية ، فليس منهم من تعلّمها فى وطنه . بل كان بينهم أحد عشر شخصاً لم يتلقوا أى تعليم أوّلى ! وهذا الخليط العثمانى الغريب ، إنما تفتّق عنه منطق سياسى لا تربوىّ يشترط فى طالب العلم الذكاء وحسن الاستعداد وحداثة السن[4]. ولم يحظ رفاعة الصعيدى بأن يكون واحداً من أولئك المبعوثين ، حتى أضيف إليهم قبل سفرهم — إماماً ، كما أسلفنا ، لا طالباً — بفضل تزكية الشيخ العطار .

* * *

ولم ينتفع المبعوثون بما كان يلقى عليهم من دروس اللغة الفرنسية ، بل ظلوا يتكلمون فيما بينهم بلغاتهم الأصلية . ولما كان تحصيل اللغة هو الخطوة الأولى فى سبيل استيعاب مختلف العلوم ، عمد جومار إلى توزيعهم

(١) R. Cattaoui : Le règne de Mohamed Aly d'après les Archives russes en Egypte. Le Caire, Impr. de l'Inst. Fr., 1931. I, 425-426.

(٢) محفوظات القصر الجمهورى بالقاهرة ، القسم التركى ، دفاتر المعية : دفتر ١٨ رقم ٢٣٥ بتاريخ ٢٠ من ذى الحجة ١٢٣٩ — دفتر ٢٩ رقم ١٠٥ بتاريخ ١٩ من جمادى الآخرة ١٢٤٢ — دفتر ٢٢ رقم ٥٧ بتاريخ ١٣ من ربيع الثانى ١٢٤٢ — دفتر ٣١ رقم ٢٧٦ بتاريخ ١٨ من ذى القعدة ١٢٤٣ .

(٣) Gisquet; Prisse d'Avennes; Clot Bey.

(٤) راجع القائمة ضمن تقرير لجومار نقله عن « المجلة الأسيوية » عمر طوسون فى كتابه : « البعثات العلمية فى عهد محمد على » . إسكندرية ١٩٣٤ . ص ٢٦ — ٢٩ .

على عدة مدارس خاصة (بنسيونات) ليضطروا إلى ممارسة اللغة الفرنسية مع زملائهم وأساتذتهم الفرنسيين ه ويقول رفاعة « تفرقنا فى مكاتب متعددة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص بقدر معلوم من الدراهم فى نظير الأكل والشرب والسكنى والتعليم وتعهد أمورنا » .

ورحّب بهم خيرة المربّين : نزل « أرتين » وأخوه « خسرو » و « مظهر » لدى الأستاذ جوبو (Goubaux) مؤسس « Collège Chaptal » ؛ وأقام رفاعه لدى المهندس شڤالييه (Chevalier) وهو من أصحاب الثقافة العليا . وكان على الجميع أن يدرسوا اللغة والرياضة والجغرافيا والتاريخ والرسم .

على أنهم لم يفقدوا صلتهم بالمركز الرئيسى ، الذى يسميه رفاعة «بيت الأفندية» . فهناك كانوا يتجمعون عند خروجهم من مدارسهم فى العطلة الأسبوعية ، ليتلقوا التعليمات الخاصة بقضاء وقت فراغهم . وكانوا أيام الخميس يزورون بعض معالم باريس بصحبة أساتذتهم وزملائهم الفرنسيين . وقد يؤذن بالتنزه فى المدينة مساء — أثناء الأسبوع — لمن لم يكن عليهم واجبات مدرسية . ونصت اللائحة التى وضعها « جومار » مدير البعثة — بالاشتراك مع رؤسائها الثلاثة المشرفين على شئونها المالية والإدارية — على عقوبات صارمة يتعرض لها المخالفون[1] . وكان أولئك الثلاثة يتناوبون الرياسة ، حتى انفرد بها « عبدى شكرى » ، فطغى واصطدم ذات يوم بجومار ، وشكاه بجومار لمحمد على ، فأمره بتنفيذ توجيهات المدير الخبير[2] . وبعد عودته سنة ١٨٣١ ، خلفه رفيقه التركى « أمين أفندى » . وكان « الباشا » يطلب تقريراً شهرياً يبين نشاط كل تلميذ ؛

(١) راجع فصل « فى تدبيرنا فى شأن الدخول والخروج » ص ١٤٨ — ١٥٠ من رحلة رفاعة « تخليص الإبريز فى تلخيص باريز » ، بولاق ، الطبعة الثانية سنة ١٨٤٩ .

(٢) سنة ١٨٣٠ . محفوظات القصر الجمهورى بالقاهرة : دفتر ٤٠ معية تركى رقم ٦٧٣ بتاريخ ٢٠ من ذى القعدة ١٢٤٦ .

ويوجه إليهم خطابات مليئة بالتهديد والوعيد[1] .

وفى ختام عامهم الدراسى الأول ، فى يولية سنة ١٨٢٧ ، عقد لهم مجتمعين امتحان عام ، كان من حسن نتائجه أن قرر محمدعلىلجومار مرتباً سنوياً ثابتاً، قدره عشرة آلاف فرنك،اعتذر جومار عن عدم قبوله . ونشرت الصحافة الرسمية فى باريس رده الكريم ، وفيه يعلن تطوعه للإشراف على البعثة مجاناً ، لوجه العلم والإنسانية والحضارة ، ولتوثيق علاقات الود بين البلدين .

وفى العام التالى — فى يومى ٢٨ فبراير وأول مارس سنة ١٨٢٨ — أدّى المبعوثون امتحاناً شاملا فى الدراسات الإعدادية . وجعل جومار من هذا الامتحان حفلا مشهوداً ، دعا إليه المستشرقين ونفراً من أعضاء الهيئات العلمية والقادة ، وعلى رأسهم « الكونت دى شابرول » لا لأنه محافظ مقاطعة « السين » وعضو مجلس النواب فحسب ، بل لأنه من العلماء الذين رافقوا بونابرت إلى مصر . واكتمل معنى الحفل — فى رأينا — بحضور ضيفين معيّنين حرص جومار على قدومهما ، وهما « سير سيدنى سميث » قائد الأسطول الإنجليزى الذى أعاد جنود الحملة الفرنسية من مصر إلى بلادهم ، و « داڤيد موربيه » قنصل بريطانيا ! وكان توزيع الجوائز فرصة طيبة لإقامة حفل آخر ، فى بيت الأفندية يوم ٤ يوليه ، جمع المستشرقين أيضاً وكبار رجال الجامعة والجيش . وتسلم المتفوقون الجوائز من يد « الجنرال بليار » ، بعد أن خطب جومار فيهم خطبة بليغة .

وكانت الجوائز كتباً ثمينة ، نال منها رفاعة لتفوقه فى الامتحان الأول كتاباً يسمى « رحلة أنخرسيس فى بلاد اليونان ، سبعة مجلدات جيدة التجليد مموهة بالذهب » ، ولتفوّقه

(١) تخليص الإبريز ص ١٥١ — ١٥٢ . ودفتر ٤٠ معية تركى ص ٥١٨ فى ٢٨ جمادى الأولى ١٢٤٦ .

فى الامتحان الثانى كتاب «الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور تأليف مسيو دساسى» (١)

وباجتياز المرحلة الإعدادية ، أصبح التلاميذ أهلا للتخصص فى فروع مختلفة ، فانقسموا إلى خمس عشرة فرقة صغيرة لدراسة النظم الحربية ، والحقوق ، والبحرية ، والكيمياء ، والهندسة المدنية ، والطب ، والزراعة ، وغير ذلك من علوم الطبيعة والأحياء يبسطها لهم مدرسون خصوصيون . وتردد بعضهم على المعامل والمصانع لتعلم الصباغة وتركيب الأملاح وصنع الزجاج والأسمنت والسكر ، والطباعة على الحجر ، كما تدرب طلبة البحرية على الملاحة فى السفن الفرنسية بميناء «برست» ، وتدرب طلبة الزراعة فى حقول التجارب «بروفيل» .

وأما رفاعة ، فقد واصل دراسة اللغة الفرنسية والتاريخ والجغرافيا ، وألم بالحساب والهندسة والمعادن ، والطبيعة — «من غير تعرض للعمليات» — وشحذ فكره بمطالعات قيمة فى المنطق وتاريخ الفلسفة والأدب الفرنسى ، ولا سيما أدب القرن الثامن عشر الذى يؤمن بارتقاء البشرية ، وهدى المعارف ، وتحكيم العقل فى تنظيم المجتمع . وشغف بمقالات الصحف والمجلات ، فهو يقول : «وكنت متولعاً بها غاية التولع ، وبها استعنت على فهم اللغة الفرنساوية ، وربما كنت أترجم منها مسائل علمية وسياسية» وتخصص فى الترجمة . وأفاد من أحاديث المستشرقين «سيلفستر دى ساسى» و «كوسان دى پرسڤال» و «چوزيف رينو» ، ومن اتصاله الدائم بيوسف أجوب وجومار وأساتذته الفرنسيين . وأدت مطالعاته ومشاهداته إلى تطور عقلى سليم ، أفضى به من السذاجة إلى نضج الرأى ثم إلى النقد الساخر ، مما نلمح آثاره فى فصول كتابه القيم ، الذى يصور لنا تجربته تلك الإنسانية أثناء حدوثها . ولقد كانت تجربة خصبة استغرقت خمس سنوات .

وعاد رفاعة من باريس سنة ١٨٣١ ، بعد أن اجتاز فى ١٩ من أكتوبر سنة ١٨٣٠ امتحانه النهائى ، وفيه قدم مخطوط رحلته إلى لجنة المستشرقين التى ناقشته ، على أنه رسالة تكميلية إلى جانب اثنى عشر موضوعاً مترجماً(١) .

وألحق محمد على بهذه البعثة ستة من التلاميذ أرسلهم إلى ميناء طولون لتعلم الإنشاءات البحرية ، فى أغسطس سنة ١٨٢٨ — أى بعد أن فقد أسطوله فى موقعة «نڤارين» . وقبل نهاية العام نفسه ، أرسل عدداً آخر إلى باريس ، وكذلك فعل سنة ١٨٢٩ ، ثم سنة ١٨٣٢ بصحبة «كلوت بك» . وبلغ سنة ١٨٣٣ مجموع من تشملهم «المدرسة المصرية» فى باريس ١١٥ تلميذاً . ثم صرفت «ولى النعم» حروبه مع السلطان عن الاهتمام بهذه المدرسة ، ولعل موقف فرنسا من «المسألة الشرقية» قد خيب أمله ، فطلب — فى أول ديسمبر سنة ١٨٣٥ — إعادة جميع المبعوثين فوراً .

* * *

ولا يعنينا فى هذا المقال عن «بعثة رفاعة» حديث البعثات الأخرى وكشف ما استتر وراءها — تحت مظهر العلم — من أغراض محمد على السياسية . وحسبنا أن ننظر فى نتائج الدفعة الكبيرة الأولى :

ها هم المبعوثون العائدون سنة ١٨٣٢ ، وقد ذهبوا توا لتحية «ولى النعم» فى قصره . يسأل محمدعلى أحدهم : ماذا تعلم ؟ فيجيبه : الإدارة المدنية . ويستفهم الباشا : ما هذا ؟ فيشرح له الفتى :

— إنها دراسة تصريف شئون الدولة .

— أوه ! أوه ! أنت لن تتدخل فى الإدارة ؛ ضيعت وقتك سدى ! إننى أنا الذى أصرف الشئون ؛ اذهب لترجمة كتب العسكرية .

(١) تخليص الإبريز ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

(١) راجع تفاصيل هذا الامتحان فى :
Rev. Encyclopédique, nov. 1831, p. 521-523.

– ولكنى ، يا جناب الباشا ، لم أدرس العسكرية .

– قلت لك اذهب ، إنك تعرف التركية والفرنسية ، وهذا يكفى .

ويتجه محمد على إلى الثانى ويسأله :

– ماذا تعرف ؟

– الزراعة .

فيصيح « عبد . . . أفندى » سكرتير الوالى :

– الزراعة ؟ سبحان الله ! وهل بذر الأرض وحرثها يحتاجان إلى دراسة ؟ إن فلاحينا لم يذهبوا إلى أوروبا ، ومع ذلك يحرثون ويزرعون . . . كان ينبغى أن نتعلم العلوم الحربية أو الطب .

ويتصل هذا المشهد الفكاهى ، الذى يرويه « هامون »[1] ، بأن ينكر « الباشا » على من درس صناعة الشمع نفع دراسته ، ويسفه الذى درس صناعة الورق لأن الورق يأتى ورقاً من أوروبا ، ويأمر الذى درس الرياضة بأن يدير مغزلا للقطن !

وقد يكون فى هذه الرواية الساخرة شىء من المبالغة ، ولكنها لا تخلو من حقيقة . فقد كان محمد على من ناحية أمياً جاهلا ، لا قبل له بتمييز الكفاءات وتقدير الدراسات ، وكان من ناحية أخرى داهية يحرص على أن يعهد بالوظائف الخطيرة لمن لا يشك فى ولائهم ، وأن يشرد الذين يتوجس خيفة من اتجاهاتهم . والأمثلة على ذلك كثيرة ، يضيق المقام عن إيرادها . ولنقتصر هنا على شهادة شاهد من أهلها ، وهو « أرتين » الذى كان من أعضاء البعثة وغدا سكرتير محمد على الأثير . إنه يكتب لجومار ، سنة ١٨٣٥ :

« إنى لأرجو للشبان الذين سيحضرون من فرنسا ألا يصبحوا موضع إهمال كأولئك الذين عادوا سنة ١٨٣٢ » .

ولا ينبغى أن يوهمنا هذا « الإهمال » بأن جميع أعضاء البعثة كانوا شباناً ممتازين ، تمكنوا من العلم ، وأضحوا خليقين بتأدية أجل الخدمات ، جديرين بالتبجيل والتكريم . وهل نسينا فى أى درك كان مستواهم العلمى – مع تقدمهم فى السن – عند بدء دراساتهم ؟ لقد أعيد منهم خمسة لعدم صلاحيتهم . وكان « ولى النعم » يحكم على مثل هؤلاء الفاشلين بالأشغال الشاقة[1] . ويحاول كلوت بك – وهو من المدافعين عن محمد على – أن يبرر النتائج بحجة أن « نسبة الذين أفلحوا تفوق ما لاحظه الملاحظون » بيد أنه يعتمد على نتائج امتحانات رسمية توخى فيها الممتحنون إرضاء « الباشا » بالثناء على مبعوثيه . ولعل « إدريس أفندى » – خصم كلوت بك – أصدق منه إذ يتحدث عن واحد من أعضاء البعثة اضطر إلى أن يعمل إسكافاً فى زقاق من أزقة الحى الافرنجى بالقاهرة ، وعن آخر هو « إبراهيم الساعاتى » الذى لم يكن ماهراً ولا أميناً[2] . ويعترف جومار نفسه ، فى رسالة منه سنة ١٨٤٤ إلى « أرتين » – وكان وزير خارجية محمد على – بكثرة عدد الذين « لم يفلحوا تماماً » وبعدم انتفاع مصر باستخدام من تخصصوا فيما يناسبهم من الوظائف[3] .

والذين « أفلحوا » ، هل أفلحوا حقاً ؟

إن التركيين « عبدى شكرى » و « مصطفى مختار » أصبح أولهما رئيس المجلس الأعلى للحكومة ونال « الباشوية » ، وتولى الثانى وزارة المعارف ونال « البكوية » . . وخلف الأرمنيان « أرتين » ثم « اسطفان » – وكلاهما « بك » – مواطنهما « باغوص بك » فى منصب وزير الخارجية . . واستطاع « محمد مظهر » بفضل أصله العثمانى أن يرقى إلى « الباشوية » وإلى وزارة الأشغال ، كما استطاع الشركسى « محمود

(1) P.N. Hamont : L'Egypte sous Méhémet-Ali. Paris, 1843.

(١) مخطوطة إدريس أفندى « أخلاق وعادات » ص ٣٧٠ – وحاول التلميذ الجورجى « على الكرجى » الفرار فألقى القبض عليه وأعيد إلى مصر حيث عاقبه محمد على (عمر طوسون ص ٤١) .

(٢) مخطوطة « سياسة وإدارة » ص ٨٤ . عن شخصية إدريس أفندى ومخطوطاته راجع مقالنا بالعدد ١٥ من « المجلة » ص ٤٧ – ٥٩

(٣) نشر الرسالة الأستاذ جاستون فييت فى La Rev. du Caire أكتوبر ١٩٤٤ .

نامى » أن يرقى إلى « الباشوية » ووزارة المالية . . . تلك إذن مناصب عليا ، وألقاب رفيعة ، ومظاهر خلابة ، فهلا استكشفنا بعض ما تخفيه من الواقع ؟

هذا « مصطفى مختار » ، برغم تربيته فى فرنسا ، ما زال منحرف الأخلاق ، يدفعه ذات يوم ذلك الشذوذ الجنسى المتفشى فى الأرستقراطية التركية إلى أن يضرب غلاماً مصرياً من خدمه حتى يقتله ، لأنه استعصى على نزوته ، وهو — أى مصطفى مختار — لم يكد يفرغ من اقتباس مواد القانون الجنائى ! ويضارعه فى القسوة تركى آخر من زملائه ، كان يلقبه جيرانه فى « درب الحبالة » باسم « أحمد أفندى أبو شنب » ، وكان يسرف فى الشراب ويعذب جواريه الإحدى عشرة إلى أن عرفن ذات ليلة كيف يتخلصن منه إلى الأبد[1]. وينعى « إدريس أفندى » على أولئك « المصلحين » المزعومين أنهم لم يعودوا من فرنسا إلا بقشور الحضارة الحديثة ، فما فائدة معلومات فى الجبر والهندسة وبعض الصناعات لنفوس تهافتت فى باريس على الترف واللهو والخمر والمجون ، وعجزت عن فهم روح الحضارة فى نظم المجتمع ، ومبادئ العدالة والحرية ؟

وتنطبق ملاحظة « إدريس أفندى » على العثمانيين ، الذين لم تربطهم بمصر رابطة الوطن ، ولم يشعروا نحو هذا البلد بواجب عليهم ، فكانوا يلتمسون أقرب المتع الشخصية ، ويمعنون فى الاستهتار . لقد اشترى « مصطفى مختار » فى باريس آلات موسيقية بمبلغ ١٨٤ فرنكاً . وأرسل « محمد على » لكل من رؤساء البعثة الثلاثة جواداً ، فبلغت نفقات هذه الجياد شهرياً ٤٧٥ فرنكاً على حين كان المرتب الشهرى لرفاعة الطهطاوى ٢٥٠ قرشاً (وهو أقل من عُشر مرتب مصطفى مختار المولود فى قوّله) . ومن المفيد أيضاً أن نذكر هنا أحمد ابن أخى مصطفى مختار ، وكيف أريد له أن يدرس التاريخ الطبيعى والمعادن ، فأنفق ثمانية أعوام دون أن يصل إلى نتيجة ، بل وأعيد إلى مصر « قسراً لارتكابه جريمة التداين » مع أنه كان « وكيلا على خرج التلاميذ » يتصرف فى ميزانية كبيرة .

وأما المصريون — مثل بيومى والسبكى والرشيدى والبقلى — فلم يحظوا فى غربتهم بتدليل « ولى النعم ». لذا انصرفوا عن الترف والعبث إلى جد الأمور . وبات يحفزهم للسعى والتحصيل هاتف فى نفوسهم ، هو مزاج غامض من حنينهم لبلادهم ، ووفائهم الفطرى لوطن عزيز ، وشعورهم العميق بأن أهلا لهم وإخوة ينتظرون منهم أداء رسالة . ومن المؤثر حقاً أن نرى رفاعة نهباً لهذه العاطفة المشبوبة ، يهلك مرتبه الضئيل فى شراء الكتب ودفع أجور دروس إضافية ، ويسهر للاستذكار برغم نصيحة طبيب العيون الذى نهاه عن القراءة ليلا ، ولا يكفُّ تفكيره اليقظ عن المقارنة بين ما يروعه فى باريس وما خلفه على ضفاف النيل . ولقد كانت تلك المقارنات توثباً إلى الإصلاح ، وبداية حياة لوطنه أفضل .

لم ينل رفاعة لقب الباشوية ولا كرسى الوزارة ، لأنه — كما شهد الكاتب الحر « ڤيكتور شولشر »[1] — لم يكن من الأتراك أو الأرمن . ولكنه فى مكانه المتواضع ، مكان المدرس والمترجم وناظر المدرسة ، أدى الأمانة . أنار عقول جيل من أبناء الشعب ، ونقل معهم — لهم ولمن يأتى بعدهم — كنزاً من الثقافة . وراح يكتب ويخطب ، وينظم وينثر ، يبسط العلوم ، ويفتح لقومه آفاقاً مجهولة ، ويبث كل ما زخرت به نفسه

(١) Paton: History of the Egyptian revolution from the period of the Mameluks to the death of Mohamed Ali. London, 1862. II, 257-258.
Ali, London, 1863. II, 275-258

(١) V. Schoelcher: L'Egypte en 1845. Paris, Pagnerre, 1846. p. 129.

من معانى التقدم فى التربية والاقتصاد والسياسة ، ويحارب أثناء ذلك آراء الرجعية الفاسدة . كان يريد أن يبصر أمته بمجد ماضيها وبأسس تطورها . ولم تكل فى هذا الجهاد عزيمته برغم القيود التى فرضها عليه محمد على ، ولا فترت همته عند ما نفاه عباس إلى السودان . لم يكفر برسالة الارتقاء التى آمن بها ، بل عمل فى جميع الظروف وبجميع الوسائل ، حتى وافته المنية فى ٢٩ من مايو سنة ١٨٧٣ .

إننا إذا دققنا النظر فى وقائع بعثة ١٨٢٦ وإحصائياتها ، نميل إلى الحكم عليها بأنها كانت فى جملتها بعثة فاشلة . ولقد حتم عليها الفشل روح اختيار أعضائها . ولكن مصر تداركت أمرها ، وألحقت فتى من صعيدها بركب خشيت عقمه . وعاد إليها الفتى حاملا بذار النهضة ، وتعهد الغرس فأتى بطيب الثمر . لولا رفاعة إذن لخسرت بعثة ١٨٢٦ معناها الأصيل ، ولفقدت أهميتها فى تاريخنا : أليس انتقاله من طهطا إلى باريس رمزاً لانتقال مصر من القرون الوسطى إلى العصر الحديث ؟ ولذلك يحق لنا أن نسميها : « بعثة رفاعة الطهطاوى » .



العرب والبرتغال

بقلم الأستاذ نجيب العقيقى

تقع البرتغال — وكانت تعرف قديماً بلوشيتانيا ويلتقى على أرضها الإفريقيون كالليبيين والبربر بالآريين والسلت الأوروبيين — فى شمالى شرق الجزيرة الأيبرية (إسبانيا) وقد أصابها ما أصاب الجزيرة ، فاستولى عليها الفينيقيون والقرطاجنيون واليونان ، والرومان ، وفى عهد أغسطس أحد أباطرة هؤلاء شُيّدت مدينة ماردة ، على شرفه ، وجُعلت عاصمة البلاد .

●● الفتح العربى :

وبعد أن فتح موسى بن نصير إشبيلية مشى على ماردة وأحلّ شلب محلها قاعدة الغرب الأندلسى . وفى عهد الولاة نزل بنو وزير من اليمن بشلب وباجة ، وأقطع غيرهم من العرب والبربر يابُرَة ولشبونة وشنتمرين ، ثم أعيد توزيعها على السوريين والأردنيين والمصريين عند ما انتقلوا إليها .

ولما قامت الدولة الأموية أخمدت ثورة باجة وكانت تدعو للعباسيين ، وردّت قرصان الشمال عن لشبونة والقصر ، وقضت على الأمراء المولدين ، وكانوا من الإسبان القوط قد اعتنقوا الإسلام وطمعوا فى حكم إماراتهم . ثم اجتاحها المنصور فى حملاته على غاليسيا وسانتياغو ، واستعاد المرابطون من ألفونسو السادس ملك ليون وقشتاله ، بعد هزيمته فى وقعة الزَّلاَّقة (١٠٨٦ م) شنتمرين ولشبونة وشَنْتَرَة .

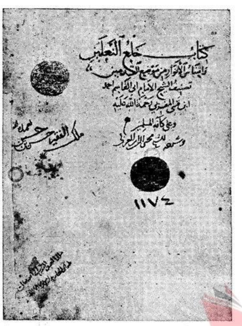
وتزوّج هنرى البورغندى من تيريزا بنت ألفونسو السادس فأقامه كونتاً على البرتغال (١٠٩٣-١١١٢م) وخلفه — بعد انشقاق بن النبلاء — ابنه ألفونسو الأول (١١١٢-١١٨٥م) فهزم المرابطين فى وقعة أوريك (١١٣٩ م) وأفاد من ثورة ابن قَسِيّ عليهم ، ومرور الصليبيين به لاسترجاع شنتمرية ثم لشبونه (١١٤٧م) استرجاع جيرار سان بور (الذى لا يرهب الموت) أحد قوّاده يابُرَة وباجة من الموحدين فيما بعد . وخلفه ابنه شانجه الأول (١١٨٥-١٢١١م) فحمل بالصليبيين الألمان والإنجليز وأهل الفلاندر على شلب فاستسلمت لهم عطشاً وخرج قائدها عيسى ابن أبى حافظ بن على ومن بقى معه منها مؤمَّنين على أرواحهم (١١٨٩م) ثم استعادها المنصور بعد استعادته القصر وبالملا والمادا وعاون ألفونسو الثانى (١٢١١-١٢٢٣م) الإسبان على دحر الموحدين (١٢١٢م) واستجاب لرغبة أسقف لشبونة فى استرجاع القصر ، بمؤازرة إحدى الحملات الصليبية بعد معركة حامية (١٢١٧م) وقنع شانجه الثالث (١٢٢٣-١٢٤٥م) بما ورثه . ولم يقنع ألفونسو الثالث (١٢٤٥-١٢٧٩م) فاسترجع من ابن محفوظ الغرب كله ، وضمّه إلى البرتغال (١٢٤٩ م) .

ثم ارتقى عميد منظمة دافيس العسكرية عرش البرتغال باسم جان الأول (١٣٨٥ م) وفى عهد أسرته فتح البرتغاليون سبته (١٤١٥م) — التى عزّت على موسى بن نصير ثم أصبحت معقلاً لقرصان المغرب — طمعاً فى إنشاء إمبراطورية فيما وراء البحار ، وتسيير السفن حول شاطئ إفريقية الغربى وفك حصار المسلمين عن الحبشة . ومن سَبْتة انطلقوا

إلى القصر الصغير وطنجة ، وانبثُّوا فى ثغور الشاطئ المغربى وأقاموا عليه القلاع ، وبلغوا منه جزر المديرا (١٤١٨م) واسور (١٤٢٧م) وسنغاى على ضفاف النيجر (١٤٦٨م) ورأس الرجاء الصالح (١٤٨٦م) . ولما بلغوه عقد ملك البرتغال لواء أسطوله لفاسكو دى جاما ، فاستعان بابن ماجد الملاّح العربى الشهير لهَدْيه فى مجاهل المحيط الهندى ، وقد رسا الأسطول فى مياه كلكتّا (١٤٩٨م) ثم عاد إليها (١٤٩٩م) لإخضاع ثغور الشاطئ الغربى منها ، والاستيلاء على جزائر مالقة ، والطواف بجزيرة الملايو . وأعقبه أسطول معقود اللواء لكبرال فاكتشف — فى طريقه إلى الهند — البرازيل (١٥٠٠م) وآخر لمايدا (١٥٠٥م) وبعده استقرّ البرتغاليون فى الهند حتى أجلاهم الهولنديون عنها فى القرن السابع عشر وحلُّوا محلهم .

ولم يقنع البرتغاليون بالثراء العريض الذى عاد عليهم من الهند ففتحوا جزيرة هرمز عند مدخل الخليج الفارسى ، وهاجموا عدَن ومصوَّع ، وجابوا البحر الأحمر ، واستولوا على سفن مصر والبندقية ، فشكا السلطان الغورى هذه القرصنة إلى البابا ، وهدَّد بغزو الأراضى المقدسة ، ثم جهز حملة بحرية بمعاونة البنادقة فغلبت البرتغاليين على أمرهم ، ثم انهزمت أمامهم فى وقعة قرب ديو (١٥٠٩م) ، ثم احتلوا عدن وقمران ، وسادوا البحار الجنوبية ؛ فانتقلت التجارة من البحرين الأحمر والأبيض إلى المحيطين الأطلسى والهندى ، وحلّت لشبونة محل ثغور الشرق الأوسط كوسيط تجارى بين الشرق والغرب .

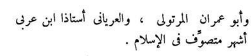
وبلغ البرتغاليون بمدافع سفائنهم كانتون فى الصين (١٥١٧م) فتلقتّهم تلقّى القرصان . ثم ساعدوها على غيرهم من القراصنة فأقطعتهم مكاو فحكموها ، وشيّدوا مصانع للأفيون فيها درّت عليهم أخلاف الرزق .



الصفحة الأولى من كتاب «خلع النعلين» لابن قسى المغربى ، وما زال مخطوطاً فى اسطنبول

واستعان إمبراطور الحبشة جلوديوس على الإمام أحمد بن ابراهيم أمير هرر الذى استباح الحبشة ، بالبرتغاليين وقد اشتهر أمرهم فى وقعة ديو وما بعدها ، فأمدُّوه بأربعمائة وخمسين جندياً (١٥٤٢م) ولما عاد الإمبراطور إلى عرشه (١٥٤٥م) أراد مكافأتهم بتحويل الحبشة من المذهب الأرثوذكسى إلى مذهبهم الكاثوليكى بتشجيع من حاكم الهند ، ففعل ثم ارتدّ عنه .

وتعاقب على عرش البرتغال ، بعد أسرة دافيس ، آل هبسبورج وبراجانس فتنازلت عن المغرب وأيدت العرب فى الشرق الأوسط على الأتراك ، وتأثرت بنزعة أوروبا التحررية فأعلنت الجمهورية (١٩١٠م) وتعثرت فيها حتى تولى رئاستها الدكتور سلازار منذ عام ١٩٣٦ فنالت على يديه الاستقرار والازدهار .



وأبو عمران المرتولى ، والعريانى أستاذا ابن عربى أشهر متصوّف فى الإسلام .

* * *

● وأبدع العرب فى فنّ العمارة فاشتهر جامع لشبونة بقبابه ، وجامع مرتولا بمحرابه – وما زال قائماً – وتغنى بقصر الشراجيب فى شلب المعتمد ، وابنه المعتد بالله ، ووزيره ابن عمّار ، وابن اللبّانة . ومما خاطب به المعتد بالله ابن عمار ، عنه :

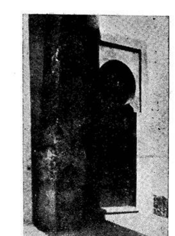
وسلّم على قصر الشراجيب عن فتى
له أبداً شوق إلى ذلك القصــر

وأقام عمر بن الأفطس فى قصر يابَره قبل أن يتوّج على بَطَلْيوس .

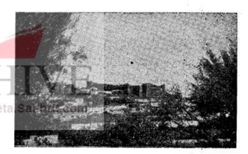
وفى متحف لشبونة زخارف من قصور العرب وجوامعهم الدارسة ، وأحجار أثرية . وشواهد قبور ، ورقم ، وقطع خزف ، ومجموعة نقود ، كما يضم متحف الركائب الملكية طائفة من العربات الملكية المذهبة على توالى العصور .

* * *

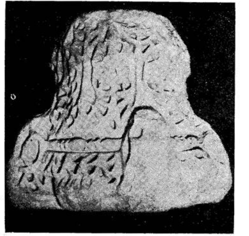




باب عربى فى جامع مرتولا بعد ترميمه



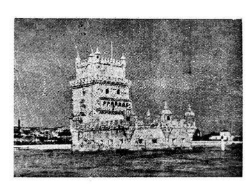
قصر الشراجيب فى شلب



تاج عمود عربى فى متحف الأجناس بلشبونة

●● الثقافة العربية

منذ استقل العرب بما يطلق عليه اليوم جنوب البرتغال نشروا فيه ثقافتهم ونبغ منهم فى الشعر : ابن عمّار ، وابن عبدون ، وابن سارة ، وغيرهم . وفى اللغة : الأعْلَم الشَّنْتَمَرِىّ ، وابن السِّيد ، وابن السرّاج . وفى التاريخ : ابن صاحب الصلاة مؤرخ الموحدين ، وابن بسّام صاحب «الذخيرة» . وفى الفلسفة : ابن السِّيد مصنف «كتاب الحدائق» ، وابن قَسِيّ مؤلف «كتاب خلع النعلين» – وما زال مخطوطا –



برج بيليم وعلى قبابه أثر الفن المغربي

أما أثر العرب فى البرتغال فوفير متنوع متسلسل .

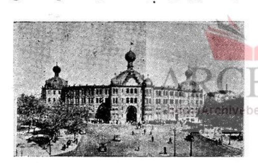
● ففى اللغة : جمع الأب چان دى صوصه الفرنسيسكانى الألفاظ البرتغالية المشتقة من العربية فى معجم من ١٦٠ صفحة ، وعدّد داڤيد لوبس أسماء الأماكن العربية فى كتاب من ٤٤١ صفحة . وأوضح ما تكون العربيـــة بياناً فى المفردات التى تبدأ بأل التعريف ، والمصطلحات الدالة على المرافق العامة والمناصب والمهن والحرف مثل : المنارة ، والمد ، والتعريفة ، والوزير ، والمتصرف ، والريس ، والبرقوق وغيرها. ثم كتب البرتغاليون — فى المغرب — البرتغالية بحروف عربية ، وتبادلوا رسائلها مع العرب .

● وفى الأدب : تأثر البرتغاليون بما كان من أصل هندى كقصص برلاو ، وكليلة ودمنة وقد ترجموها إلى البرتغالية ، وبألف ليلة وليلة التى طبعوها مراراً . واشتمل قصصهم على العديد من أساطير أهل المغرب الذين ألقاهم السحر فى قاع الآبار والأغوار ، فراحوا يرقبون النجاة على أيدى فرسانهم .

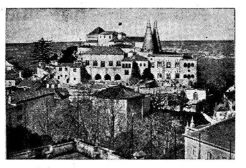
وتناولت الأغانى البرتغالية تَدَلُّه البرتغاليين بنساء العرب ، وأهل المغرب بالأميرات البرتغاليات . ومن أروعها أسطورة خطف ابن محفوظ ملك المغرب الأميرة برانكا بنت الملك ألفونسو الثالث ، التى نظمها الشاعر المايدا جاريت فى ملحمة ، وألّف منها خوسيه دى شربا بينانتل مسرحية بعنوان المنصور بن عفان ، وصاغها ألفريد كايل وسيزار فريالى أوبرا .

واستعان الأب خيل برث بمحمد العريف فى ترجمة تاريخ أمراء الأندلس لأحمد الرازى المؤرخ القرطبى المشهور ، ثم نقل الترجمة الأسقف رودريك الطليطلى إلى الإسبانية وضمّنت من بعده إلى تاريخ إسبانيا العام لألفونسو الحكيم .

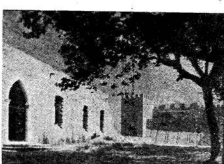
● وأفاد البرتغاليون من علوم العرب فى : الرياضيات والفلك والخرائط والجغرافيا — وكان أبو الحسن قد وضع الإسطرلاب وخرائط الجزيرة الأيبرية فنقلها علماء قطالونية إلى البرتغال — وبناء السفن فاستدعى



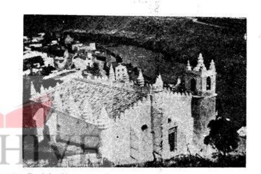
ميدان الثيران فى لشبونة ، وعليه الأثر الشرقى من خلال الفن الإسبانى



واجهة القصر الملكى فى شنترة وعليها أثر الفن العربى



أطلال قصر لشبونة ، وكان مقراً لملوك أهل المغرب



جامع – كنيسة مرتولا

الأمير هنرى خبراء العرب بعلم البحار ، واصطنع طرازاً من سفنهم فى اكتشافاته ، وحقق رحلة ماركوبولو على رحلة ابن بطوطة . واستعان ڤاسكو دى جاما بابن ماجد لهديه فى مجاهل المحيط الهندى فنسب بعض المؤرخين اكتشاف طريق الهند إلى البرتغال والعرب .

وظل لأهل المغرب فى أحيائهم بالبرتغال فقهاء وعلماء يعلّمون أصول الإسلام، ويجادلون النصارى فيها . وقد تضمّن الكتاب الإمبراطورى من ذلك الجدل كثيراً فى صحة الأديان ولا سيما أديان موسى وعيسى ومحمد .

* * *

ولئن أهملت العلوم الإسلامية فى القرن الرابع عشر والثقافة العربية بعد القرن الخامس عشر ، فقد استمر الفنُّ العربى فى تأثيره ، فكلّف الملك دينيس المهندس محمد العريف تحويل جامع مترولا إلى كنيسة ، وترميم قصر الأندورال فطبعه بالطراز العربى زخارف ونوافذ وكتابات . وشيد الملك نفسه برج المراقبة فى قصر باجة فجعل إحدى قبابه قوطية عربية على غرار قباب الأندلس .

وبعد نزول البرتغاليين بسَبْتة بدا الأثر العربىُّ المغربى على القصر الملكى فى شنترة ، وقصر فرناندو دوق باجة ، والجناح الشرقى فى القصر الملكى بشنترة والقصر الملكى فى يابُرة ، وفى برج بيلم . ثم تأثرت العمارة البرتغالية بالفن العربى من تركيا والعراق ومصر ، فلاح على الجناح الجديد من قصر بنا فى شنتمرية ، والقاعة العربية بقصر البولصا فى بورتو وميدان الثيران فى لشبونة ، ومتحف الركائب الملكية .

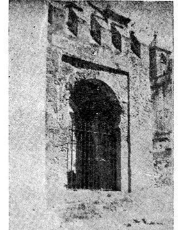


الدراسات العربية

بدأت بقيام الدولة البرتغالية ففى عهد ألفونسو هنرى كان فى شنتمرة مجلس أعيان من المسلمين يستشيرهم الملك فى الشئون الخطيرة مستعيناً بالمترجمين العرب والبرتغاليين ، وعند سقوط شنتمرة كان



محراب جامع مرتولا ؛
وقد كشف عنه حديثا عند ترميم الجامع


باب عربى كشف عنه حديثاً فى قلمرية
التى احتلها العرب طوال ثلاثة قرون

البرتغاليون جميعاً يدركون معنى صيحة حارسها القائل : من هو ؟ .

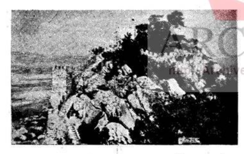
ثم اشتدت العناية بالعربية بعد الاستيلاء على المغرب ، فأحسنها كثيرون ؛ منهم المؤرخ دوارت جالفاو . وقد وجد العالم الهولندى كليناردو مكتبة عربية نفيسة فى يابُرَة ، وعلَّم أحد الأطباء العربية لأنه كان يطمع فى منبر ابن سينا فى قُلُمْرِيَة .

وفى أواخر القرن الثامن عشر نشطت الدراسات العربية بفضل الأب مانويل فيلاس بواس ، فأُنشئ فى دير بسوع للفرنسيسكانيين بلشبونة منبر للعربية ، عنى بها لغة وتاريخاً ونشر مصنفات ، لتحديد الصلات البرتغالية العربية ، وتخريج مترجمين لوزارة الخارجية . وممن علَّموا العربية فى ذلك الدير :

الأب دوروزاريو باتستا Fr. A. do R. Baptista الذى صنَّف فى قواعد اللغة العربية كتاباً ، كان الأول من نوعه فى البرتغالية ، وقع فى ٣٧٠ صفحة ، وصدر عن معهد اللغة العربية فى لشبونة (١٧٧٤م)

ثم خلفه : الأب چان دى صوصة (١٧٧٤ - ١٨١٢ م) Fr. J. do Souza وهو عربى من دمشق قصد البرتغال (١٧٤٩م) حيث انضم إلى الرهبنة الفرنسيسكانية وعين ترجماناً عربياً للملك . ثم أوفدته الحكومة إلى المغرب مندوباً عنها (١٧٧٣م) واختارته عضواً فى مجمع العلوم بلشبونة (١٧٨٠م) وانتدبته أستاذاً فى معهد اللغة العربية (١٧٩١م) وقد أبيح لجميع الطلاب الانتساب إليه (١٧٩٥م) .

آثاره : معجم الألفاظ البرتغالية المشتقة من اللغة العربية ، فى ١٦٠ صفحة (لشبونة ١٧٨٩م) ونصوص عربية من الوثائق الصادرة عن ملوك العرب إلى ملك البرتغال وابنه چان . وهى عبارة عن ٥٨ رسالة نشرها متناً وترجمة برتغالية فى ١٩٠صفحة (لشبونة ١٧٩٠م) وكتاب فى النحو العربى (لشبونة ١٧٩٥م).


قصر أهل المغرب (المغاربة) فى شنترة ؛
وقد ورد ذكره فى كتاب الحميرى


واجهة قصر لشبونة المطلة على الشمال

وبعد وفاة الأب صوصة خلفه تلميذاه :

الأب مانويل ريبيلو دى سيلڤا Fr. M. R. de Silva على منبر العربية .

والأب خوسيه مورا Fr. J. de Santo A. Moura فى منصب المترجم الرسمى . وقد رحل إلى المغرب حيث أتقن العربية ونشر الكثير من ذخائرها فى لشبونة .

آثاره : تاريخ روض القرطاس لابن أبى زرع ، متناً وترجمة برتغالية ، فى ٤٢٦ صفحة (١٨٢٨م) ورحلة ابن بطوطة ، فى مجلدين : الأول فى ٥٢٣ صفحة والثانى فى ٤٤٦ صفحة (لشبونة ١٨٤٠ – ١٨٥٥ م) .

وانتقل الإشراف على منبر العربية ، فى أستاذية الأب سيلڤا ، إلى وزارة البحرية فما عتم أن ألغى . ثم استعيض عنه بآخر فى المعهد التجهيزى بلشبونة (١٨٤٤م) وعهد به إلى كايتانو برايرا Caetano Pereira وكان قد تعلم العربية على سيلڤا وأوغسطو سوروموهو اللذين تخرجا بها على باسكال جاينجوس فى مدريد . ثم تعطل المنبر (١٨٦٩م) .

ولما أبعد دى كاستل برانكو Castel Branco مستشار البلاط الملكى بلشبونة لإخلاصه للعرش إلى باريس انتخب عضواً فى الجمعية الأسيوية ، فحضر جميع جلساتها ، وساعد غيرها بالمال ، وأنشأ مكتبة للمخطوطات العربية ، وأتم كتاباً كان قد بدأه عمه فى علم الهيئة عند العرب فى العصر الوسيط ، وصنف بمعاونة أحد الرهبان البندكتيين كتاباً فى قواعد اللغة الكلدانية العامية مما كان يحكى بنينوى . وخلف خمسة أبناء يجيد كبيرهم العربية ويحسنها الآخرون .

وفى عام ١٩١١ أنشئ منبر للعربية فى كلية الآداب بلشبونه – وآخر للعربية فى كلية الآداب بقلمريه – وثان فى معهد اللغات الإفريقية والشرقية بلشبونة ، وثالث فى مركز الدراسات الأدبية بجامعة بورتو . ومن المتوقع إنشاء رابع فى شلب يعهد به إلى الدكتور جارسيا دومنجس ، وخامس فى الجمعية الجغرافية بلشبونه ، التى تألفت فيها لجنة للدراسات العربية البرتغالية من الأساتذة : جارسيا دومنجس ، وبدرو ماشادو : وفرنشيسكو فيلوزو ، وكارلوس جارسيا رايس ، والقائد كورايا دى كامبوس ، وخوسيه جوليو جونسالفس ، وتريتيداد مارتينث وجاك كوربل وثمة مشروع لتأسيس مراكز دراسات عربية فى لشبونة لدى سفارات : الجمهورية العربية المتحدة ، والمغرب ، وباكستان لدراسة لغاتها وآدابها وتواريخها ، وفنونها ، وصلاتها التاريخية بالبرتغال .

●● المستشرقون

● الدكتور داڤيد لوبس David Lopes تخرج بالعربية من مدرسة اللغات الشرقية الحية فى باريس ، ولما رجع إلى البرتغال (١٨٩٢م) أعاد منهج الفرنسيسكانيين فى تدريسها ، ثم عهد إليه بمنبر العربية فى كلية الآداب بلشبونة (١٩١٤م) فازدهر بفضله وتخرج عليه منه نخبة . وقد انتخب عضواً فى مجمع العلوم بلشبونة ، ومجمع التاريخ بمدريد ، والمجمع العلمى العربى بدمشق .

آثاره : وفيرة اشتملت على دراسات رصينة وبحوث فريدة وترجمات دقيقة ، من أشهرها ، نصوص عربية عن البرتغاليين فى الهند ، من كتاب «البرق اليمانى فى الفتح العثمانى» للنهروانى ، متناً وترجمة برتغالية ، فى مائة صفحة (لشبونة ١٨٩٢ م) وكتابات برتغالية كتبت فى المغرب بحروف عربية فى ١٥٧ صفحة (لشبونة ١٨٩٧ م) و «تحفة المجاهدين» للشيخ المعبرى المليبارى عن أحوال البرتغاليين فى مالابار الهندية ، متنا وترجمة إسبانية ومقدمة وحواشى فى ٣٣١ صفحة (لشبونة ١٨٩٨م) وأسماء الأماكن العربية فى البرتغال فى ٤٤١ صفحة (باريس ١٩٠٢ م) وثلاث مسائل فى الأصوات

التاريخية بالعربية والإسبانية فى ٢٠ صفحة (باريس ١٩٠٦م) وكتابات عربية متعلقة بالبرتغال ، متناً وترجمة برتغالية ، فى ٢٢٧ صفحة (لشبونة ١٩١١ م) وحوادث أصيلا فى المغرب عند استيلاء البرتغاليين عليه ، فى مجلدين : الأول فى ٥٤٧ صفحة والثانى فى ٥٦٢ صفحة (لشبونة ١٩١٥-١٩١٩) والعرب فى تواليف ألكسندر هركولانو ونصوص فى الجامعة (وهو معجم المفردات غير العربية برتغالية . والسيد البرتغالى (جيرار سان بور) .

● الدكتور أبرو فيجانييه Dr. Abreu Figanier خلف الدكتور لوبس على منبر العربية فى كلية الآداب بلشبونة ، ثم علّمها فى معهد اللغات الإفريقية والشرقية ، وقد انتخب عضواً فى مجمع التاريخ البرتغالى .

آثاره : سير الرسول ، وهرون الرشيد ، وعبد الرحمن الثالث (الموسوعة البرتغالية البرازيلية) وتاريخ سانتا كروث (أغادير) وترجمة وصف سبتة فى القرن الخامس عشر لمحمد بن عبد الملك ، والأب جان دى صوصة ، سيرته وتواليفه ، وكشف بالنقود العربية فى متحف النقود بلشبونة .

● خوسيه بدرو ماشادو José Pedro Machado تخرج بالعربية على الدكتور لوبس ، وألقى فى مركز الدراسات اللغوية سلسلة محاضرات عن فقه اللغة العربية ، وفى المؤتمر البرتغالى البرازيلى بريو دى جانيرو مباحث عن دخول المصطلحات العربية فى اللغة البرتغالية .

آثاره : مشكلة الكتابة البرتغالية بالحروف العربية ، وتعليق على بعض الصيغ العربية فى معجم ناسنتس ، واللغة الأندلسية فى مقدمة ابن خلدون ، ويابرة المسلمة ، وأثر العرب فى المعجم البرتغالى (مجلد حرف ع) .

● الدكتور خوسيه جارسيا دومنجس Dr. José D. Garcia Domingues تعلّم العربية على الدكتور لوبس، وتخرّج بها على الدكتور فيجانييه من معهد اللغات الإفريقية والشرقية ، وانتدبه المعهد العالى للثقافة للقيام بأبحاث فى التاريخ البرتغالى العربى .

آثاره : التاريخ البرتغالى العربى (١٩٤٥) ولشبونة المسلمة (فى مجموعة ثمانية قرون من التاريخ) ومصر (دراسة تاريخية وثقافية وسياسية واقتصادية وسياحية) والأسس التاريخية لصلات البرتغال بالمغرب ، وأثر الوطنية البرتغالية العربية فى قيام البرتغال (رسالة إلى المؤتمر البرتغالى الإسبانى فى قلمرية ١٩٥٦) وغيرها من الدراسات[1]

● الدكتور أنطونيو جونسالفس لوزا Dr. Antonio Goncalves Losa تخرّج على الدكتور فيجانييه وأحرز شهادته بامتياز ، وعين أستاذاً للعربية فى جامعة بورتو .

آثاره : فتح العرب شمالى دورو وأسماء الأمكنة التى خلّفوها فيه ، والنقود الإسبانية العربية فى متحف الجمعية البحرية بسرامنتو .

(١) وقد تفضل على المؤلف بتفاصيل نفيسة عن علاقة العرب بالبرتغال السياسية والثقافية والفنية .



أوابد الأقصُرِ وسَواحِرُ أسوانَ

بقلم الدكتور زكى المحاسنى

أيا ربَّةَ الشِّعر فى الأقْصُرِ   فِداك العصورُ فلا تُقْصِرى
أبِنَ النخيل ووادى الملو   كِ تتيهين فى الأخضرِ الأشْقَرِ
وروحُكِ تغْـــدو سَماويَّةً   تزور الفراعينَ فى الأقْبُرِ
تُطيفين فى مَسْرَحِ الخالدِيـ   ـن كأنْ عِشْتِ فى سالِفِ الأعْصُرِ
وأين الخلودُ ورهنُ الفناء (م) كبارٌ تساوت مع الأصغرِ
مضت فى غِمارِ الزمان السحيـــــقِ ولم يَبق منها سوى المَخبر

•

أجوفَ الثرى ، ملجأ الغابريـــــن ، تَنَبَّهَ أهلوكَ للمَحْشر
عكفنا نسـائل أبنـاءهم كأنَّا لأخبـارهم نشــتَرى
وجئنا « رعمسيسَ » فى حربةٍ يموج عــلى موكب أغْبَــرِ
ومن خلفه الجيشُ صفٌّ لصفٍّ (م) يهزّ الرماح مدى العســكرِ
تُســاق الضحــايا إلى بابه   وتعنو النساءُ بلا مئْزَر
رُوَيْدَكَ نابغَةَ الفـاتحيـ   ـن تلألأتَ فى فتحك الأكبر
هلكت ؛ ولكن كفتكَ الفنُـــــونُ تهاويلَ فى صيتك الأشهرِ

•

مضى « مركب الشمس » فى سيره   يرودُ المَجَرَّةَ فى الأنْهُرِ
وراحتْ به النفسُ ترمى الفَناء (م) وقد زالَ – بالنظر الأزْوَرِ
أتَعْبُرُ دَرْبَ ظلامِ الدُّنى   إلى ملأٍ بالعُـــلا نَيِّرِ
وجسرُ الجحيم عليه الذنو   بُ تدوسُ على الأفُقِ الأحمرِ
أ « آمونُ را » ويلَ يومِ الحســـــاب و« حوروسُ »جَنَّبَكَ فى السُّمَّرِ
و « طِيبَةُ » عندك عَبْرَ القرو   نَ تُضَمِّخُ ناديكَ بالمِجْمَـــ

وهيكلُكَ الضخمُ ملءَ الزما ن يُطاولُ بالنَّاحتِ الأقدرِ
أذاتُ العِمادِ زهَتْ بالنقو شِ أمِ الجنُّ تلعبُ فى الأسطُرِ

•

أيُغريكَ ماضٍ تولّى لِقاهُ (م) وما زلْتَ فى بهْجةِ المَحضَرِ
و «أسوانُ» رائعةٌ بالجَمال (م) ترفُّ على الخُلْدِ فى المَنظَرِ
يرقُّ لها «النيلُ» فى سحره فتلْبسُ شطَّيْهِ فى أبحُرِ
وتُهدى منــاديل أنسامِها كعاشقةٍ بالهوى تفترى
تُلوِّحُ للصــيفِ جناتُها فيا نفسُ فى ظلها تَمرَّى
وجيئى الشتاءَ ترَىْ صيفَها من الدفْءِ يمْرحُ فى مَغمَرِ
غلبتُ بها العُمْرَ مستروحاً شبابى على عُودِهِ الأنضَرِ
فيا دارةً حلَّ فيها الخلودُ (م) فديتُكِ فى ثوبِكِ العبقَرى





ابن خلدون

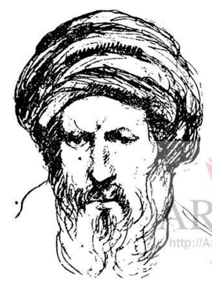
بين الشاعرية والشعوبية والتصوف

بقلم الأستاذ محمد عبد الغني حسن

نواح ثلاثة يختلف الحكم فيها على عبد الرحمن ابن محمد بن خلدون المؤرخ العربي الإسلامي اختلافاً كبيراً. فقد تجد من يقول إن ابن خلدون كان شاعراً، لأنه رُوِيَت له بعض القصائد، أو روى هو لنفسه بعض الشعر في أثناء الترجمة لنفسه والتعريف بشخصه في كتاب مستقل. وقد تجد من يجحد ذلك كل الجحود، ويقول إن مؤرخنا كان نظّاماً له معرفة بقرض الشعر، دون أن يكون له حس الشاعر المرهف وخياله وانفعالاته.

وقد تجد من يقول إن ابن خلدون كان عربياً يتعصب للعرب لأنهم أهله وقومه وقبيله، ولأنه يرتد بنسبه القديم إليهم، فهو منهم في الصميم، على حين تجد من يتهم ابن خلدون بالشعوبية مستنداً إلى أنه رمى العرب بالقصور الفطرى، واتهم الحضارة العربية بالتفاهة وهوان الشأن، وقرر أن طباعهم تتنافى مع العمران والسياسة.

وقد تجد من يقول إن ابن خلدون حكم في « مقدمته » على المتصوفين حكماً جازماً بالتيه والكذب، ولكنه في كتاب له آخر — غير المقدمة — يعيد الثقة بالمتصوفين والزاهدين وغيرهم « ممن توصلوا — بمنه تعالى — إلى الحياة في الحضرة العلوية آمنين »[1]، على حين تجد من يقول إن ابن خلدون كان غارقاً في المادية إلى قدميه، وإن مشاغل


ابن خلدون
« بريشة جبران خليل جبران »

السياسة والحكم والمشاركة في الانقلابات والمؤامرات لم تدع له فرصة لصفاء الصوفي وزهادته، وإن اشتغاله بالعلم والتأليف — بعد ذلك — لم يدع له فرصة لمجالس ذكر، أو اتباع طريق؛ وإن المأثور المعروف من سيرته — وكما رواه هو بنفسه — لا يؤكد قضية تصوفه.

والحقُّ أن هذه النواحي الثلاثة من ابن خلدون تحتاج إلى مزيد من البيان والكشف والإيضاح،

---

(١) من مقدمة للأب أغناطيوس خليفه اليسوعي في تصديره لكتاب « شفاء السائل لتهذيب المسائل » المقول إنه للمؤرخ ابن خلدون

كما تحتاج إلى النظر المحايد فى الحكم ، فلا يحمِّلن الاندفاع باحثاً على تقرير رأى أو إبداء حكم دون النظر إليه من جميع الوجوه ، وقياسه بمختلف المقاييس ، واستقراء كل آراء الرجل فى القضية الواحدة ، حتى يبين وجه الحق فيها على وجه يرضى الباحث ، ويطمئن الكاتب .

•••

أما قضية شاعرية ابن خلدون ، فيكفى لصحة الحكم فيها أن نرجع إلى ما تركه الرجل لنا نفسه من شعر أو من كلام منظوم ، وأن نرجع إلى قول الرجل نفسه وحكمه على نفسه ، وهو من نثق به فى أحكامه على الأمم والتاريخ والدول والممالك ، فلا أقلّ من أن نطمئن إلى حكمه على نفسه ما دمنا نفترض فيه عدالة القاضى ونصفته .

ونرى ابن خلدون فى خلال التعريف بنفسه فى كتابه « التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً » يتعرض لقضية الكتابة والشعر عنده فى أثناء الحديث عن كتابته للسلطان أبى سالم بن أبى الحسن سلطان المغرب الأقصى ، فيقول إن السلطان استعمله فى كتابة سره والترسيل عنه والإنشاء لمخاطباته ، وكان أكثرها يصدر عنه بالكلام المرسل ، كراهة استعمال السجع الذى كان ضعيف الانتحال آنذاك ، خافياً على أكثر الناس . فانفرد ابن خلدون — من دون الكتاب فى ذلك الزمان — بالكتابة المرسلة ،وكان ذلك مستغرباً بين أهل الصناعة . أما الشعر فيقول عن نفسه فيه: « ثم أخذت نفسى بالشعر ، فانثال على منه بحـور ، توسطت بين الإجادة والقصور » . ولا نجد شاعراً يتواضع إلى هذا الحد ، فيحكم على شعره هذا الحكم الذى يفيد « الوسَطية » ، والوسَطية فى الشعر باردة غثة .

وقد انطلقت طاقة ابن خلدون النظمية فى خلال اتصاله بالسلطان أبى سالم ، وهو يروى لنا كثيراً من قصائده فى هذا السلطان لمناسبات مختلفة ، تدور على المديح ، والتهنئة بالمولد النبوى ، ووصول هدية ملك السودان إلى ملك المغرب وفيها حيوان « الزرافة » ، والتهنئة بالأعياد ، كتهنئته بعيد الفطر سنة ٧٦٣ هـ .

على أن نزوله بالأندلس ضيفاً على السلطان ابن الأحمر كان مجالا آخر لانطلاق طاقته فى القريض . فقد تصادف وقت نزوله بها احتفال السلطان بالمولد النبوى ، فوقف ابن خلدون وألقى قصيدة لم يذكر لنا منها فى الحادث العظيم بمولد الرسول إلا أربعة أبيات أو خمسة فى الحنين إلى « نجد » التى جعلها رمزاً لأرض الميـلاد ، وفيها يخاطب أهـل تلك الأرض الطيبة قائلا :

يا أهل نجـد وما نجـدٌ وساكنها
حُسناً سوى جنة الفردوس والعين
أعنـدكم أنـى ما مرَّ ذكركمُ
إلا انثنيت كأن الراح تثنينـى
أصبو إلى البرق من أنحاء أرضكمُ
شوقاً ، ولولاكمُ ما كان يصبينى !

أما بقية القصيدة التى رواها هو بنفسه لنفسه فتدور حول وصف الإيوان الذى بناه سلطان الأندلس لجلوسه بين قصوره ، وحول تعريضه بانصرافه من العدوة . وكم كنا نود لو ذكر لنا إن قال شيئاً من هذه القصيدة فى عظمة الرسول العربى ونفسيته ورسالته وذكراه التى تتجدد كل عام فتتجدد معها آمال العرب والإسلام . ولكنه سكت عن ذلك سكوتاً مطلقاً . على أنه لم تفته فى الأندلس مناسبة من تلك المناسبات العارضة التى ينظم فيها القصيد ، وتعرض فيها المقدرة ، إلا انتهزها للمشاركة فيها بقصيدة ، فنرى له أبياتاً نظمها فى «ختان» ولد السلطان ابن الأحمر . ونراه — كعادة شعر المناسبات فى مثل هذه المقامات — يشيد بشجاعة الولد المختون ، وأنه تقدم للختان غير جبان ولا هيوب !

وأن الغلام لم يتقاعس فى ذلك الخطب الذى ينزل بكل غلام .. فى ساعة الختان .. !

وكذلك كان نزول المؤرخ ابن خلدون بعد ذلك على السلطان أبى العباس سلطان تونس ، ميداناً آخر لانطلاقة جديدة فى نظم القصيدة . ولم يجد مناسبة يمدح السلطان فيها أحلى من اقتران ذلك بإهدائه أولى النسخ من كتابه فى التاريخ : (العبر) .

وهنا نجد ابن خلدون يحس من نفسه قصور نفسه فى الشعر ، فيعترف بقلمه فى سيرة حياته عن اعتذاره[1] من انتحال الشعر ، ويقول من القصيدة فى هذا المعنى :

مولاى غاضت فكرتى وتبلدت	منى الطباع فكل شىء مشكل
تسمو إلى درك الحقائق همتى	فأصد عن إدراكهن وأعزل
وأجد ليلى فى امتراء قريحتى	وتعود غورا بينما تسترسل
فأبيت يعتلج الكلام بخاطرى	والنظم يشرد ، والقوافى تجفل
من بعد حول أنتقيه ، ولم يكن	فى الشعر حولى يعاب ويهمل
فأصونه عن أهله متواريا	أن لا يضمهم وشعرى محفل !
وهى البضاعة فى القبول نفاقها	سيان فيها الفحل والمتطفل
وبنات فكرى إن أتتك كليلة	مرهاء تخطر فى القصور وتخطل
فلها الفخار إذا منحت قبولها	وأنا على ذاك البليغ المقول ..

وفيم هذا الاعتذار الكثير عن بضاعة الشعر إن لم يكن الشاعر قد أحس فعلا أنها بضاعة مزجاة تحتاج إلى مثل هذا التقديم والتماس العذر لقبولها ؟ فهو مدح تلمح فيه التزلف صارخاً ، والتكلف واضحاً ، ولا تجد فيه تلك الفطرة الصادقة التى لا تجعل الشاعر خجلا من أن يقال إنه امتدح .. ولعل ابن خلدون — وهو يطوف من أرض إلى أرض ، وينتقل من ملك إلى ملك — كان يحس ضعفاً فى نفسه حين يمدح ، ومن هنا يجىء كلامه غثاً متكلفاً مضطرباً ، كأنه ملفوف فى غلائل من الخجل .

(١) التعريف بابن خلدون — لابن خلدون ص ٢٣٣ .

ومن هنا أيضاً كانت حاجة ابن خلدون — حين يمدح الملوك شعراً — إلى أن يحلف لكل ممدوح منهم بأنه هو وحده موضع الفخار ، ومناط المديح ، وأنه لا ممدوح فى الدنيا سواه ، وقد تكون مدائحه فى ملك سابق لم يجف مدادها ، أو لم يسكت صداها بعد . .

ومن هذا قوله فى سلطان تونس :

والله ما أسرفت فيما قلته	شيئاً ، ولا الإسراف فيما يجمل
ولأنت أرسخ فى المعارف رتبة	من أن يموه عنده متطفل
فلاك كل فضيلة وحقيقة	بيديك ، تعرف وضعها إن بدلوا

ولا ننسى أنه خاطب سلطان المغرب قبل ذلك بقوله :

لله مجدك طارفاً أو تالداً	فلقد شهدنا منه كل عجيب
كم رهبة أو رغبة بك ، والعلا	تقتاد بالترغيب والترهيب
لا زلت مسروراً بأشرف دولة	يبدو الهدى من أفقها المرقوب

كما لا ننسى أنه مدح السلطان ابن الأحمر — سلطان الأندلس — فيما بين رحلتيه إلى المغرب وتونس قائلا :

من مبلغ عنى الصحب الألى تركوا	ودى وضاع حمامى إذ أضاعونى
أنى أويت من العليا إلى حرم	كادت مغانيه بالبشرى تحيينى
وأننى — ظاعناً — لم ألق بعدهم	دهراً أشاكى ، ولاخصماً يشاكينى(١)

فنحن هنا أمام شاعر يمدح كل ملك ، ويؤكد له أنه هو الملك الأوحد لا ملك سواه ، وأن المجد فى الدنيا اجتمع له ولم يجتمع لغيره . ونسى ابن خلدون أن هذا الشعر كان ينتقل بانتقاله مع الرواة والتجار والحجاج والمسافرين الذين كانت لا تنقطع بهم الرحلة فى ذلك الزمان ، على الرغم من طول الشقة وبعد الديار .

* * *

ونجد نصاً لابن خلدون فى مقدمته يعلل لنا فيه السبب فى قصوره عن بلوغ مرتبة التجويد فى الشعر . فقد حفظ من الشعر التعليمى الذى ينظم فى تلخيص

(١) التعريف بابن خلدون ص ٨٧ .

قواعد العلوم قدراً كبيراً جدا ، وفى هذا النظم من الجمود والبرود ما يعطل الملكة ، ويفسد القريحة . وما أصدقه وهو يقول فى ذلك :

«ذاكرت يوماً صاحبنا أبا عبدالله بن الخطيب – ويريد به الوزير لسان الدين بن الخطيب – وزير الملوك بالأندلس من بنى الأحمر ، وكان له الصدر المقدم فى الشعر والكتابة ، فقلت له : أجد استصعاباً على فى نظم الشعر متى رمته ، مع بصرى به ، وحفظى للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب ، وإن كان محفوظى قليلا . وإنما أتت – والله أعلم – من قبل ما حصل فى حفظى من الأشعار العلمية والقوانين التأليفية ؛ فأنى حفظت قصيدتى الشاطبى الكبرى والصغرى فى القراءات ، وتدارست كتابى ابن الحاجب فى الفقه والأصول ، وجمل الخونجى فى المنطق ، وبعض كتاب التسهيل ، وكثيراً من قوانين التعليم فى المجالس ، فامتلأ محفوظى من ذلك ، وخدش وجه الملكة التى استعددت لها بالمحفوظ الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب ، فعاق القريحة عن بلوغها . فنظر إلى ساعة معجباً ، ثم قال : لله أنت : وهل يقول هذا إلا مثلك ؟ »

ولم يفت بعض من أرَّخ لابن خلدون أو ترجم له أن يشير إلى هذه « الوسطية » فى شعره ، فنرى المؤرخ ابن حجر يقول عنه : « إن ابن خلدون كان لسناً فصيحاً ، حسن الترسل ، وسط النظم » . ونرى السخاوى صاحب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » يذكر أنه كان له شىء من النظم ، ولم يكن بالماهر فيه[1] . كما نقل السخاوى عن شيخه ابن حجر أن ابن خلدون كان يبالغ فى كتمان نظمه ، مع أنه كان جيد النقد للشعر . وتؤكد لنا هذه الظاهرة استقلال عملية النقد الفنى ، عن عملية إحداث الأثر الفنى نفسه . فليس من الضرورى أن يكون ناقد الشعر شاعراً ، ولا ناقد الفن صاحب فن .

ومسألة كتمان ابن خلدون لشعره تؤكدها النظرة العجلى – بَلْهَ المستأنية – لكتابه : «التعريف» ؛ فهو حين يشير إلى القصيدة الطويلة من شعره لا يذكر منها إلا أبياتاً قليلة ، ثم يقفز من غرض إلى غرض ، أو من موضع إلى موضع : قائلا : «ومنها» ولو أن هذا المحذوف كان لائقاً بالذكر أو مستحقاً للنشر لما تأخر ابن خلدون عن ذكره وروايته وضمه إلى باقى هيكل القصيدة . فإن الشاعر حريص على أن يسجل كل شعره ، وأن لا يُحذف من ذلك شىء ، فإذا ما التجأ الشاعر نفسه إلى الحذف ففى ذلك دليل على عدم استحقاق المحذوف للتسجيل وجدارته بالحفظ . وقد يقال إن الذاكرة قد تخون الشاعر فلا تسعفه بتدوين ما قال ، وذلك حق ، إلا أن ذاكرة ابن خلدون وقوة حافظته مما أجمع عليه مؤرخو سيرته والمترجمون لحياته . فقد كان أحد نوادر الدنيا فى الحفظ ، وأعجب العلماء كثرة محفوظ ، فكيف يفوته أن يحفظ شعره وأن يرويه فى مقام التنويه بقصائده ، والإشارة إلى مواقفه فى نظم القصيد ؟ ألا يمكننا أن نقول هنا إن هذا الإغفال مقصود ؟ وأن الرجل أحسَّ أن نظمه – كما قال – مما لا يرتفع إلى مرتبة الإجادة فترك روايته ، وأعرض عن ذكره ؟

• • •

هذا وجه القول فى شاعرية ابن خلدون ، ونرجو أن نكون أنصفنا به الرجل وأنصفنا به الحقيقة التى لم يخش ابن خلدون من الإشارة إليها .

أما شعوبية مؤرخنا الذى قال عنه لسان الدين بن الخطيب إنه مفخرة من مفاخر المغرب فهى قضية أثيرت بأخرة من زماننا هذا . ولم يغمزه المؤرخون القدامى فيها ، بل لم يستطع خصومه أن يغمزوه بها كما غمزوه مثلا فى ولايته للقضاء ... فقد استكثر عليه أهل المغرب ولايته لقضاء المالكية بمصر حين بلغهم نبأ ذلك . وتعجبوا من ذلك التعيين أشد العجب ، ونسبوا المصريين إلى قلة المعرفة . . . حتى قال ابن عرفة المغربى : «كنا نعد خطة القضاء أعظم المناصب ، فلما وليها هذا – يعنى ابن خلدون – عددناها بالضد من ذلك » .

(١) الضوء اللامع ج ٤ ص ١٤٧ .

ولقد فطن الباحثون من العرب المحدثين إلى قضية « العرب » و « الأعراب » و « البدو » التي وردت ألفاظها في «المقدمة» ، وأثارت كثيراً من اللبس وإساءة الفهم بمدلولاتها الصحيحة التي قصدها مؤرخنا العربي الكبير . ولا شك أن استعمال ابن خلدون لكلمة « العرب » بدلا من كلمة « البدو » — التي هي أدل الألفاظ عليها وأوفاها بمعناها — قد أثار كثيراً من حملات النقاد العرب المحدثين عليه . فقد قالوا إنه يكره العرب ، وقالوا إنه يحتقرهم ، وقالوا إنه من الشعوبيين أعداء العرب ، وإن صوته ضد العرب وفي التقليل من شأنهم والتهوين من أمرهم ليس إلا امتداداً وتجديداً لحركة « الشعوبية » التي ظهرت في القرون الأولى للإسلام ، وفي أعقاب الفتح العربي لبلاد الأعاجم .

وقد تصدّى الأستاذ ساطع الحصري لبحث هذه القضية بحثاً يمتاز بالروية والتدليل المستقيم والبعد عن العواطف والانفعالات السريعة التي تنتج كثيراً من الأحكام السريعة . ويتركز دفاع الأستاذ الحصري في أن ابن خلدون يقصد بلفظة « العرب » : « البدو » و« الأعراب » ، واستشهد على ذلك بنصوص كثيرة من أقوال ابن خلدون نفسه ، كما استشهد بالقرائن ومقتضيات الأحوال التي تعبّر عنها « مقدمة ابن خلدون » . فابن خلدون حين قال : « إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب » لم يقصد غير البدو الذين يعيشون في الخيام ولا يستقرّون بمكان : « فلا مجال للشك في أن ابن خلدون عند ما كتب هذه العبارات ، وقال : « لا يحتاجون إلى الحجر إلا لوضع القدور ، ولا إلى الخشب إلا لنصب الخيام » ، لم يفكر قط بأهل دمشق أو القاهرة ، ولا بسكنة تونس أو فاس ، بل إنما قصد أعراب البادية وحدهم »(١).

وإذا كان ساطع الحصري هو أول من نبّه الأذهان من كتّاب العرب إلى ما قصده ابن خلدون من استعمال لفظة « العرب » بدلا من الأعراب والبدو ، فإن المستشرق البارون دي سلان هو أول من نبّه إلى هذا المعنى حين ترجم مقدمة ابن خلدون إلى الفرنسية حيث قال : (إن ابن خلدون استعمل كلمة العرب بمعنى البدو في هذا الفصل ، وفي الفصول التالية) ويقصد بذلك الفصل الذي عنوانه : إن جيل العرب في الخلقة طبيعي . وقد أشار إلى هذا المعنى — ضمناً لا صراحة — المؤرخ التركي جودت باشا الذي لم يترجم كلمة العرب إلى التركية بمعناها المتبادر إلى الذهن ، وإنما ترجمها على أنها « قبائل عرب » أو « القبائل العربية » . فإضافة لفظ القبائل هنا يفيد ذلك المفهوم البدوي — لا الحضاري — الذي قصده ابن خلدون .

ومن حسنات الأستاذ ساطع الحصري — وحسناته كثيرة — أنه هو الذي كشف لنا في دراسته القيّمة عن رأي دي سلان ، وعن رأي جودت باشا في هذه المسألة .

وللأستاذ الباحث الكبير « محمد جميل بيهم » تعليقات ثمينة على الشبهات التي تثيرها لفظة « العرب » في مقدمة ابن خلدون ، وهو يتفق مع ساطع الحصري في مذهبه ، وإن كان يعترف بأن ابن خلدون سلك في مقدمته أحياناً سبيلا يكتنفه الالتباس ، هذا فضلا عن أن أقواله في العرب أنفسهم كانت تأتي أحياناً أخرى على شيء من المناقضة فيما بينها ، وعلى شيء من الغموض(١).

وما أصدق الأستاذ جميل بيهم وهو يقول : (لقد كان ابن خلدون جلياً في أنه كان يذم البدو دون العرب ، وذلك بالفصول الأربعة التي جاءت تحت عنوان « في العمران البدوي والأمم المتوحشة والقبائل » . كما كان واضحاً — فيما بعد — بأنه كان يطرى العرب ويشيد بهم وبحضارتهم في الإسلام وما قبله . ولكن

(١) دراسات عن مقدمة ابن خلدون — طبعة سنة ١٩٥٣ — ص ١٥٧ .

(١) « العروبة والشعوبيات الحديثة » . وهو كتاب جليل للأستاذ محمد جميل بيهم — ص ٤٨ .

مصدر الالتباس يرجع إلى أنه فى الحالتين استعمل كلمة العرب فترك المجال للشعوبيين لأن يتجاوزوا قصد المؤلف إلى التمسك بالكلمة دون المعنى ، وإلى اتخاذها حجة لهم للتنديد بالعرب ، والحط من شأنهم)(١)

ولا يردُّ الأستاذ محمد جميل بيهم هذا الغموض والتناقض فى استعمالات ابن خلدون لكلمة العرب إلى اضطراب فكرى يرجع إلى اضطراب أحوال الشعوب الإسلامية التى كان ابن خلدون يتنقّل بينها ، ولا يردُّه إلى توتر أعصابه نتيجة للصدمات التى كان يلاقيها . . وإنما يرده إلى « تموجات نفسية » كان صاحب المقدمة عرضة لها فى حياته ، فهو قاصد — عند الأستاذ بيهم — لهذا الغموض متعمد له ، تزلفاً لأصحاب السلطان عند أهل المغرب من البربر ؛ أو هو متأثر بما كان فى ضمير أهل المغرب من آثار التخريب التى تركتها رحلة بنى هلال وبنى سليم إلى شمالى إفريقية .

والحق أن الأستاذين ساطع الحصرى ومحمد جميل بيهم قد أحسنا الدِّفاع عن ابن خلدون فى قضية اتهامه بالشعوبية أو بكراهية العرب والتّهوين من شأنهم . وللدكتور على عبد الواحد وافى — فى القضية نفسها — دفاع وتعليق يجعله على وجازته ، فى موقف المحامين عن ابن خلدون . وهو يُحيل إلى بحث الأستاذ ساطع الحصرى(٢) ويشيد به ، ولكنه لا يشير مطلقاً إلى دفاع الأستاذ المؤرخ جميل بيهم ، ولعله لم يتح له الاطلاع على كتابه القيم .

وعندى أن ابن خلدون كان أذكى وأفطن من أن يستعمل لفظاً مكان لفظ ، أو يضع لفظاً ويقصد به معنى آخر ؛ فهو لم يغمض ، ولم يحاول اللبس كما قصد بعض المدافعين عنه ، وإنما قصد بلفظة « العرب » العربَ لمالأته البربر من ناحية ، ولحبه للعناد والمخالفة من ناحية أخرى ، فهو يضع « العرب » فى مقابل لفظة « البربر » ، ويوازن بذلك بين جيلين من الناس . وليس عناد ابن خلدون وحبه للمخالفة أمراً منكوراً . فالسخاوى المؤرخ يشهد له بذلك ويلاحظ أنه حين ولى القضاء بمصر لم يغيِّر زيه المغربى ، ولم يلبس زىَّ قضاة هذه البلاد لمحبته المخالفة فى كل شىء(١) . وقد كان ابن خلدون بذلك يتحدى الشعور الأهلى بين أهل البلاد ، ولعل هذه المخالفات والمعاندات مما جر عليه سخط الكثيرين والتشنيع عليه ، حتى لقد ذكر فيه أحد كتّاب سيرته : الجمال البشبيشى المؤرخ ، كلاماً كثيراً لا يليق ، ونستغرب حدوثه من عالم كابن خلدون .

ولقد كان ابن خلدون — رحمه الله — فى التعرُّض للمدح والنقد بين معسكرين : معسكر أهل المغرب والأندلس وعلى رأسه لسان الدين بن الخطيب ، وهم يشهدون له بالفضل والفضائل والوقار وعلوِّ الهمة ورفعة القدر مع العلم والحفظ والمعرفة . ومعسكر أهل المشرق وعلى رأسه ابن حجر والسخاوى والحافظ أبو الحسن الهيثمى والجمال البشبيشى . ولم ينصفه من أهل المشرق إلا المقريزى المؤرخ صاحب الخطط والسلوك ، وقد عللوا ذلك بتوافقهما فى الرأى بصحة نسب الدولة العبيدية أو الدولة الفاطمية(٢) .

* * *

أما صوفية ابن خلدون وموقفه من التصوف فقد أفصح عنه فى « مقدمته » فى فصل خاص بعنوان « علم التصوف » ، وعرفه بأنه من علوم الشريعة الحادثة فى الملة « وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل — عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم — طريقة الحق والهداية . وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة » .

(١) المصدر السابق ص ٥٣ ، ٥٤ .
(٢) مقدمة ابن خلدون — فى طبعتها الجديدة المحققة للدكتور على عبد الواحد وافى — جـ ٣ — ص ٤٠٩ — ٤١١ .

(١) الضوء اللامع للسخاوى جـ ٤ — ص ١٤٦ .
(٢) المصدر السابق ص ١٤٧ .

ويرى ابن خلدون أن المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها فى الغالب كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من أمر الله ، ليس لصاحب الحس إدراك شىء منها . والروح من تلك العوالم .

ولقد ظهر أخيراً كتاب فى التصوف قيل إنه لابن خلدون وعنوانه « شفاء السائل لتهذيب المسائل » وقد نشره وعلق عليه الأب أغناطيوس خليفة اليسوعى ، وأصدره « معهد الآداب الشرقية فى بيروت ». ولم يشر ابن خلدون نفسه إلى هذا الكتاب ، حتى وهو يتحدث فى « المقدمة » عن التصوف ، ولعله كتبه بعد تأليفه مقدمته المشهورة ، ولكن الباحثين والمؤلفين الذين كتبوا عن ابن خلدون من العرب والفرنجة لم يشيروا أيضاً إلى هذا الكتاب ، إلا أن كتاباً ظهر بالإنجليزية فى لندن سنة ١٩٥٧ لمحسن مهدى وبعنوان : « فلسفة التاريخ عند ابن خلدون » نبه فى إحدى حواشيه إلى هذه الرسالة التى يحتفظ الأستاذ أبو بكر التطوانى السلاوى المغربى بمخطوطة منها ترجع إلى أواخر القرن التاسع الهجرى .

وعلى الرغم مما أورده المحقق الأب أغناطيوس من نصوص يقول إنها متشابهة بين مقدمة ابن خلدون وبين كتاب « شفاء السائل » ليثبت اتحاد المؤلفين واتحاد اليد التى خطت الكتابين ، فإننا نرى تباعداً كثيراً فى بعض الموضوعات ، كالاستقامة ، والكشف الناشئ عنها ، والكشف الناشئ عن أسباب أخرى كالجوع والسحرة وأصحاب الرياضات الجسدية ، وكالاطلاع على عالم غير الحس ، والعلم الكسبى والإلهامى . فالكلام فى المقدمة — أى مقدمة ابن خلدون ، غيره فى كتاب « شفاء السائل » المقول إنه لابن خلدون ، وطريقة المعالجة غير واحدة ، مما يدل على أن الكاتب غير واحد ، إلا أن يكون ابن خلدون قد تطور فى موضوع التصوف ، وأن يكون كتاب « شفاء السائل » قد كتبه فى أواخر عمره .

على أن الكلام عن اهتمام ابن خلدون بموضوع التصوف يجرنا إلى الحديث عن سلوك الرجل التصوفى ، أو مسلكه العملى فى التصوف . ولا شك أن ابن خلدون — إن صح أنه صاحب كتاب « شفاء السائل » — باحث فى أدب التصوف ، لا سالك لطريق المتصوفة . فقد كانت حياته لا تسمح له بسلوك هذا الطريق . وكان له من ماديته ومطامعه وطموحه السياسى ما يبعده أقصى البعد عن آداب الطريق . والمتصوف المشغول بالمجاهدات ليس عنده من الوقت ولا من الميل والذوق ما يوجهه إلى مشاغل الحياة المادية . وقد كان ابن خلدون — منذ فجر حياته — مشغولا بالدنيا إلى أبعد حد ، فالتدرج فى الوظائف بدول المغرب لا يرضيه ، وهو طموح قلق نهاز للفرص مشارك فى المؤامرات السياسية ، حتى لقد تآمر على السلطان أبى عنان سلطان المغرب مع عطفه عليه وإكرامه له . وقد عبر هو عن طموحه قائلا : « كنت أسمو — بطغيان الشباب — إلى أرفع مما كنت فيه ، وأدل فى ذلك بسابق مودة معه — أى مع الوزير عمر بن عبدالله صهر السلطان — منذ أيام السلطان أبى عنان » . ولما لم يحقق له هذا الوزير صاحب النفوذ أمله ومطامحه البعيدة غضب ابن خلدون وطلب إعفاءه من منصبه ، فأعرض عنه الوزير وتنكر له . ولقد بلغ من طموحه أن تعرض للأذى والاعتداء غير مرة ، واضطر إلى الالتجاء فى الصحوة عارياً حتى خلص إلى العمران . ثم اشتغل فى الدسائس والمغامرات لحساب سلطان تلمسان مرة ، وسلطان فاس مرة . . . ولم ينل منصب قضاء المالكية فى مصر إلا بالوساطة السياسية عند الأمير الطنبغا الجوبانى وكان أمير المجلس فى عهد السلطان الظاهر برقوق . . . وقد أكثر ابن خلدون من الزلفى للسلطان برقوق كما كان يصنع فى المغرب والأندلس وتونس ، فزاد ذلك من جاهه وتقربه .

ولعل موقفه من الغازى التترى تيمورلنك يفسّر لنا طموحه دائماً ومغامراته فى السياسة لعله يصل منها إلى شىء يحقق مطامعه . فقد خرج سنة ٨٠٣ هـ مع السلطان المملوكى الناصر فرج فيمن خرج لمقاتلة المغير التترى أثناء تقدمه إلى دمشق لاحتلالها ، وفى خلال حصار عاصمة الشـام الجميلة تسلّل ابن خلدون لمقابلة المغير تيمورلنك ، فأجلس بين يديه :

« فلما دخلت عليه فاتحت بالسلام ، وأومأت إيماءة الخضوع . فرفع رأسه ومد يده إلى فقبلتها ، وأشار بالجلوس ، فجلست حيث انتهيت ، ثم استدعى من بطانته الفقيه عبد الجبار بن النعمان من فقهاء الحنفية بخوارزم ، فأقعده يترجم بيننا » .

ومثل هذا السلوك النفعى المادى لا يتفق مع المسلك العملى الروحى للمتصوفة ، ولكن ذلك لا يمنع ابن خلدون من أن يحتل مكانه العظيم الضخم فى التفكير الإسلامى ، بل فى التفكير الإنسانى على وجه العموم .



الفـرح

بقلم السيدة ملك عبد العزيز

كمثل ماء النبع إذ يفورْ
منبثقاً وسْط الحصى والصخور
مختلجاً مكركراً ضاحكاً
مندفعاً مجلجلا فى هدير
يبعثر الخضرة أنَّى سرى
ويرشق الدوح بنوْر الزهور
رذاذه الأبيض كانت له
فى منكب التل ظلال ونور
ظلٌ من الخضرة معشوشبٌ
ومن سنا الزهر رفيفٌ يمور –

كمثل ماء النبع إذ يفور
ينبثق السرور . . .
من كوَّة فى النفس مخبوءةٍ
فجرَّها شيء خفيٌّ صغير .
لعله ربتَةُ كفٍّ حنون
لعله همسة قلب صديق
لعله نبرة صوت حبيب
يرجفه شوق خفيٌّ عميق
لعله دعاء طفل غرير :
ماما ، ويلوى الثوب كفٌّ صغير .
أو بسمة بيضاء مخضلّة
بالحب ، بالبذل ، بدفق الشعور .

لعله عطر خفيٌّ رهيفْ
من زهرة قطرها الربيع
لموتة عذراء مخبوءةٍ
من كنّها الأخضر حلمٌ يضوع

لعله ذكرى ليوم أثير
لعله لحظة نصر بهير
والفرحة الطفلة مبهورة
تزقزق اللحن وتفشى العطور

يا فرحتى تواثبى كالحباب
لا تعمقى لا تعمقى فى الصدور
إن تعمقى يحزّ فيها الأسى
والشوق والتَّوق ولهف الشعور

تراقصى ترافصى كالشعاع
على جناح الموج عند الأصيل
ورفرفى مثل الفراش الطَّليق
يمتص شهد الزهر عطر الحقول

هيا اجدلى فى الدوح أرجوحة
واعلى بها وسط صفاء السماء
مورى وطيرى واخفقى فى الفضاء
وعانقى الزرقة عبَّ الضياء

مورى وطيرى اخلقى عالما
مورَّد الخدَّين غضّ الخيال
وبعثرى الألوان بين الدُّنى
ونضّرى العيش بسر الجمال
لولاك ما طال به خطوُنا
ولا شربنا من يديه المحال

فريدريش هيلدرلين

بقلم الأستاذ عبد الفتاح الديدى

إذا كنت قد عركت زحمة الناس
وخطوت على بساط الحقيقة بقدمك
فأقدمى إذاً يا عبقريتى
عارية فى الحياة بلا وجل

* * *

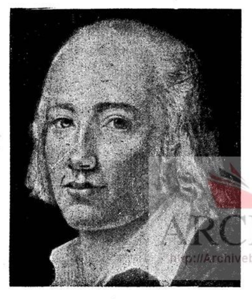
نحن الشعراء
ألسنة الشعوب
تعلمنا حب الاختلاط بالأحياء
بتلك الجماعة الصديقة للجميع
السعيدة المتفتحة على كل الأرجاء
فهذا حال أبينا
إلهنا الذى فى السماء

* * *

صدر هذا النداء الجميل عن الشاعر الألمانى فريدريش هيلدرلين الذى أصبح اليوم قمة من القمم الأدبية الرفيعة. لم يسع هذا الشاعر لأن يكون فيلسوفاً بل سعت الفلسفة إليه فى غضون أحلامه، وجاءت خفيفة هفهافة وسط ترانيمه، فأصبح بجدارة واحداً من أخلد شعراء الفكر والروح.

ولم يصل هيلدرلين إلى هذه المكانة فى يسر وسهولة بل كافح من أجلها حيًّا وميتاً وظل من عالمه البعيد يراود أذهان المفكرين والعباقرة بأعماله الفنية حتّى أخرجوه إلى عالم النضرة والحياة بعد أن كان مغموراً مجهولا.

وقد عرك هيلدرلين الناس بصورة قوية نابضة أثناء حياته، ظهرت آثارها فى شعره واضحة جلية. وكان ميلاده بمدينة لاوفن على نهر النيكر بألمانيا سنة ١٧٧٠ وهى السنة التى بلغ فيها نابليون سنة واحدة من



فريدريش هيلدرلين

عمره وكان جوته فى الواحدة والعشرين وشيلر فى الحادية عشرة فقط. ومات أبوه بعد ميلاده بسنتين فواظب من تلقاء نفسه على دراسة اللاهوت إلى أن حظى بدرجة التعليم الخاص وأصبح يزاول هذه المهنة. وفى سنة ١٧٩٣ اتخذته السيدة شارلوت فون كالب، محبوبة شيلر السابقة، مدرساً لأولادها.

وفى تلك الفترة بالذات بدأت مشاعر هيلدرلين فى التبلور وتكونت جملة من انفعالاته الحماسية للفضيلة والوطنية، وشقّت ثقافته اللاهوتية سبيلها إلى الظهور

فى فكره وأشعاره ، وزادت قراءاته للشعراء الذين استأثرت بأعمالهم الفنية نزعات روحية خالصة مثل كلوپشتوك المولود سنة ١٧٢٤ والمشهور بملاحمه الدينية وأشعاره القومية وأغانيه العاطفية ، ومثل شعراء جنوب غرب باڤاريا التقليديين ، ومثل بعض شعراء الإنجليز الذين تخصصوا فى الإنشاء الدينى والغناء الحزين القاتم كما هو الحال عند أوسيان الأسكتلندى الأسطورى من القرن الثالث عشر ، ويونج الذى كان ديوانه عن « الليالى » بمثابة الإرهاصات للحركة الرومانتيكية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر .

وأخذ هيلدرلين ينتج الشعر فى تلك الآونة متأثراً بمثل هذه الأجواء ومعبراً عن محيط أصدقائه وإخوانه وأقاربه . ولكنه كان قادراً حينذاك على أن يرتد إلى نفسه أحياناً فيعكس مخاوف قلبه وروحه ، ويتمنى الموت شاباً حتى تأتى العذارى فتلقى بالزهور حول قبره وتروى بدموعها ثراه .

ثم تهبُّ على أحزانه وهواجسه نسمة شفافة من أثر قراءاته لأشعار شيلر ، فتتغير بعض معالم روحه ، وتحتل العواطف المثالية مكانة الهوس الدينى فى نفسه الشابة ، وتحدث تغييرات جوهرية فى معانيه وأغراضه الشعرية ، وتصبح المثل الإنسانية موضوعاً أساسياً لمقطوعاته ، فينظم أشعاراً عن الحرية والحقيقة والإنسانية والجمال وعبقرية الشباب وعن الحب والصداقة .

وهاك مثلا من أشعار تلك الفترة : فى قصيدته « إلى الطبيعة »

عند ما كنت لا أزال أعبث بإزارك
وأتعلق بأهدابك كالبرعم
وأحس دقات قلبك فى كل الأصوات
التى تغمر قلبى الضعيف الهفهاف . .
. . . عند ما كنت لا أزال أقف متأملا صورتك
بقلبى العامر بالعقيدة والحماس مثلك
هيأ العالم مكاناً لدموعى ووطناً لحبى

* * *

عند ما كان قلبى لا يزال يرنو إلى الشمس
كما لو كانت ستصغى لندائه
ويحسب الكواكب إخوته
والربيع نغم الإله . . .
. . . عند ما كانت النسمة تثير الغابات
فأشعر بروحك . . روح المرح والسرور
توقظ الشجن فى قلبى الخافت
فتحوطنى حينذاك أيام السعادة الذهبية .

* * *

عند ما كنت أتلقى النضارة فى الوادى من ينبوعك
بين خضرة الشجيرات اليانعة
التى تتمايل على جانب الصخور الصماء
ويظهر الأثير خلال أغصانها
. . . وعند ما كانت تطفى على الزهور
فأنتشى من شذاها فى سكون
وتهبط على رأسى من أعلى السماء
هالة من الذهب المموه بالنور والبريق .

* * *

عند ما كنت أمضى فى الأراضى البور الكالحة
وتصاعد زمجرة السيول
من أعماق الأخاديد الداكنة
وتغمرنى ظلماء الأعاصير المدلهمة
. . . وعند ما كانت العاصفة تنطلق
ببروقها ورعودها العاتية بين الجبال
وتحصرنى السماء بين لهيبها المندلع
عندئذ . . . عندئذ تكشفت لى يا روح الطبيعة

* * *

كم ضعت سكراناً بدموعى وحبى
كما ترنو الأنهار التى تاهت طويلا
إلى الضياع فى بطن المحيط
فأقفز إلى ملائك . . . أيها العالم الجميل
وأمتزج بجوهر الكائنات
هارباً من وحشة الزمان .
. . . وكالحاج إلى قصر أجداده . .
ألقى بنفسى بين أذرع اللانهاية .

* * *

باركك الله يا أحلام الطفولة الذهبية
يا من أخفيت عنى بؤس الحياة
لقد نميت خمائر الخير فى قلبى
وأهديتنى ما لست أقوى على مغالبته
أيتها الطبيعة . . . بفضل نور جمالك

تتفتح الثمار العلوية على شجرة الحب
بغير ألم وبلا عسر
مثلما تتفتح محاصيل أركاديا

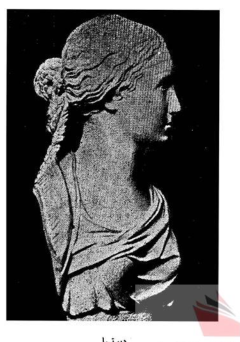
* * *

لقد خبا العالم الشاب
ذاك الذى ربانى وأطعمنى
هذا القلب كانت السماء تملؤه منذ هنيهة
فأصبح ميتاً يابساً كالقش
واحسرتاه . . . هذا الربيع يردد من جديد
أغانى عزائه الحلوة على مسامع آلامى
بيد أن صباح عيشى قد انتهى
وذوى ربيع قلبى .

* * *

إن أغلى الحب أبد قصير
وليس ما نحبه سوى ظلال
وعند ما ماتت أحلام شبابى الذهبية
ماتت بالنسبة إلى صديقتى الطبيعة .
لم تشعر قط يا قلبى المسكين
فى تلك الأيام السعيدة
بأنك قد نأيت عن وطنك الصحيح
ولن تستعيد أيامك تلك بحال
إلا إذا اكتفيت بأن تراها فى الأحلام .

* * *



ديوتيما
ربة الوحى والإلهام

ولم يطق شاعرنا هيلدرلين الذى امتزجت الشاعرية بوجوده وفكره معاً ، أن يبقى فى وظيفته تلك وأخذ يتنقل هنا وهناك حتى التحق ببيت رجل من رجال المال فى سنة ١٧٩٥ للإشراف على تعليم أبنائه .

وفى ذلك البيت الجديد دخل إلى قلبه الحب والوحى جنباً إلى جنب ، فأحس بعشق جارف للسيدة زوتسيته أم تلاميذه التى أسماها «ديوتيما» فى قصائده .

وقد أسقط الشاعر عليها كل هيامه باليونان القديمة وعكس على صفحة وجهها ، ملاحة الغادة الطروب فى تعفُّف ، الفاتنة فى تماسك ، الهائمة بألوان الفنون والشعر والجمال . وجعل منها فى خياله فتاة إغريقية تحت سماء الشمال البارد أو زهرة شتوية استقرت فى غير موطنها الأصيل .

وهكذا تآلفت فى فكره عنها مشاعر الإنسانية ومُثل الشباب ، وتجمعت فى شخصها أحلامه وحنينه إلى اليونان القديمة وأحاسيسه وأوهامه عن مصائر الناس .

ومن أشعاره الغنائية فى تلك الفترة قصيدته «إلى ربات المصير» المعروفات بآلهات الجحيم فى الأساطير اليونانية القديمة ؛ وفيها يقول .

لا أطلب غير صيف واحد أيتها القويات
وخريف آخر تنضج فيه أشعارى
حتى يطفح القلب باللعب اللذيذ
ويقبل على الموت فى استسلام

* * *

إن الروح التى لم تحظ بحقها فى الأرض
لا تعرف السلام حتى فى الجحيم

بل . . بل . . فتلك أشعارى المقدسة
قد صارت الغالية فى ازدهار

* * *

مرحباً بك أيتها الظلال الرجيمة
عندئذ سأرضى مرغماً بهجر طنبورى على الأعتاب
وحسبى أن أكون قد عشت كالآلهة
يوماً واحداً .

* * *

وتغلب على قصائده فى حب زوتستيه روح دينية قوية ويتجه إليها فى تعبيرات صوفية كما لو كانت رسولة السماء التى بعثها الله إليه خصيصاً من أجل عزائه وطمأنينة باله وسكينة خاطره . وقصائده المعروفة تحت عنوان «إلى ديوتيما» تضم جملة من المشاعر التى تبدأ أولا بتأثرات من جوته فى معنى المصير الذى جمع بينه وبين معشوقته كأنهما كانا على موعد فى اللقاء الذى تعرف فيه كل منهما على الآخر وكأنما ساقتهما الأقدار ليجدا فى نفسيهما دليل القدر المكتوب .

ثم يتطور هذا المعنى ،فتظهر القيمة الخالدة لساعات لقائهما واتحادهما الذى تختفى أثناءه كل القيود الأرضية ويبرز كلٌّ منهما حيال الآخر فى حرية ووضوح واعتزاز مستغرقين ومشرقى الروح والقلب والنظر والوجه ، ممتلئين بالسلام السماوى ، على حد تعبيره ، فى أحد خطاباته إليها .

ولنتلمس الآن معانيه الصافية هذه فى قصيدته عن « الآلهة » :

أيها الأثير الجاثم
أنت تحفظ لروحى جالها وسط الآلام
وتحت سطوة نورك يا إلهى
يصاعد قلبى الثائر
إلى الشجاعة والنبل

* * *

أيتها الآلهة الطيبة
شقى من لا يعرفك
وتظل روحه الشقية بلا أمل
وقلبه فريسة الانقسام
وتصبح الدنيا فى عينيه ظلاماً
ويجهل المتعة والغناء

* * *

أنت وحدك أيتها الآلهة الطيبة
ترضعين القلوب التى تحبك
من شبابك الخالد
وتضفين عليها براءة الأطفال
ولن تتركى العبقرى المغلف بالهموم والخطايا
ييأس ويموت .

* * *

وهكذا نلمس تعبيره الدينى الدفين يظهر على صفحة أشعاره وتتجلى مراسمه على صورة تراتيل وعبادات . وتتشكل فى كل قصيدة من قصائد حبه لفتة تعكس شيئاً من حنين قلبه ووهج عاطفته الأسْيَانة التى سرعان ما تجنح إلى الحزن القاتم وتشع منها رائحة حب فريد يربطه الشاعر بكل الوجود وبأصغر مظاهر الطبيعة وأكبرها على السواء .

والكلمات العامة فى قصائده إنما تعنى معشوقته التى ترنو إليها كل مظاهر الطبيعة فى صمت وخضوع وتهيم بها كل الموجودات . وتتبدى أوليات فكرته عن الطبيعة التى تتساءل عن الإنسان فى أحد تعبيراته وبجعلها تهب لشفاء معشوقته إذا مرضت ، وعزائها إذا أحست بالوحشة .

استمع معى إلى قصيدته عن « الحب » :

إن نسيتم الأصدقاء
ولعنتم الأقربين إليكم
وأنزلتم سخطكم على الشعراء
فذاك مجدكم
وليغفره الله لكم
ولكن أجلوا روح من تحابوا

* * *

قل لى أين يمكن أن نحيا حياة الإنسان
وقد أحنى الهم الحسيس كل الهامات تحت نيره
فلذا يمضى الله أيضاً منذ وقت بعيد
لا مبالياً من فوق ما نحمل من رؤوس

* * *

ولكن مهما تمضى السنون بإرادة بغير نشيد
فى الفصل الذى يغطى سطح الأرض بالجليد
تنمو رغم ذلك قشات من العشب
وغالباً ما يصدح العصفور الفريد

* * *

عند ما تنجو الغابة بالتدريج من فتورها
عند ما ينكشف النهر وتعذب الريح فى نفحة الظهيرة
فى اللحظة المختارة
تتبدى رسولة الموسم أكثر جمالا
فنؤمن بها وقد خرجت من الأرض الصلدة الموحشة
وحيدة منها لذاتها
نبيلة رقيقة بين الجميع
هى الحب .. ابن الله ومنه وحده

* * *

فليباركك الله أيها النبات السماوى
يا من تغتذى بنشيدى
ويرضعك الأثير برحيق من رضابه الفعال
وتنميك الأضواء الخلاقة

* * *

إكبر .. صر غابة شاسعة وعالماً تنفذ فيه الروح
ظاهراً فى ملائه ..
يا لغة الذين يتحابون
صر لغة البلاد
حتى تصبح روح العشاق صرخة شعب بأكمله

* * *

وقد افترق شاعرنا عن محبوبته فراقاً أحدث ألماً عميقاً فى نفسه لسبب لا نعلمه سنة ١٧٩٨ وقام بعد ذلك بجولات فى بلدان مختلفة حتى وجد نفسه فى فرنسا بمدينة بوردوه سنة ١٨٠١ وعاد إلى ألمانيا فى سنة ١٨٠٢ وهاجمه المرض العقلى بشدة سنة ١٨٠٤ ولم يخلصه الموت منه إلا فى ١٠ يونيه سنة ١٨٤٣ .

ولم يخلق مصيرٌ شعريٌ أحقُ بهذا الاسم من مصير هيلدرلين الذى قضى معظم أيامه بين الجوع والتشريد والجنون والحب . والواقع أنه لا يكفى أن نصف شاعرنا بصفات الروحية والفكر ، فهذه قلما تؤدى المعنى العميق الذى اكتشفه الفيلسوف الألمانى المعاصر هيدجر فى الثلاثين سنة الماضية حينما استخلص من أعماله ماهية الشعر بمعناه الأصيل . ولا نعرف ما إذا كان من حقنا هنا ، أن ندخل فى تحليل أشعاره من وجهة النظر الفلسفية . ولكن الفلسفة هى التى اكتشفت حقيقته الشعرية ولم يعد من الممكن إغفال وضعيته من هذه الوجهة . ومن الضرورى أن نشير إلى بعض ملامح الفلسفة المعاصرة لندرك مدى أهمية هذا الشاعر الخاصة بالنسبة إلى التيار الفكرى الأوروبى الذى يعتبر ظاهرة الشعر عند الإنسان أساساً لكثير من مفهومات الفلسفة .

فقد كان هيلدرلين كما سبق القول شاعراً مجهولا مغموراً فى حياته ولم يعره جوته أدنى التفات ، وكان يلقاه بالإهمال والفتور . وعلى الرغم من حماية شيلر له وعطفه عليه ، وعلى الرغم من إعزاز الناقد اشليجل لفنه وتقديره له ، بقى هيلدرلين غير معروف فى الأوساط الأدبية إلى أن أخرجته كتابات الفيلسوف الألمانى المعاصر « هيدجر » إلى عالم الفن والأدب والفكر على نحو لم يسبق حدوثه لشاعر سواه .

وقد اهتم الشاعر ريلكه فى مستهل هذا القرن بدراسة آثار هيلدرلين الشعرية مع محاولة المشى فى إثره واقتفاء خطاه ... ولكن هيدجر استطاع أن ينتزعه بقلمه انتزاعاً من عالم المجهول وأن يلفت النظر إليه وأن يشرح معالم فكره وانعكاسات روحه ولفتات خاطره فى صورة قوية عميقة ناصعة .

ذلك أن فلاسفة العصر الحاضر قد شاءوا الانقسام على صورة فرق ومدارس ، وأرادت بعض هذه المدارس إظهار قيمة الفكر العلمى أو المنطقى كما تفعل المدارس الإنجليزية والنمساوية والأمريكية وأراد بعضها الآخر ، وبخاصة داخل القارة الأوروبية ذاتها ، النزوع إلى المذهبية العقلية التى توافق أجواءهم الفكرية وتظهر نظرتهم إلى الشعر من حيث هو جزء مكمل للكيان العقلى ذاته شأن اليونان الأقدمين .

فالإحساس بالبداهة الإنسانية الأصيلة فى الكيان

العقلى يعد عند أصحاب هذه المدرسة تجربة أولى للعقل وتعبيراً صحيحاً عن الحقائق بمقدار ما يحمله من تلقائية وتصور . والشعور بالحنين إلى مظاهر العيش والناس هو الاستجابة الحارة لكل دلالات الفكر والوجود معاً .

وقد استشعر هيلدرلين كل ذلك فى قصيدته عن « مجرى الحياة » :

هيه . . حتى أنت
كنت ترنو لغايات عظيمة
ولكن الحب يطوينا جميعاً تحت أحكامه
ويحنى الشقاء هاماتنا أكثر وأكثر
ولكن ليس عبثاً
أن يعود بنا مدار الحياة من جديد
إلى نقطة البداية

* * *

صعود وهبوط
ولكن ماذا يهم
ففى الليلة القدسية
حيث تحلم الطبيعة الخرساء
بأيام المستقبل
بل فى أشقى درجات الجحيم
أليست هناك شريعة قائمة
وعدل يحكم

* * *

وأنتم . . أيتها الآلهة الخالدة
يا عداء الحياة
لن تمضوا بى فيما أرى
أبداً . . . أبداً
عبر الطريق السهل
شأن أبناء الفناء

* * *

ستقول آلهة الخلد
جربوا كل شىء
ويوم يرضع الإنسان الرضاب المرير
فسيعرف قدر الأشياء جميعها
ويدرك أنه حر
فى اختيار السبيل الذى يريد

* * *

فليس شعر هيلدرلين مبادئ عقلية مصبوبة أو مجموعة من المقولات المنمقة المرصوفة . . إنه على العكس من ذلك يصل إلى الشاعرية العالية لدقة الفكر المنتشر بين صوره وعلى أجنحة خيالاته ويسعى من ثم إلى تحديد الرسوم بشكل فنى يدعو العقل إلى افتراسها وإحالتها إلى تصورات وعقائد . إنه معاناة للأشياء والموجودات دون ارتباط قبلى بصورة غير صورة الصباح والنور الذى يلقاه الإنسان عند الفجر فيبدأ من عنده فى تأمل الأجواء المحيطة والشبابيك والأبواب والسقوف . . . فتتجسم معالم الأشياء وأشباحها ويتلقاها وجدانه فى تعطش الذى لم يدخل الطعام قط فى جوفه ، ويستشعر لذته الأولى عند ما تخترق الحقائق فكره لأول مرة وهو شارد بمفرده ، يتحسس فى متعة كل ما يخترق روحه وينفذ إلى نفسه ، ولا يأخذ الصورة مترجمة عن أنظار الآخرين أو السابقين . إنه يصّاعد إلى ماهية الشعر ذاته ويلتحم بجوهر الكائنات ، وهنا يتحقق معنى التجربة الأكبر .

وقد استغرق موضوع شاعرية هيلدرلين كيان فيلسوفنا الوجودى هيدجر الذى أخذ يحلل كل خطرة من خطراته ويحدد معالم فكره ويستخرج مكنونات فلسفته فى غير قليل من الإبداع . ذلك أن هيدجر يعتقد أن الفكر أولا وقبل كل شىء ظاهرة إنسانية . وكان الفكر عند اليونان مظهراً من مظاهر الوضوح ومرتبطاً بنور السماء كما هو الأمر فى الأبوفانسيس الأرسطالى . والنزوع إلى الفكر اليونانى هو نزوع إلى الفكر عند ما لم يكن قد اكتمل فى صورة تعقل بعد ؛ وأثر الروح اليونانية فى أشعار هيلدرلين كان ظاهراً تماماً ، والرجوع إلى بيت الفكر الأول هو رجوع وحنين إلى وطن المفكر الأصيل .

وهيلدرلين الشاعر الجوّال الذى لم يستقر فى مكان هو أشد الناس حنيناً إلى الوطن الأول ولذلك تغنى

بالوطنية وناجى أرض اليونان وامتزج عنده الشعور بالبداءة الأولية فى الفكر بالشعور بنوع من الاشتياق إلى الدار .. إلى الأركان « إلى تلك الأضواء الخافتة التى تستحلب ذكريات المرء وتاريخه ووجدانه » حيث يجد ذاته ويتعرف على منابع الوحشة الدائمة فى العالم الذى يبنيه بخياله ، ويظل مع ذلك حائطاً تبرز كل حدبة فوقه وكل خدشة فيه ، دليلا على معنى الإنسانية المقفلة ورمزاً للتجاوب بين الإنسان ونفسه .. مما يجعل منه حيواناً فريداً على سطح الأرض ينقسم ويتفاعل ويتآلف ويستشعر .

تأمل معى إذن قصيدته عن « سقراط وألقبيادس » .

لماذا .. أى سقراط المقدس
تقدم فروض التحايا لهذا الشاب اليانع
ألم تجد ما هو أفضل من ذلك
لماذا تتأمله فى حب
يشبه حب الآلهة ؟
فأجاب :
كلما عمق الفكر
أحب الحياة المليئة بالحيوية
وبعد أن تجول الأنظار بالعالم
ندرك الفضيلة العالية
ويتعلق الحكماء منا بالجمال

* * *

ويقول هيدجر إنه ما من مفكر استطاع أن يقتحم عزلة مفكر آخر . ومع ذلك ما من فكر يصدر من أعماق العزلة الفردية على صورة كلام مستور إلا وهو متجه إلى فكر سابق عليه أو لاحق به . وكلما بدا الفكر شارداً لأول مرة فى الطريق بلا علامات ولا حدود كانت تجربته أوقع للحظات الوجودية .. وهى اللحظات التى يحس فيها المرء بالتجارب لأول وهلة . والوجود الأصيل عند هيدجر هو الوجوديات أى الوجود وقد تفرق وتناثر على شكل وجوديات . والوجوديات هى عالم البشر والناس . وبمجرد النطق بالصلة بين الوجود والوجوديات فإن الوجود الإنسانى يرد فى التو على الخاطر مرتبطاً بهذه الصلة بين الاثنين .

وهذه قصيدة أخرى تحت عنوان « عبثاً أطرق كل يوم سبيلا آخر » .

عبثاً أطرق كل يوم سبيلا آخر
فحيناً نحو خضرة الغابة
وحيناً نحو المنبع
وحيناً نحو الصخرة المكسوة بالزهور
حيث تجول عيونى بالإقليم كله

* * *

أى حبيبتى الرقيقة
لم أعد أراك فى أى مكان تحت الشمس
وتختفى أقوالى فى الهواء
أقوالى القدسية
التى همست بها منذ هنيهة .

* * *

أنت بعيد حقاً أيها الوجه السماوى
ومع ذلك فحياتك تمضى
بعيداً حيث لا أدرك هيئة انسجامه
يا لوعتاه ... أين أنت
يا توافق السحر الذى ولى

* * *

صبى فى قلبى سكون الآلهة
كم من الوقت ضاع
فالفتى اليافع قد صار شيخاً
والأرض نفسها تحولت عن ابتسامها الضاحك

* * *

وداعاً إلى الأبد
إن روحى تهرب كل يوم لتعود إليك
وعيونى تبكيك
حتى إذا غسلتها الدموع
رأت المكان الذى تسكنين بوضوح

* * *

ولا يعترف هيدجر بسبيل للفلسفة أو للفكر إلا فى تحققه على صورة علاقة أصيلة داخلية بين الوجود بمعناه الواسع الأعم والوجوديات الإنسانية المحتزأة فى عالم الناس والأحياء . ولذلك يصبح الفكر كيان

الإنسان بأكمله وينتمي من ثم إلى الوجود . واستجابته للوجود لا تتمُّ إلا عن طريق اللغة .

واللغة ليست ما يدور بخاطرنا من كلام وأقوال منظومة وأدوات تعبيرية مصبوبة ، فالشعر والفكر لا يعمدان سوياً إلى استخدام اللغة والاستنجاد بها من أجل التعبير ، فهما فى حد ذاتهما تعبير « أولى » أصيل ، وهما بالتالى ، فى الوقت نفسه ، اللغة العليا التى تتحدث بها اللغة ذاتها خلال الإنسان .

والكلام عن طريق اللغة شيء آخر سوى استعمال اللغة . بل إن الكلام العادى لا يعدو أكثر من كونه استخداماً للغة . وعند ما نقول إنه كلام عادى فنحن نعنى أنه ليس إلا لغة على هذا النحو ، أعنى أنه استخدام للغة .

ولما كان الفكر أو الشعر على حد سواء لا يستخدمان العبارات وإنما يقولان كلاماً ، فإننا بمجرد استطلاعنا سبيل الفكر نجد أنفسنا ملزمين بأن نلتفت إلى قول الكلام . ففى الفكر والشعر قول كلامى يسبق اللغة التعبيرية . والعلم لا يعبر وإنما يستخدم اللغة ، ولذلك فالعلم لا يفكر كما يقول هيدجر ، ويبقى بعيداً عن الإدراكات المباشرة للأشياء . فالعلم لا يفكر بمعنى الفكر لدى المفكرين ، ولكن ذلك لا يمنع الفكر ذاته من الالتفات إلى العلم . وقولنا بأن العلم لا يفكر ليس من شأنه أن يعطى الفكر حقًّا فى الهذر والخرف .

وقد تكوَّنت فى أشعار هيلدرلين صورة كاملة لهذا العالم بما فيه من أحياء وآلهة . . . من طبيعة وملائكة ، فاستطاع أن يضع الإنسان فى مكانتـه الأصيلة بين مظاهر الوجود وتخللت عقيدته الدينية أحلام وأساطير كثيرة فجمع بين باكوس والمسيح واستعان بخياله الفذ على تجسيد الأرباب ثم همس وتغنى بأعذب ما ينبع من ذات إنسانية عليا .

فلنقرأ هذه القصيدة : « فوق ورقة الشجر المصفرة» .

يرقد العنقود
أمل النبيذ
فوق ورقة الشجر المصفرة

مثلما ترقد ظلال حلق ذهبى
تدلى من أذن حسناء
فوق خدها

وسأظل وحيداً

إن العجل الصغير
يألف التعلق بالرباط
الذى يشده

حين يستكين إليه

بيد أن كل من يبذر الحب
يعشق رؤية المرأة النؤوم
فى وضح النهار
فوق شالها

إن ثغر الألمانيات
ينقصه التناسق
ولكنه يتغنى فى خفوت
بصوت القبلات
فوق ذقن أشعث

* * *

ومعروف أن الشعر ينتمى إلى الأدب منذ مدة طويلة .

والواقع أن الفكر أيضاً ينتسب إلى الأدب بالطريقة نفسها . والفكر ليس شعراً فى النهاية ، ولكنه قول أولىٌّ أصيل فى اللغة . ولهذا ينبغى أن يظل قريباً من مملكة الشعر . ولن يستطيع تاريخ الأدب أن يتخلى عن شعرائه ومفكريه . وأسماء سوفوكليس وريلكه وهيلدرلين ستظل عالقة بتاريخ الأدب ، ولكن هيلدرلين وحده سيكون أكبر من وفّى تعبيراً قوليًّا عن ماهية الشعر وقد تجسدت فى أحلى أشعار أخرجتها أرض الشعراء والمفكرين : أرض الراين .

رحلة (جاجارين) أول خطوة لصنع إنسان الفضاء

بقلم الأستاذ فوزي الشتوي

إلى أين ؟

إلى أين تخطو البشرية بعد أن عرفت باب الخروج من سجنها الأرضي ، وبعد أن اقتحمه الروسي « يوري جاجارين » فسجَّل أخطر حدث وأعنفه في تاريخها الطويل ؟ وأية فائدة تعود عليها إذا ما سبح الإنسان في الفضاء وزار القمر والزهرة والمرّيخ وغيرها من كواكب الكون ؟

والإجابة عن مصير البشرية ومستقبلها ، لاتتجاوز الآن تفكير تلك الأسماك التي رغبت منذ أكثر من ١٠٠ مليون سنة في مغادرة حياة الماء لتستكشف اليابسة ، فاقتنت أكياساً اختزنت فيها أكسيجينها ، وخرجت إلى الأرض لتحقق هدفها .

كلتا الخطوتين في رأى فريق من علماء الحياة مرحلة تطوُّر . رأينا في الأولى الأسماك تخرج من البحر لتنشر الحياة على اليابسة ؛ فإذا هي تتحول إلى زواحف وطيور وحيوانات لبونة على رأسها الإنسان .

● مرحلة في التطور

وها نحن — بخطوة « جاجارين » — نضع أقدامنا على أولى درجات التطور من إنسان اليابسة إلى إنسان الفضاء ، إن صحَّت نبوءة العالمين الأمريكي « ستر جهولد » وزميله الروسي « جوروفسكي » .

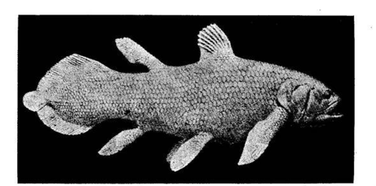
وعلى الرغم من امتيازنا عن تلك الأسماك باتساع أفق العقل والتفكير ، وعلى الرغم كذلك من علمنا بتاريخ التطور في مراحله المختلفة ، فإننا لا نفضُلها كثيراً من حيث القدرة على التنبؤ بمصيرنا حتى في الخطوة التالية ، حين نبدأ في التأقلم واكتساب الصفات الجسمانية الخاصة بحياة الفضاء ؛ مما يؤهلنا للهجرة فراراً من كوارث الأرض وأهلها كما أفتى العالم الروسي « لبيدنسكى » .

كل ما نعرفه أننا قلَّدنا تلك الأسماك البدائية . فالرغبة في استكشاف العالم المجهول توفَّرت في النوعين . وكل منهما سعى إلى تحقيقه بوسائله الخاصة ، واستعان بمرونة أعضاء جسمه ، وقدرتها على التلاؤم والانسجام مع البيئات المعادية ، ثم اقتنى الأجهزة الخاصة بالتغلب على العوامل التي تفوق قدرته البدنية ، مما أتاح له الحياة في بيئات تقتله .

ويروى تاريخ التَّطور ، أن تلك الأسماك خرجت من بحرها منذ ١٠٠ مليون سنة ، وهي تحمل بين طيَّات جسمها كيساً يحوى كمية أكسيجين ادَّخرته واختزنته فيه لبدء عملية استكشاف اليابسة ، وتجربة الحياة فيها . وتروى البحوث والأنباء أن « جاجارين » اختزن هذا الأكسيجين في كيس أو قمرة حرص الخبراء فيها على أن تجيد تقليد البيئة الأرضية .

● بيئة معادية

وبيئة الفضاء شديدة العداوة للأحياء الأرضية ، وتشبه عداوة اليابسة بالنسبة للأحياء البحرية التي تعيش على عمق ٨ أو ٩ كيلو مترات تحت سطح الماء . وهي هناك تحصل على أكسيجينها بمعونة خياشيمها ، وتعيش تحت ضغط مائيٍّ كبير تعوَّدت أجسامها على احتماله دون الشعور بثقله ، فهي مثلنا



سمكة « سولا كانث » بزوائدها العجيبة التي ساعدتها على بدء الهجرة من الماء إلى اليابسة .
وخطوة الروسي جاجارين تقليد لما فعلته ولكن من اليابسة إلى الفضاء

حيال عمود الهواء الذي نحمله ، ويقدّر ثقله بنحو ١٤ رطلا على كل سنتمتر مربع من أجسامنا ، ولا نحسُّ بثقله لأن الضغط الداخلي في أجسامنا يتساوى مع الخارجي ، ويلغيه .

وعند ما أخرج الإنسان تلك الأحياء من أعماقها ، انفجرت ؛ لأن الضغط داخلها زاد عنه في خارجها عند ما أزيل عمود الماء من فوقها ، ولم تستطع الحياة بغير الثقل الذي تعوّدت عليه طول حياتها . وكذلك الإنسان تعود أن يعيش بجاذبية الأرض وثقل عمود الهواء ، فإذا انتفيا انفجر في الفضاء .

ولهذا حرص العلماء على تزويد قمرة « جاجارين » بالضّغط والأكسيجين الشبيهين بما على سطح الأرض .

ولم تكن تلك السمكة التاريخية في حاجة إلى الضغط لأنها كانت من سكان سطح الماء ، واختلاف ضغطه عن ضغط اليابسة قليل ، ومن السهل على أعضاء جسمها أن تنسجم وتتلاءم معه ، ولكنها كانت مثل « جاجارين » في حاجة إلى أكسيجين يحوّل الطعام الذي يأكله الحي إلى مواد غذائية تستطيع أنسجة الجسم امتصاصها

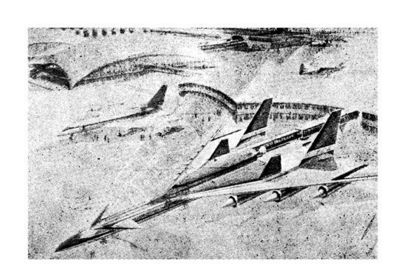
والفرق كبير بين رغيف الخبز أو قطعة اللحم التي تأكلها ، وبين المادة التي تتسرّب من معدتك إلى دمك ، فتختلط به ، وتمر على كل خلايا الجسم لتأخذ كل نصيبها من الغذاء الذي إن غاب عنها دقائق أصيبت بالجوع المرهق ، ثم الانحلال والموت .

وهي الظاهرة التي نلمسها في حالة النوبات القلبية ، حين تظهر في الشرايين جلطة دموية تسدُّ واحداً منها ، وتعرقل مسار الدم إلى القلب أو المخ أو أي الأعضاء ، فتحرمه من غذائه .

● غزو اليابسة وغزو الفضاء

ولعله من الأفضل أن نعود حقبة لنتخيَّل تلك السمكة في محاولاتها غزو اليابسة . وهجْر عالمها المائي الذي حرمت فيه نعمة الاطمئنان إذ كثُر حولها الأعداء ، كل يترقّبها ، ويتحين الفرصة لالتهامها ؛ وتلقى بنظرة على اليابسة ، فلا تجد من أثر لأعدائها فيها . وتراها شبيهة بتلك الفجوات الصخرية المغمورة في الماء ، وإليها تلجأ وتختفي عن العيون المتلصّصة التي تريد الفتك بها ، وترمق على اليابسة أيضاً فيضاً من تلك الأعشاب التي تتغذى بها

وتستولى عليها الرغبة في الهجرة ، وتقترب لتلقى نظرة أدق وأعمق ، وتلقيها الأمواج على الشاطئ



نموذج طائرة صاروخية تحاول أمريكا صنعها لتقطع ٢٤ ألف كيلو فى الساعة
وبها يمكن إجراء مجموعة ضخمة من التجارب لزيارة الفضاء

فترى عالماً فسيحاً لا أثر فيه لأى المخلوقات، وفجأة تحس بالاختناق، وبجسمها يضعف، فتستسلم لأول موجة ماء تعود بها إلى البحر، ففيه لا تحس بذلك الشعور المرهق الرهيب.

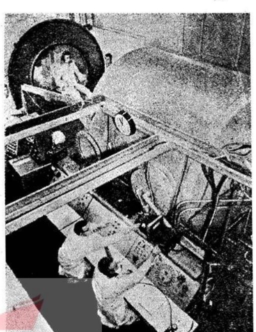
وتعود إلى حياتها السابقة بين أعداء لا قبل لها بمعاداتهم، فيزداد بها الحنين إلى اليابسة، إلى العالم الفسيح الخالى من الأعداء، والوافر الغذاء. وتتكرر الزيارة آلاف المرات؛ وتتعاقب فى الأجيال جيلا بعد آخر؛ والرغبة تزداد، ولا تضعف؛ والمحاولات المستمرة تعلم الأعضاء ما لم تعرف.

● المادة تتعلم وتتذكر

والمادة سواء أكانت حية أم ميتة تملك سراً يعتقد العالمُ الفرنسى « بربن » أنه سر الحياة. عرف العلم بعض مظاهره فى عام ١٩٢٢، وأطلق عليه اسم الكهربائية الحديدية. ويقول الباحثون « بولونسكى » و « ساردون » و « دوزون »، فى بحث نشروه فى السنة الماضية، إن ذلك السر يكمن ويعمل فى نوى أى العناصر « الطبيعية » ومن شأنها أن تتعلم وتتذكر، وبه تعمل العقول الآلية، ويفكر الإنسان.

والحديد صلب لا يلين، وله خواصُّه المعروفة، لأنه تعلم وتذكَّر كيف يحتفظ بخواصه. والإنسان يتكلم ويستخدم عقله لأن مراتب التعلم تجمعت فيه، وعرفت كيف تمتاز على سواها، ولعل تعقيد جزيئات مادته، واحتواءها على آلاف المركبات، هو الذى جمع فيه مميزات لا تتمتع بها أى المخلوقات

والمشاهد فى كل الأحياء حتى الميكروبات التى لا تراها العين — أنها تتألف من عدد ضخم من الذرّات المنظومة بطرق تعذّر على الإنسان أن يقلدها حتى الآن. وهذا التجميع لأنواع المادة عرفته الطبيعة وحشدته فى الأحياء لتكتسب الرقى على سواها. وكلما زاد الحشد،



تجارب دراسة الفضاء ... تمت آلاف منها في غرف محكمة الإغلاق لتقلد فيها العوامل السائدة في الفضاء ومدى احتمال الإنسان لها وكيف يمكن الوقاية منها . وفي الجزء الأعلى من الصورة ظهر أحد المتطوعين مستعداً لدخول الغرفة وإجراء تجربة . وظهر في أسفلها خبيران يضبطان أجهزتهما لبدء التجربة

زادت القدرة على التعلم والتذكر مما نراه على أقصاه في الإنسان الذي يعدّ أعقد المخلوقات .

● وساعدتها الطبيعة

وبخواص التعلم والتذكر الموجودة في تلك الأسماك أدركت أن خياشيمها عديمة القيمة بالنسبة لحياة اليابسة ، فهي تعرف كيف تحلل الماء ، وتستخلص أكسيجينه ، ولكنها لا تعرف كيف تحلل الهواء لتحصل على المادة نفسها رغم وجودها فيه .

وفي غزواتها المتكررة لليابسة ساعدتها الطبيعة . وبدأت تعمل معها في استبدال الخياشيم بجهاز آخر يستطيع تحليل الهواء ، فزودتها بذلك الكيس لتختزن فيه الأكسيجين وتطيل زمن الزيارة ، وبه أمضت فترات أحست فيها بالأمن والسعادة ، وعرفت أن اليابسة مجال جيد لحياتها .

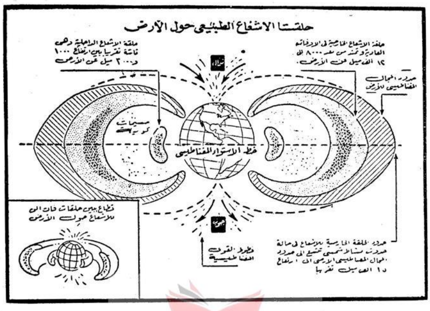
وأحبتها وأمضت فيها أطول وقت ممكن ، ولم تلجأ إلى الماء إلا لتملأ كيسها ، فهي تريد الاستغناء التام عن حياة الماء . واستجابت الطبيعة لرغبتها ، وزادت من معونتها عندما رأتها تحمل خياشيمها بغير فائدة .

والحياة عزيزة على الطبيعة في أي صورها . ولهذا جعلت المادة قادرة على التأقلم والانسجام مع بيئتها . حتى الحشرات الضارة استحال على الإنسان إبادة أي أنواعها . وعندما استخدم المبيدات الحشرية ، زودت الطبيعة الحشرات المعرضة لها بخواص جعلتها لا تتأثر بها ، مما عرف عند العلماء باسم المناعة ضد لون ، أو آخر من هذه المبيدات .

واقتنت الأسماك أنفاً وتحوّل بعضها إلى زواحف أو طيور ، أو أحياء تعيش في البر والبحر . وتمسّك بعضها بالحالة التي تحوّل إليها ، ورأى بعضها أن يرقى ويتطور . ولكلٍ من الأحياء استجابت الطبيعة ، وزودته بما يريد من أجهزة ، فتضرّعت المخلوقات الحية إلى آلاف الأنواع والأجناس التي نراها الآن ، وعلى رأسها الإنسان بعقله وتفكيره وقدرته على الدراسة والابتكار واستغلال كل ما حوله لخدمته ، وتحقيق أغراضه .

● جاجارين والسمكة

وهنا يظهر الفارق بين «جاجارين» وتلك السمكة ؛ فهي تركت للطبيعة والتطور مهمة تزويدها بما تريد من أجهزة ، فاحتاجت إلى مليوني سنة لتكون الإنسان والجنس البشري . ولا نعرف بالضبط كم أمضت حتى اقتنت كيس أكسيجينها ، وإن كان من المرجح أنها أمضت ملايين السنين .



حلقات الإشعاع حول الأرض ، وهى تتكون وفقاً لمجالها المغناطيسى ، فتؤلف طبقات خطرة على رواد الفضاء ويعتقد العلماء أن قطبى الأرض هما أفضل الأبواب للسفر إلى الكواكب لأن الإشعاع فوقهما يقل إلى أدناه كما يوضح الرسم فى الركن الأيسر

ولكن الإنسان عرف بدراسته وعقله وتعاونه كيف يزوِّد « جاجارين » بقمرته أوكيس أكسيجينه فى قرن واحد ؛ وحتى منتصف القرن الماضى ، كان الطيران فى الجو من الأشياء الرهيبة ، إذ ظن الناس أنه مسكن الجن ، وأول بالون حلّق فى الفضاء فى عام ١٨٣٤ شهد معركة عند سقوطه فى إحدى القرى الفرنسية ، إذا انقض عليه الناس يمزّقونه ويشرحونه ظنّاً منهم بأنه عدو سماوى انقض عليهم .

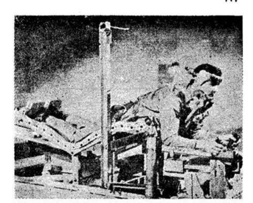
ومن ذلك التاريخ بدأنا نغزو الجو والفضاء فى دراسات منظمة هدفها التغلب على أية عقبـــة ؛ فاستخدمت البشرية البالونات والطائرات والصواريخ المزوّدة بشتى الأجهزة التى تعاون فى إعدادها وصنعها آلاف العلماء والباحثين .

وبالدراسات عرفنا أن الحياة تستحيل على الإنسان إذا ما ارتقى بغير وقاية إلى ارتفاع يزيد على ثلاثة كيلو مترات ، فبعدها يواجه حالة قلة الهواء ، ولا يحصل على كفايته من الأكسيجين . ويواجه أيضاً حالة انخفاض الضغط ، وفيها تغلى مواد جسمه ، وتتحوّل إلى بخار وغازات .

● مواد بدائية

وإذا ما صعد الإنسان إلى ارتفاع يزيد على نحو ٣٥٠ كيلو مترا التقى بمواد تكوين الكوين ، وهى فى حالتها البدائية التى تتألف منها أية مادة تراها من الماس إلى الهواء إلى مركّبات أى الكائنات الحية .

وبمعونة الأقمار الصناعية اكتشف العلماء فى أمريكا



هكذا يرقد رجل الفضاء فى رحلة العودة إلى الأرض

وروسيا طبقات إشعاع تبدأ من ارتفاع ١٦٠٠ كيلو (١٠٠٠ ميل) وتمتد إلى حدود المجال المغناطيسي للأرض على ارتفاع ١٩ **ألف** كيلو متر (١٢ **ألف** ميل) . وهى حلقات غير ثابتة فى قوة إشعاعها ، وتخضع لنشاط الشمس ، وظهور البقع السوداء . ويقال إنها خطر شديد الفتك بالحياة ، ومن الجائز أن تقتل الإنسان أو تصيبه بالأورام والالتهابات الخبيثة إذا بقى فيها فترة من الزمان بغير وقاية .

والأحاديث كثيرة عن المواد الواقية من الإشعاع ومنها طلاء السفينة بمادة تتفاعل مع المواد المشعة وتجردها من خطرها . ومنها عقاقير إذا تناولها الإنسان لا يتأثر بالمواد المشعة . ويبدو أن هذه المواد لم تصل بعد إلى مرحلة النجاح ، وبعضها يعمل لدقائق ثم يفقد قدرته . وهى فى الغالب فى مرحلة تجارب غير حاسمة .

ولعل عدم التأكد من نجاحها فى وقاية الإنسان هو الذى دفع روسيا إلى إطلاق رجل فضائها فى فى هذا الوقت ، وعلى هذا الارتفـاع القريب من الأرض . ففى السنتين الماضيتين كانت الشمس نشطة وانفجاراتها كثيرة ؛ أما الآن فبدأت مرحلة ركودها النسبى مما يجعل المنطقة التى حلق فيها « جاجارين » قليلة الخطر .

● مادة الفضاء

ومن الدراسات المختلفة تغيرت النظرة الماضية إلى القضاء ، وما قيل من انتشار مادة الأثير فيه ، فإن الدراسات التى أجراها « إينشتاين » وغيره من العلماء أثبتت أن كل فضاء الكون يحوى المادة البدائية ، وهى نواة غاز الإيدروجين . وتختلف نسب وجودها وشكلها وتكوينها تبعاً لقربها أو بعـدها من أى الأجرام الكونية .

وهى على سطح الأرض هواء ، ويحوى السنتمتر المكعب الواحد ٣٠ كاتريليون ذرّة (٣ وأمامها ١٩ صفرا) وكلما ابتعدنا عن الكوكب قلّت المـادة ، وتمددت الذرّات ، وشغلت حيزاً أكبر ، ويقل عددها بنسبة كبيرة ، فيهبط إلى ١٠٠٠ ذرّة بين الأرض والقمر الطبيعى ، ويقل إلى ١٠ ذرات فقـط بين الشمس ، وأقرب النجوم منها «كالفاسنتورى»

وإذا قدّر لإنسان الفضاء فى المستقبل أن يظل معتمدا على غاز الأكسيجين فى تحويل طعامه إلى غذاء لجسمه ، فعليه أن يصنعه لا أن يستخلصه ، كما تفعل الأسماك حين تحصل عليه بخياشيمها من ماء البحر ، وكما تفعل الأحياء البرية حين تحصل عليه من الهواء الذى يتألف من الأزوت والأكسيجين وثانى أكسيد الكربون والأرجون والهيليوم وغيرها .

● من حيوان مائى إلى محلية

والفجوة هنا واسعة ، والتشابه مختلف لأن إنسان المستقبل سوف ينتقل من عملية استخلاص ما هو موجود فعلا إلى عملية صنعه وتكوينه . وهى عملية لم نعرفها بعدُ حتى فى الدراسات العلمية والمعملية ، والإجراء ذرّىٌّ وليس بكيميائى . والبشرية الآن لا تزال فى

طفولتها حيال الدراسات الذرية . ولو استطاعت إجراء هذه العملية صناعياً لتمكنت من تحويل الهواء إلى ماس أو حديد أو أى العناصر الأخرى .

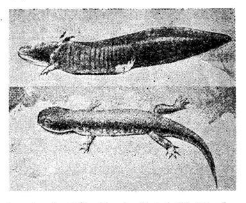
ولا نعرف أيضاً أى دور سوف تلعب الطبيعة لإحداث مثل هذا التطور الكبير ، ولكننا نعرف أن مادة أجسامنا قابلة للتلاؤم والانسجام مع البيئة حولها . وليس معنى هذا أن التلاؤم سيتم فى قرن ؛ بل فى آلاف القرون ، فالطبيعة كما عرفنا تعمل فى بطء شديد ، وتستغل المواد الكيميائية فى أجسامنا لإحداث التحوُّلات المنشودة .

ومن أمثلته العجيبة ما يشاهد فى إحدى الزواحف التى تعيش فى هضبة المكسيك الجافة ، واسمها « اكزولوتل » ، إذ تبحث عن الماء حتى تعثر عليه وتحوِّل طبيعتها لتعيش فيه ، وإذا ما حقنتها بهرمون الغدَّة الدرقية تحوَّلت إلى سحلية .

● مواد كيميائية تغير أعضاءنا .

والهرمونات كثيرة فى أجسامنا حتى إن العلم لم يعرف كل أسرارها . وبفعل العوامل النفسية والانفعال تستطيع هذه المواد أن تصيبنا بعشرات الأمراض من الإحساس بالصداع ، إلى قرح المعدة إلى التهاب الجلد . وعندما درس الأطباء الأمراض الناشئة من الانفعالات كالقلق والغضب والحزن ، وجدوها تؤلف نصف المرضى فى المستشفيات وعيادات الأطباء .

وبالعوامل النفسية وقوة الإرادة استطاع «جاجارين» أن يتغلَّب على المفاجآت التى صادفته فى رحلته من حالة الضغط الهائل الناشئ عن اندفاع الصاروخ فى اتجاه مضاد لجذب الأرض ، ثم حالة انعدام الجاذبية حين يصير الجسم بغير وزن فى أثناء دورانه حول الأرض .



تأثير المواد الكيميائية والهرمونات يظهر بأجلى معانيه فى هذا المخلوق العجيب المعروف باسم « أكزلوتل » فنشأته فى المناطق الجافة بالمكسيك ولكنه هاجر إلى الماء وعاش فيه بهيئته الظاهرة فى الصورة العليا ، فإن حقنته بهرمون الغدة الدرقية تحول إلى سحلية كما فى الصورة السفلى

إننا لا نعرف بالضبط العمليات الآلية لما نسميه بقوة الإرادة التى تجعل الفرد يقابل العقبة ويتغلب عليها ، وإن كنا نعرف أن حالة الغضب تدفع غدة ما فوق الكلى إلى إفراز هرمون الادرينالين ، فيعطى عضلاتنا قوة على مواجهة عدوِّنا . وهو فى هذه العملية يغير شكل الأوعية الدموية والقلب والعضلات والعيون وشعر الرأس وغيرها من علامات الغضب والاستعداد للقتال .

وبرغبتنا نستطيع أن نثور وندمِّر إذا استسلمنا للغضب ، وبقوة الإرادة وما نسميِّه بالحلم نكبح جماحه ونوقف انصباب هذا الهرمون فى دمائنا ، وزيادة غضبنا . وفى أجسامنا أيضاً تلك المواد الكيميائية التى تجعل سكان المناطق القطبية يقتنون طبقة شحم تقيهم شدة البرد ، والتى تجعل سكان المناطق الحارة يفرزون مزيداً من العرق لتخفيف القيظ عن أجسامهم .

وفى أجسامنا المواد والصفات التى استطاعت تحويل الأسماك إلى بشر فى سلسلة التطور الطويلة . وهذه الخواص نفسها هى التى سوف تحولنـــا إلى إنسان المستقبل أو إنسان الفضاء .

● عقلنا يساعد الطبيعة

وإنسان اليوم لا ينتظر تدابير الطبيعة ، بل يستخدم عقله فى مساعدتها لإداء مهمتها فى عملية التطور ، ولا ريب أنه إحدى أدواتها ، فهى التى زودتنا به فصنع العلماء قمرة « جاجارين » ليلقى — كالسمكة — أول نظرة على الفضاء ، وبالعقل أيضاً سنصنع سفن الفضاء ومحطاته لابقاء مدة أطول فى الفضاء . وهناك تواصل الطبيعة عملها فى مساعدة الإنسان على تحقيق رغبته ، فمن عاداتها ألا تقدم المعونة إلا إذا سار الحى الخطوات الأولى .



لمحات عن الفنون الإفريقية

بقلم الدكتور محمد المعتصم سيد

تاريخ العلاقات العربية الإفريقية تاريخ قديم ، عُرف منذ عرفت حضارة الطرفين وتوثقت علاقاتهما على مر الأيام والسنين . يقوِّى من وشائجها روابط الزمالة والصداقة وتبادل المنفعة . قدَّم العرب للإفريقيين حضارتهم وفنونهم ، ونقلوا عنهم خصائصهم الفنية ، وظل كلا الطرفين محتفظاً بخصائصه وطباعه الأصلية .

واليوم ، تمر على العالم العربى فترة مزدهرة يتطلع خلالها ليستردَّ أمجاده ، ويبذل الجهد لخلق الشخصية العربية الفتيَّة فى كل مجال . وهو فى هذه المرحلة الهامة يتطلع إلى إخوان له فى إفريقية ينشد زمالتهم ليعيد تاريخ الماضى ؛ فيأخذ عن الإفريقيين ويعطيهم ، ويعمِّق من أمر هذه الأواصر .

وفى إفريقية — كما ذكرنا — حضارة عربية منقولة ، أثرت بلا شك فى حضارة هذه القارة ، وكانت فى يوم ما منارة إلى تلك القارة العظيمة . فليكن إذن فى التعرف على الفنون الإفريقية والتفكير الإفريقى بصورة أكاديمية وعلمية مجال جديد للدراسة والبحث .

وإن الذى يحدث فى إفريقية اليوم من ثورة على الأوضاع التى خلَّفها الاستعمار — سواء من النواحى السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الفكرية — ويقظة شاملة فى كل جانب من حياتها ، ونهضتها فى كل جزء من أجزائها ؛ كل هذا أمر يدعونا إليه الواجب لنتعرف على حقائق إفريقية الفكرية ، ولنقضى على الخرافات التى نشرها الاستعمار والقائمة على تمييز الجنس الأبيض وتفوُّقه ، وتجاهل الحضارة والفنون الإفريقية .

ولقد آن الأوان لأن نغيِّر النظرة الرومانتيكية التى كنا ننظر بها إلى إفريقية فى الماضى ، فلا يجمل بنا أن نهمل أو نجهل تراثها الفنىَّ والفكرىَّ ونحن نعيش فى صميمها .

* * *

لقد هبط الاستعمار الأوروبى إلى القارة الإفريقية ليستنزف ثرواتها ويحتكر إمكانياتها ، فكان أن صدَّر إلى الخارج ثروتها البشرية ، وثروتها الاقتصادية ؛ ولم ينس فى غمرة هذا الطوفان أن يصدر الفنون الإفريقية الأصيلة فى إطارات برَّاقة . أراد أن ينسبها فى أول الأمر إلى نفسه وإلى حضارته ، ولكن أصالة هذه الفنون أجبرته على التخلى عن نظرته الجشعة ، فظلت هذه الفنون محتفظة بطابعها .

ومنذ الوقت الذى روَّجت فيه الدول الأوروبية سياسة الاقتباس من الفنون الإفريقية أصبحت الفنون الأوروبية تعتمد اعتماداً كبيراً على الفنون الإفريقية ، واكتشف الأوروبيون كل يوم منها جانباً مضيئاً ، وجدوا فيه ما يجدد خاطرهم بما تحمله هذه الفنون من أفكار وخواطر بكر . كل هذا والإفريقيون أنفسهم يجهلون المجال الواسع الذى يرتاده الأوروبيون ؛ ولا يعلمون عنه شيئاً ، حتى شبههم البعض بالعين التى ترى ما دونها ولا ترى نفسها .

طافت الفنون الإفريقية المتعددة بمختلف دول العالم ، وتنقلت عبر المحيطات والبحار ؛ أدخل على بعضها التجديد ، وتناول التحريف بعضها الآخر . ورغم ذلك كله ظلت محتفظة بطابعها ومقوماته ، لا يستطيع أحد أن ينسبها لنفسه . ولهذا لا ندهش حينما نجد الفنون الإفريقية بعد مئات السنين من الكبت والتحكم تعود لتقود العالم فى عدة ميادين هامة من ميادين الفن الإنسانى الرفيع ، وبخاصة الموسيقى والفن البلاستيكى .

وإذا تناولنا الموسيقى ، نجد ألوانها المحببة المنقولة من داخل القارة السوداء تغزو العالم . واستطاع القائمون عليها وهم من أصل إفريقى ، أن ينهضوا بها حتى إنهم أوشكوا أن يقضوا بها على الموسيقى الكلاسيكية التى تباهى الأوروبيون بها وكانت رمز تفاخرهم سنين طويلة ؛ واعتمدوا عليها كأساس هام من أسس الثقافة الإنسانية .

ومن أشهر هذه الألوان الموسيقية الإفريقية موسيقى الجاز والسامبا والرومبا والتانجو .

لقد نقل الأوروبيون والأمريكيون موسيقى الجاز بمشتقاتها العديدة من إفريقية وعن طريق مواطنين إفريقيين تعهدوا أمرها وتخصصوا فيها ؛ وكان هذا التطور الصاعد الذى طرأ عليها . ومع ذلك أجمع النقاد الفنيون على اعتبارها موسيقى إفريقية خالصة ؛ إفريقية الأصل ، أمريكية الصورة .

ولدت موسيقى الجاز لتؤدى وظيفة هامة فى الحياة الاجتماعية الإفريقية — كانت للترويح عن النفس وتجديد الحيوية ، تحمل فى طياتها صوراً حية تعبر عما تكنه الصدور الجياشة بالآلام والقلوب المعذبة على أيدى الجلادين ، عبرت عن معانى الحنين إلى أرض الوطن الإفريقى والأمل فى فك قيود الاسترقاق والانطلاق إلى حياة الحرية ؛ والتوسل إلى الجناة كى يخففوا الوطء ، ويقللوا من البطش والتعذيب ؛ والعزاء والسلوى للنفوس التى أضناها الإرهاق من معاملة النخاسة وهم يقودون قطعان الرقيق فى طريق المستقبل المظلم الذى ينتظرها خلف المحيطات والبحار الواسعة .

من هذه المواقف كلها ، خرجت موسيقى الجاز لتعبر بصدق عن الأحاسيس والانفعالات المختلفة ، وحمل لواءها أبناء إفريقية الذين قادهم مصيرهم للعمل فى العالم الجديد . . فى أمريكا .

وفى الوطن الجديد . . فى أمريكا ، ولدت موسيقى الجاز نغماً صامتاً معبراً دالاً بوضوح على حيوية أبناء إفريقية ، وتركت طابعاً هاماً يربط بين الوطن الأصلى والوطن الصورة .

لم يفهم المستعمر — برغم عبقريته وسعة أفقه — ما تحمله هذه الموسيقى من ترجمة للنزعات المدفونة فى نفوس الإفريقيين المسترقين نحو بلادهم التى أرغموا على الاغتراب عنها ، وإلا لقضى عليها حتى لا يرتبطوا بالأرض الحرة الخضراء التى نشأوا فيها ..

وهكذا كتب لموسيقى الجاز البقاء حتى تظل معبرة عن القصة الدامية التى مثلها الاستعمار الأبيض على أشلاء الإنسانية المعذبة فى إفريقية .

والحديث عن موسيقى الجاز يقودنا إلى مسميات موسيقية أخرى غزت المجال الفنى فى العالم . فكلنا يعرف الرومبا والسامبا والمامبو . لقد نقل الرجل الأبيض هذه الموسيقى بأصولها وأنغامها ومسمياتها ، لأنه أدرك أن أى تحريف فيها ، سوف يفقدها معانيها وطابعها الأصيل .

فالرومبا تنسب إلى مدينة رومبيك فى أقصى جنوب السودان صدرت من منبعها إلى الخارج لتصور ترجيع حلقات الفن المقدسة فى ضوء القمر . حيث تلتف الجماعات فى حلقات تختلط فيها أصداء الطبول الصاخبة بما تختلج به نفسية الإنسان الحر الطليق .

وما يقال عن الرومبا ، يقال عن السامبا والمامبو، وهى أسماء مناطق إفريقية صميمة تقع فى وسط القارة بين جنوب السودان وأوغنده . وليس أدل على إنسانية هذه الموسيقى من أنها غزت كل الأذواق ، وتجاوبت معها قلوب كثيرة فى شتى أنحاء العالم واستطاعت أن تنفذ إلى مختلف الأذواق والمشارب ، وأصبحت حلقة اتصال بين عديد من العواطف البشرية على اختلاف مستوياتها وتباين حضاراتها . ونحن لا ندهش إذن حينما نجد الملايين من أبناء هذا العالم يطربون لهذه الألوان من الموسيقى . وينتشون من سماع أنغامها الحالمة وتكسبهم حرارة لذتها متعة دافقة .

إنها الموسيقى الإفريقية التى تترجم اليوم عن أدق وأجمل الإحساسات البشرية المعاصرة .

وقد تبع انتقال الموسيقى الإفريقية إلى الخارج ، انتقال آلات موسيقية إفريقية صميمة معها . فالماوب والناى والطبـــول بأنواعهـــا ـــ والسكسك ـــ أى الشخشيخة ـــ كلها آلات إفريقية أصبحت اليوم عمداً فى الفرق الموسيقية العالمية . . تعتمد عليها اعتماداً كلياً وبخاصة فى الإيقاع .

* * *

ونأتى لجانب آخر من جوانب الفنون الإفريقية أثر على الحضارة العالمية تأثيراً مباشراً . . هذا اللون هو : الفنون البلاستيكية .

لم يعن بدراسة هذا اللون الجديد باهتمام المثقفين، إلا فئة قليلة برغم ما يذخر به الثلث البلاستيكى الإفريقى من معان إنسانية . وما يحتويه من فلسفة إفريقية إنسانية حرىٌّ بأن يوليه الباحثون والفنانون اهتمامهم ودراساتهم دراسة واقعية تستهدف كشف خصائصه واستنباط مكمن قوته وآيات صدقه . . وبخاصة إن أوروبا أدركت سر قوته فتأثرت به تأثيراً مباشراً .

وقد أعد الفنان والأديب الإفريقى الدكتور محيى الدين صابر بحثاً عن الفن البلاستيكى الإفريقى وتأثيره على الفن البلاستيكى المعاصر فى أوروبا، فقال إن المدرسة التجريدية التى يتزعمها الفنان الإسبانى الأصيل الفرنسى الجنسية بيكاسو صاحب حمامة السلام . تستلهم النموذج الإفريقى فى النحت والرسم فى تحديد القيمة الجمالية للعمل الفنى . فالتجريديون قد ثاروا على الأساليب الفنية ، وكفروا بالتقاليد الكلاسيكية التكنيكية من حيث مراعاة النسب والأبعاد . ومن حيث استغلال الألوان ومن حيث الصدق الفوتوغرافى أو المادى . . الخ . وهم ينهجون فى منهجهم وفى إنتاجهم طريقة تعميق القيم المطلقة الخالدة التى تكمن فى نفس الوسائل ، كالخطوط والألوان تعميقاً تجريدياً رمزياً . . وهم بعد هذا لا يستنكفون من الاعتراف بتلك الواشجة الملتصقة التى تصلهم بالفنون الإفريقية . التى تعتبر بحق فنوناً إنسانية وظيفية .

وإذا كانت القيم الجمالية والأساليب التعبيرية هى قيم نسبية خاضعة لاختلاف الثقافات ، ومتأثرة بالعوامل الزمنية والمحلية فإنها لذلك لا يمكن أن تكون فى أهمية المضامين والوظائف الخالدة للفنون . وإذا كان كثيرون لم يهضموا جمال التعبير فى الفنون الإفريقية التشكيلية . فليس ذلك لأن هناك قبحاً مطلقاً فى المقاييس الجمالية الإفريقية ، ولكن لأن الجمال الإفريقى من نوع خاص . ظل بعيداً عن العواطف التى نشأت على تذوق أساليب أخرى ليس كلها بالتأكيد جمالا مطلقاً . . ومع هذا فإن الشىء الذى تلتقى عنده الفنون جميعاً ، هى الرسالة التى تنهض بها فنون الشعوب جميعاً .

على أن الفنون الإفريقية تمتاز بطابع هام ـــ فيما تمتاز به ـــ ذلك هو الطابع الاجتماعى الوظيفى . فالفن فى المجتمعات الإفريقية هو أولا : سبيل الإنسان إلى

الدين ولغته إليه ، والدين فى إفريقية ، كما هو فى كل المجتمعات البادية ، هو طريقة الحياة والنطاق الذى تدور فيه ، وليس المعنى التجريدى المطلق الذى ينحدر من عالم غيبى ، ولهذا فإن العمل الفنى الإفريقى يكاد يكون عملا جماعياً ، لأنه عمل اجتماعى ، وعمل وظيفى ؛ ودور الفنان وشخصيته الإبداعية تأتى فى المرتبة الثانية ، فالفن بالجماعة وللجماعة .

فالفنان الإفريقى ليس فناناً حر التصرف ، فالمجتمع يلزمه بأمور معينة لا يستطيع تجاهلها . والنموذج الفنى نموذج متكرر نتيجة لهذا . فمثلا المثّال الإفريقى الذى يصنع قناعاً للرقص أو ينحت تمثالا للآلهة الآباء ، مقيد أشد القيد بقيود دينية واجتماعية غليظة ، فعليه أن يختار الخشب أو المادة الطينية من شجر معين ، أو من تربة معينة ، ومن جزء معين منها ، وفى وقت معين ، ولا بدّ أن يستعمل آلة معينة ، ولا بد تبعاً لذلك ، أن يكون النموذج — مهما كان عدد الفنانين نموذجاً واحداً . . لأن قيمة العمل الفنى ووظيفته تكمن فى العمل نفسه وليس فى الفنان .

وبقدر ما فى هذا من قتل لشخصية الفنان الإبداعية ، فإن فيه إحياء للشخصية الجماعية الفنية . فالجماعات هى التى تصنع الفن إذن لخدمة أهداف جماعية ، وهذا دليل على أن الفن الإفريقى فنٌ وظيفىٌ من الطراز الأول .

هذه الوظيفية تقودنا إلى طابع آخر ، هو الإنسانية السلمية ، التى تميز الفنون الإفريقية . فهى تصعد من أسفل إلى أعلى . . من عالم الأبناء العابدة إلى عالم الآباء الآلهة المعبودة . فالفن الإفريقى عبادة للآباء الآلهة . وقربان لهم وترضية لقداستهم أمام مظهر من مظاهر الطبيعية وفى مجال من مجالات النشاط الحيوى فى الحقل أو فى الصيد أو فى غير ذلك .



أمومة من غينيا فى المدينة

على أن النفس الإفريقية لا تنزع إلا إلى الخير ، وإلا إلى ما يمسك عليها أمنها ، وذلك هو السر فيما يشيع فى فنونها من الوداعة وحب العمل والإنسانية . وقد صوّر الدكتور صابر هذا المعنى عقب مشاهدته لأحدى اللوحات المعروضة فى بلچيكا التى صوّرها فنان إفريقى مجهول منذ عشرة أعوام لأمٍّ زنجية تحمل رضيعها على ظهرها . فإلى جانب الحيوية الصارخة ، والقدرة على الملاحظة فى الصلة بين الطفل وأمه . . فقد كانت هناك التفاتة فى منتهى القوة التعبيرية ، هى ذلك الشبه الكامل الديناميكى بين الأم والطفل وبالنسبة نفسها والعمر فكان الطفل صورة للأمّ لو أنها كانت طفلة ، والطفل صورة للأم لو أنه أصبح أمّاً .

* * *

هذه لمحات عن الفن الإفريقى الأصيل فى بعض نواحيه .

وإن واجبنا اليوم أن نتعرف على حقائق الفكر الإفريقى . . .

وأن تكون الفنون الإفريقية مجال دراسات علمية تكشف تراث قارتنا الفنى والفكرى .

وليكن لنا من التعرف القريب الناضج على الفنون الإفريقية والتفكير الإفريقى، مورد جديد من موارد دراساتنا وأبحاثنا ، لتتلاقى الأفكار فى سبيل الحيوية وأسباب الخلق والتجديد .



ديك سقراط

للكاتب الإسبانى ليوبولدو آلاس

ترجمة الأستاذ فوزى سمعان

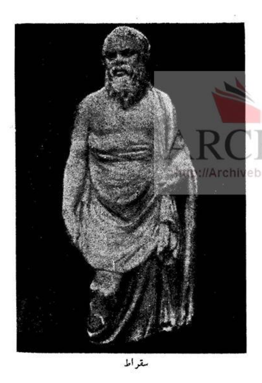
[ولد ليوبولدو آلاس المشهور باسم كلارين عام ١٨٥٢ فى زامورا بإسبانيا ولكنه أمضى معظم حياته فى مدينة أوفيدو حيث شغل كرسى الفلسفة بالجامعة . يعتبر من خيرة نقاد عصره وقصاصيه وكتابه . وقد نشرت هذه القصة ضمن مجموعة تحمل الاسم نفسه فى برشلونة عام ١٩٠١ ، السنة نفسها التى توفى فيها] .

بعد أن أسبل كريتو عينى سيده وأغلق فمه ، ترك بقية التلاميذ المجتمعين حول جثمانه ثم غادر السجن وقد صممّ على أن ينفّذ آخر وصايا سقراط التى ربما أعلنها له من قبيل المزاح ، ولكنه على أية حال قد عقد النية على تنفيذها . ومن يدرى فقد يكون سقراط جاداً فيما أوصى به .

وبينما كان سقراط يزفر آخر أنفاسه أشاح العباءة التى كان يغطى بها جسده ليخفى عن تلاميذه ومريديه منظره المؤلم وهو يعانى سكرات الموت، ثم نطق بآخر كلماته :

— كريتو ! نحن مدينون للإله إسكيولابيوس بديك ، فلا تنسَ أن تردّ له هذا الدّين .

لم يزد سقراط عن ذلك حرفاً ، وتلقّى كريتو هذه الكلمات واعتبرها تكليفاً مقدساً . إنه لا يريد لها تحليلا أو مناقشة ليعرف ما إذا كان سقراط قد أطلقها لمجرد المزاح والسخرية أو إنه قد عبر بها عن آخر وصاياه ورغباته . ألم يكن سقراط يحترم العبادة الشعبية والدين الرسمى دائماً بغضّ النظر عمّا كان يوجهه له كلٌّ من أنتيوس وميليتوس من اتهامات كاذبة ؟ الحق أن سقراط كان يعطى الأساطير طابعاً رمزيًّا فلسفيًّا ،



سقراط

سامياً ومثاليًّا ، وإن يكن كريتو لم يقبل تسميتها بأساطير بطبيعة الحال . ومع كل لغوه الشاعرى العلوى فثمة حقيقة لا يمكن إنكارها ، وهى أنه كان يحترم عقائد

الإغريق التى تمثّل فيها دينهم الإيجابى ، دين الدولة . وتشهد بذلك حادثة وقعت خلال آخر حديث ألقاه .

(لاحظ كريتو أنه على الرغم من طريقة الحوار التى كان سقراط يتبعها ، فإنه كان ينسى محدثه فى بعض الأوقات ويستطرد فى الكلام بأسلوب منمق) .

ولقد رسم سقراط عجائب العالم الآخر فى دقة متناهية ، أكثر ملاءمة مع الفكر التقليدى منها مع المنطق الجاف والفلسفة الصارمة .

لم يقل سقراط أنه لم يؤمن بكل هذه العجائب ، على الرغم من أنه لم يؤكد حقيقة ما وصفه باقتناع المتعصب العنيد . وهذا أمرٌ لا يدعو إلى الدهشة لو عرفنا أنه ، حتى فيما يتعلق بآرائه الخاصة التى بسطها دفاعاً عن خلود الروح ، قد اعترف — بعد أن نحّى الوهم والتكبر جانباً — بأن الأشياء ربما لم تكن على الصورة التى تخيّلها على أساس من الاحتمال الميتافيزيقى .

وباختصار ، لم يدُرْ بخلد كريتو أنه يسلك سبيلا يخالف منهج أوأسلوب سيده وأستاذه ببحثه عن الديك ، ليقدمه فى أقرب وقت لإسكيولابيوس ، إله الطب .

ويبدو أن العناية قد شاءت أن تتدخل فى هذا الموضوع ، فما أن ابتعد كريتو مائة خطوة عن السجن حيث رقد سقراط حتى أبصر بديك بديع الشكل ، له ريش فاخر ، يعتلى سور فناء صغير ، كان قد قفز إليه من حديقة مجاورة ، ثم همّ بالنزول إلى الشارع . وكان الديك يخطو مسرعاً كما لو كان يريد أن يخلص نفسه من أسر تعس .

وتكهّن كريتو بنيّة الطائر ، فانتظره حتى يثب إلى الأرض ليتمكن من مطاردته والإمساك به . ولم يلبث أن خامره اعتقاد بأنه هو الديك الذى يريده إسكيولابيوس ذبيحة ولا ديك سواه . والواقع أن الإنسان إذا ما تسرع فى اعتناق الأفكار والمشاعر الغيبية التى لا يسيغها عقله ، فلا شئ يحول بينه وبين الاعتقاد فى الخزعبلات الصبيانية . فما أن التقى كريتو بالديك مصادفة حتى رأى فيه مشيئة الآلهة .

ومن الجلىّ أن الديك لم يكن يشاركه هذا الرأى لأنه ما أن أبصره يطارده ، حتى أخذ يجرى ويرفرف بجناحيه ويقوق مقدماً الدليل على ما ألمّ به من ضيق شديد . ولم يلبث أن عرف مطارده ، فكثيراً ما شاهده فى حديقة سيده يحدثه طويلا عن الحب والفصاحة والجمال وغير ذلك من موضوعات ، فى حين كان الديك يغرى مئات الفراخ ويضلل بها فى دقائق معدودات ودون استعانة بمثل هذه الفلسفة المستفيضة .

ثم أخذ الديك يفكر وهو يتأهب للطيران : « إذن لقد ساءت الأمور ، وأقبل أولئك العقلاء الذين أزدريهم ليضعوا أيديهم علىّ ، مخالفين بذلك كل القوانين والنواميس الطبيعية التى كان يجب عليهم أن يعترفوا بها .

يا له من شئ رائع ! أبعد أن أعتقت نفسى من عبودية لا تطاق لدى جورجياس ، أقع هكذا سريعاً فريسة بين يدى هذا الشيطان التعس ، هذا المفكر الذى يتعاطى الأفكار السلفية الموروثة رغم أنه أقلُّ إيناساً من سيدى السابق الثرثار ! ؟ » .

ظل الديك يجرى والفيلسوف فى أعقابه . وما أن أوشك على الإمساك به حتى أخذ يضرب بجناحيه ، يقفز تارة ويطير أخرى ، مدفوعاً بقوة الخوف حتى استقر فوق رأس تمثال ؛ وأى تمثال — أثينا إلهة الحكمة .

صاح الفيلسوف وقد استبدّ به هياج مثل هياج قضاة محاكم التفتيش المتعصبين ، ومعذرة لهذا الخطأ التاريخى — : « يا لك من ديك وقح » !

وبعد أن أخرس ضميره المحترم بسفسطة ، غلّفت بورع زائف ، حين قال له : « لا تقتل هذا الديك » ، عاد يفكر : « إنك الآن تستحق القتل بعد أن دنست



موت سقراط

المقدسات وانتهكت الحرمات . سوف تكون لى،ولابد من التضحية بك » .

عندذاك هبَّ الفيلسوف واقفاً على أطراف أصابعه، ومطَّ نفسه عالياً قدر المستطاع ،وأخذ يقفز على نحو مضحك يستلفت الأنظار ، لكن بغير جدوى .

وقال الديك بلغة يونانية فصيحة جديرة بجورجياس :

— يا صاحب الفلسفة العقلية المصنوعة ! دعك من هذه الشقلبة ، فليس فى وسعك أن تطير كما يطير كتكوت . ماذا ! هل أصابتك الدهشة إذ ترانى أتكلم ؟ ألا فلتعلم إننى ديك من حظيرة جورجياس . أنا أعرفك ، فما أنت إلا ظل رجل ميت . هذا مصير التلاميذ الذين يبقون على قيد الحياة بعد وفاة أساتذتهم . إنهم يعيشون من بعدهم كالأشباح ليخيفوا الأطفال . ويمضى الحالم الملهم مخلِّفاً وراءه تلامذة مهيضى الجناح، يجعلون من المثل الأعلى الشعرى للخيال الرفيع مجرد سبب آخر للخوف،وكرب يضيفونه إلى ما لدى العالم من كروب ، وخرافة متحجرة .

فقال الفيلسوف : اسكت أيها الديك ! طبيعتك تأمرك بالصمت .

قال الديك : أنا أتكلم . أما أنت فتنقنق « بفكرة » اصغ إلى . أتحدث إليك لا بإذن من فكرة النوع الذى أنتمى إليه وإنما بمقدرة ذاتية بوصفى فرداً . ومن كثرة ما سمعت عن موضوع « البلاغة » التى هى فنُّ الكلام من أجل الكلام ، فقد تعلمت شيئاً من هذه الصناعة .

قال الفيلسوف :

وهل تردُّ دين سيدك بالهرب هكذا من جانبه ، تاركاً بيته ، ناكراً سلطانه ؟

قال الديك :

جورجياس — سيدى — رجل مخبول مثلك ، ولو أنه أكثر لطفاً . ما من أحد يقدر على العيش معه . إنه يحاول أن يثبت كل شىء ، وهذا أمر متعب ومُربِك معاً . إن كل من يحاول التدليل على كل شىء فى الحياة يتركها خواء . ومعنى أن تعرف علة كل شىء هو أن تحصل على هيكل الأشياء دون أن تحصل

على مادتها . إن تنزيل الحياة إلى مرتبة المعادلات الجبرية معناه تركها بدون رأس وبلا قدم . فلتذهب فى طريقك ، فأنا قادر على ترديد هذا النوع من الكلام سبعين يوماً وسبعين ليلة . وأذكر أنى ديك جورجياس السفسطائى .

قال الفيلسوف :

ما دمت ديكاً سفسطائياً ، وحيث إنك انتهكت المقدسات ، ولأن هذه إرادة زيوس ؛ فلا بد لك من الموت . هيَّا سلِّم نفسك !

قال الديك :

لن أسلِّم ولو قُطعت رأسك . لم يولد ، بعد الفيلسوف العقلى الذى يستطيع أن يمد يده نحوى . لكن علام كل هذا ؟

ما هذه القسوة ؟ لم تلاحقنى هكذا ؟

قال الفيلسوف :

لأن سقراط قال لى وهو يحتضر أن أضحى بديك إسكيولابيوس ذبيحة شكر ، لأن إسكيولابيوس قد منحه الصحة الحقيقية حين خلَّصه من علل الحياة بالموت .

قال الديك :

هل قال سقراط كل هذا ؟

قال الفيلسوف :

لا . بل قال إننا مدينون لإسكيولا پيوس بديك .

قال الديك :

ثم تخيلت أنت الباقى .

قال الفيلسوف :

إذن ماذا يمكن أن يكون لهذا الكلام من معنى آخر ؟

قال الديك :

معنى أكثر كرماً ، معنى لا يؤدى إلى سفك الدماء ، أو يدفع إلى الوقوع فى الزلل . أما أن تسفك دمى رغبة فى تهدئة وإرضاء إله لم يؤمن به سقراط ، فمعناه أنك تهين سقراط والآلهة الحقيقيين ، فضلا عن أنك تنزل بى ضرراً لا حد له مع أنى مرح وبرىء ، وليست لدى جنسنا فكرة عن الأحزان والمصائب التى قد تكمن فى الموت ؛ ذلك السر الغامض .

قال الفيلسوف :

ولكن سقراط وزيوس يريدانك ضحية .

قال الديك : لاحظ أن سقراط كان يتكلم متهكماً بسخرية العبقرى الصافية ، الخالية من العنف والمرارة . كان قلبه الكبير قادراً على أن يلهو دون خطر بلعبة سامية ، قوامها التوفيق بين العقل والأوهام الشائعة . ولتعلم أن سقراط وكل الذين أبدعوا حياة روحية جديدة إنمايتكلمون بالرموز . إنهم أهل بلاغة ، فإذا ما أماطوا اللثام عن الحجب وعرفوا ما تخفيه من أسرار واحترموا مكنونها الذى لا يوصف ، منحوها قالباً شعرياً . إن الحب المقدس للمطلق يلجأ إلى هذا الأسلوب فى مخاطبته للروح . انظر إليهم وهم ينزلون عن هذه الرياضة الممجدة ليعلِّموا العالم كيف تكون دروسهم صارمة موجزة ، وكيف تخلو أحكامهم ونواميسهم الأخلاقية من المجاز العقيم الذى لا نفع فيه .

قال الفيلسوف :

امسك لسانك عن الكلام يا ديك جورجياس ومت .

قال الديك :

يا لك من تلميذ غير جدير بالانتساب لأستاذه ! اذهب ولُذْ بالصمت . فلتصمت إلى الأبد . كلكم سواء يا معشر تلامذة العباقرة : شهود صُمٌّ وعميان لا تدركون صوت الضمير العلوى . ومن خلال أوهامه وأوهامك تظن أنك قادر على تخليد جوهر روحه حينما

تضمخ تعاليمه بالعقاقير المخدرة وبالقوانين . لكى يكون لك معبود ، لا بد لك من أن تحيل جسده إلى مومياء . إنكم تتسببون فى تحجُّر الفكرة ، وتستخدمون الرأى السديد سلاحاً لسفك الدماء . أنت رمز الإنسانية الحزينة المنقسمة على ذاتها . وها أنت تريد أن تستنبط من الكلمات الأخيرة التى نطق بها حكيم وقديس حكماً تستبيح به دم ديك . لو أن سقراط ولد ليؤيد خرافات شعبه ، لما قبل أن يموت من أجل القضية التى مات من أجلها ، ولما أصبح قديس الفلاسفة . لا لم يكن سقراط يؤمن بإسكولابيوس ، ولا كان فى مقدوره أن يسفك دم ذبابة ، فما بالك بدم ديك — لمجرد مسايرة العامة .

قال الفيلسوف :

تعال الآن ! سألزم ما قاله سقراط .

وبحث كريتو عن حجر سدّده إلى رأس الديك ثم رماه به ، فسال الدم من عُرْفه .

وسقط ديك جورجياس مغشياً عليه وهو يصيح :

ليتمّ القضاء ، ولتكن إرادة المجانين !

ومن فوق جبين أثينا إلهة الحكمة سالت دماء الديك .



كسيلة

عربية مسلمة يقدسها المسيحيون الإسبان

بقلم الدكتور الطاهر أحمد مكى

— ١ —

هذه القصة تاريخ لا صلة له بالتاريخ !

لم تدوّن فى كتاب ، ولم تكتب فى مدوّنة ، وإنما اتخذت مكانها من ذواكر العامة ، تقص وتروى ، ويتناقلها الناس شفاهاً جيلا بعد جيل . فلم يكن عجباً ألا يشير إليها مؤرخ واحد عاصر أحداثها ، إسبانى أو عربى ، وليس بغريب أيضاً أن تُعرف القصة فى كل إسبانيا : قراها ومدنها ، يتحاكونها فى ليالى الشتاء القارسة حول وهج المدافئ ، ويسمرون بها فى أمسيات الصيف الرطبة على شواطئ الجداول ، ويتخذ منها عُبّار الجبال وقطّاع المفاوز تسلية وملهاة ؛ ذلك أن الجماهير لا تطلب رأى الناقد عند ما تحكى ، ولا تسأل التاريخ المكتوب عند ما تسترجع ماضيها ، ولذا فقد فتحت قلبها للقصة لكى تتخذ منه ملاذاً ، يحميها من قساوة النقد ، ومرارة التكذيب .

ليس ثمة شك فى أن للقصة أصلا ، ولكن المؤكد أيضاً أن العقل الجماعى عمل فيها خلقه ، فطوّرها ونمّاها ، وعكس فى أحداثها رغائب مجتمعه التى يريد أن يعبّر عنها ، وحمّلها مُثله العليا التى يطمح أن يراها واقعاً يعيش على الأرض ، ثم قدر لها أن تتخذ مكانها من القرى وبين عامة الناس ، وأن تصبح نبعاً ثرّاً لكثير من الكتّاب ، فاغترفوا منها أحداثاً ، وصنعوا من واقعها قصصاً ، وسار بها كلٌ كما يحب ، وأضفى عليها الجوّ الذى يريد ، وأضاف إليها من تاريخ عصرها ، وألبسها ما يريد أن يقول عن وقائع عصره ، أو ما يحب الناس فى عصره أن يقال .

ولم يقف بها الأمر عند إسبانيا وحدها ، وإنما أخذت طريقها إلى لغات أخرى ، تُرجمت إلى الفرنسية ونشرت فى بلجيكا ، وإلى الإنجليزية وطبعت فى نيويورك ، وإلى البرتغالية ونشرت فى البرازيل ، بل حمل المهاجرون الإسبان اسمها معهم إلى أمريكا اللاتينية ، تيمناً وتبرُّكاً ، ثم أطلقوه على واحدة من مدن الأرجنتين الصغيرة . وظلت لغتنا العربية وحدها ، محرومة من قصة كل أبطالها عرب .

إذا كانت وجهتنا فى معرفة الحضارة الأندلسية قد اتجهت إلى نشر المخطوطات ، وتحقيق النصوص ، وترجمة ما كتب فى اللغة الأندلسية الثانية ، أعنى الإسبانية ، فقد أغفلت حتى الآن التاريخ الحى غير المكتوب ، تاريخ علينا أن نلتقطه من أفواه العامة ، وأن نتصيده من عقول العجائز ، إنه التاريخ الذى يعكس حالة نفسية ولا يصور أحداثاً ، ويعطى رأياً ولا يقرر حقيقة . وعلينا أن نتدبر أمر ذلك ، قبل أن يزحف على هذه المصادر تيّار المدنية الكاسح ، ممثلا فى المذياع الناطق والمرئى ، وفى الصحيفة والخيالة ، وما وراء ذلك كله مما يحتل أذهان الناشئة ، ولا يفسح المجال لعجوز كى تنتحى ركناً هادئاً ، تسند على

ركبتها الواهية طفلا ناضراً ، تهدهده وتقطع له من ماضيها وتاريخها حكايات وحكايات ؛ الكذب فيها أكثر من الصدق ، والخيال فيها أوضح من الواقع ، ولكنها فى كل أطوارها تقدم لنا صورة اجتماعية زاهية ، قليل من مؤرخى العصور الوسطى من عنى بها ، أو حاول أن يفيد منها شيئاً .

قرأت كل ما كتب عن « كسيلة » قصة أو رواية أو تحقيقاً ، ولكن شيئاً من ذلك كله لم يشف لى غليلا ولم يُرض لى فضولا . لقد رأيتهم يسطون على خيال الجماعة فى تلقائيته وسذاجته وشفافيته ، فيصنعون منه آخر ثقيلا مصطنعاً ، ومن ثم أخذت وجهتى إليها فى أقدم المصادر ، التى سجّلتها كما كان يتداولها الناس ، ثم اتجهت إلى العامة فى القرى ، وهناك حول مقام القديسة العربية ، سمعت لها أكثر من معجزة ، ورأيت تاريخها فى أكثر من لون ، ومع ذلك ، فقد آثرت أن أبدأ القصة من أولها ، فعدت إليها فى المطبوعات القديمة التى ترجع إلى فجر القرن السابع عشر ، والدنيا إذ ذاك قريبة إلى العصر الذى وقعت فيه أحداث القصة ؛ فى التفكير ، وفى نمط الحياة ، لم أعتمد على رواية معينة ، ولم أترجم نصًّا محدداً ، وإنما قارنت بين النصوص المختلفة وبين ما سمعت شفاهاً ، وأقمت من ذلك كله ، بناء القصة كما سأرويها فيما بعد .

أما المراجع العربية فقد التزمت إزاء القصة صمتاً عميقاً ، فلم تشر إليها من قريب أو بعيد ، ولم تعرض لأسرة المأمون بن ذى النون ، ولم تحدثنا عما كان له من بنين وبنات ، صمت سيظل استفهاماً بلا جواب ، ربما إلى زمن طويل .

— ٢ —

أول تدوين كتابىٍّ للقصة تمَّ فى مطلع القرن السابع عشر ، أو على وجه الدقة عام ١٦٠٥ عند ما قام رجل من برغش Burgos ، عاصمة المقاطعة التى اتخذتها القديسة لها مقرًّا ، بتأليف كتاب حولها أسماه « حياة وموت ومعجزات القديسة كسيلة »

La vida, muerte y milagros de Santa Casilda.

ولسوء الحظ فإن هذا الكتاب الذى يشار إليه فى دوائر المعاجم ، وفى المؤلفات المعاصرة ، مفقود تماماً ، وعبثاً حاولت أن أجد له أثراً فى المكتبة الوطنية فى مدريد ، وهى زاخرة بالعديد من المؤلفات فى شتى اللغات ، أو فى مكتبة الجمعية التاريخية ، ولديها كثير من الذخائر التاريخية المطبوعة والمخطوطة ، من بينها عدد كبير باللغة العربية ، أو فى مكتبة بلدية برغش ، وكان الرد واحداً ، هو أنه لا يعرف من هذا الكتاب إلا اسمه . وأولئك الذين أوردوا اسم المؤلف ذكروه مقتضباً وهو Velandía ، بلا لقب ولا أب ولا معالم ولا بيِّنات ؛ مما يدل على أنهم جميعاً تناقلوا الخبر عن واحد دون أن يقع بين أيديهم نفس الكتاب .

أما التدوين الثانى للقصة فقد وقع بعد ذلك بسبعة وثلاثين عاماً ، أى فى عام ١٦٤٢ ، عند ما قام رجل من طليطلة اسمه Repetidor Hidalgo بنظم قصيدة شعرية فى مدح كسيلة ، عنْوَنها «قصيدة بطولية قشتالية ، عن حياة وموت وانتقال العذراء المجيدة ، القديسة كسيلة ، ملكة طليطلة الإمبراطورية »

Poema heroyco, castellano, de la vida, muerte y translación de la gloriosa virgen Santa Casilda, Reyna de Imperial Toledo.

وهو شعر ركيك وجافٌّ وناضب الخيال ، والقصيدة كلها لا تتجاوز بضع صفحات من القطع الصغير ، ولا يكاد أحد من مؤرخى الأدب يعرض للمؤلف أو لقصيدته ، وإنما تأتى أهميته فى أنه قبل أن يعمل خياله ليصنع من المادة قصة شعرية ، صدَّر لنا كتابه بمجمل تاريخى لها ، منتزع على التأكيد من أفواه العامة ، فالقصة كما قلنا ، وإن كانت من الأدب الشعبى الذائع ، إلا أنها لم تكن قد دخلت بعد تاريخ الأدب المسطور أو المطبوع ، إلا فى ذلك

المؤلف الضائع ، وأحسب أن الكاتب الإسبانى لم يقرأه ولم يعرف عنه شيئاً ، وإلا لأشار إليه ، أو على الأقل كان حديثه عن « كسيلة » أكثر تفصيلا ، ذلك أن الموجز التاريخى الذى أورده الشاعر الطليطلى قصير جداً ، لا يكاد يتجاوز الصفحة والنصف من القطع الصغير ، وإن يكن على أى حال قد أورد لنا الخطوط الرئيسية لأحداث القصة ، كما سمعها هو ، وكما كان يتحاكاها فى عصره الناس .

وبالرغم من ذلك كله ، فإن وثائق الكنائس هنا تضم عنها أخباراً وافرة ، وهى أخبار كتبت فى اللاتينية الدنيا ، مما يجعل قراءتها وقفاً على المتخصصين ، فضلا عن أن دور المحفوظات الكنسيّة لا تفتح أبوابها للجماهير فى عصرنا هذا بله العصور الوسطى ، على أنها من جهة أخرى كانت مصدراً غنياً لكاتب جاء فى مطلع القرن الثامن عشر وكتب تاريخ إسبانيا المقدس ، أو كما أسماه هو إسبانيا المقدسة Espana Sagrada . وليس ثمة شك فى أن كثيراً من الوثائق التى رجع إليها ، ضاع بعضها بفعل الزمن أو الجهل ، أو غباء المشرفين عليها ، وبعضها أصدر البابا نفسه أمراً بإعدامه كما يشير إلى ذلك المؤلف ، هذا الكتاب لا يعنى بالتاريخ بعامة ، وإنما يشير إلى الأحداث الدينية فحسب ، ويقسم إسبانيا طبقاً للمطرانيات القائمة فيها ، ثم يبدأ فى ذكر قديسى وقديسات كل واحدة منها ، وقد عرض للقديسة العربية فى موضعين ، وهو يتحدث عن الذين ينتمون إلى مطرانية طليطلة ، وكان حديثه عنها فى هذا القسم قصيراً مقتضباً . ثم عرض لها بين قديسات برغش حيث قضت بقية حياتها ، وحيث لها مقام يزار ويحج إليه الناس ! .

كان حديثه عنها فى هذا القسم طويلا ضم صفحات وصفحات ؛ ولكن مادته لا تضيف إلى معلوماتنا جديداً أكثر مما نعرفه من أفواه الناس ، فغالبه معجزات وخوارق قامت بها القديسة العربية ، أشياء كثيرة أقرب إلى المستحيل منها إلى الممكن المعقول ، ولكنها تميزت بإشارات صريحة إلى أن حديث هذه القديسة كان مدوّناً فى سجلات كنائس : طليطلة ، وبلد الوليد ، وبالنثيا ، وليون ، التى ألغاها البابا . ومن إيراده لأحداث القصة ، نقلا عن الوثائق الباقية بعد الإلغاء ، يفهم منه أنها اعتمدت فى تسجيل الوقائع على ما يقول الناس ، وليس بين مصادرها واحد تاريخى يعتمد عليه ، فروايات الوثائق الكنسية على كثرتها ، وعلى الرغم من الحياة الاجتماعية والسياسية المختلطة التى كان يعيشها الإسبان المسلمون والإسبان المسيحيون فى القرن الحادى عشر ، تبدو عاجزة تماماً عن إيراد الأسماء العربية لأبطال الحوادث بطريقة صحيحة أو قريبة الصحة ، « فذو النون » لقب الأسرة الحاكمة أصبح Canon ، والمأمون لقب والد الفتاة أصبح Aldemon أو Nomine ، ثم لا يلبث مؤرّق الكنيسة أن يعتذر عن نفسه لنفسه قائلا : « يجب ألا تشغلنا أسماء الملوك العرب فى طليطلة ، لأنها مجهولة لنا تماماً » .

وربما كان الشىء الوحيد الهام الذى أضافته هذه الروايات ، أنها ساعدتنا فى رد اسم الفتاة إلى أصله العربى ، ذلك أن العامة هنا ، ومقامها فى برغش ، والمؤلفات الحديثة التى كتبت عنها ، كلها تعرض لها تحت اسم كسيلدة Casilda ، وهو اسمٌ قلّبتْ كل عوامل التحريف التى يمكن أن تدخل عليه لأردّه إلى أصله العربى فلم أحظ بطائل ؛ ذلك أننى — وأنا أحاول دراسة الاسم — وضعت أمام ناظرى القوانين الصوتية ، من طغيان حرف على آخر ، أو تطوره إلى قريب له فى المخرج مشابه له فى النطق ، ولم أفترض أن فى الكلمة حرفاً زائداً ، فالزيادة حالة شاذة ، لا يحكم بها إلا فى مقام الوثائق الداعمة لهذا الافتراض ، ولكن صاحب إسبانيا المقدسة كفانا مؤنة هذا العناء ،

فأورد لنا إشارة بسيطة ذكر فيها صراحة أن اسم القديسة كسيلدة ورد فى وثائق الكنيسة التى ألغيت ، والله وحده يعلم ماذا كانت تضم أكثر من ذلك ، فى رسم « كسيلة » وهو الاسم العربى الصحيح ، ومعه لا يحتاج إلى بحث ولا يخاف التباس ، فالأميرة العربية تنحدر من أسرة بربرية ، وسنعرف فيما بعد أنها كانت أثيرة لدى أبيها المأمون ، فلم يكن مستبعداً ولا من غير المألوف ، أن يعطيها اسمًا تُعرف به أعزَّ قبائل البربر فى الشمال الإفريقى وأقواها جاهاً ، وحمله أول ثائر منها وأعنفه ، فى أيام الإسلام الأولى ، وطليعة الحضارة العربية تسلك طريقها مجهدة عسرة ، إلى أن تفهَّم البربر المقيمون خصائص العرب الوافدين ؛ فكان التمازج والوحدة ، وكان التعاون على دفع هذه الحضارة إلى ما وراء المضيق .

— ٣ —

خلال القرن التاسع عشر تمت حركة قوية فى إسبانيا ، هدفها تصوير عادات المجتمع فى أدب ، وتسجيل خلائق العامة فى قصص ، وتحويل واقع الحياة النابض إلى كلمات وسطور ، وكانت إسبانيا خلال ذلك القرن ، خلاء من القوة المادية والعسكرية ، تلفُّها سحب كثيفة من الفوضى السياسية والانحلال ، فلم يبق لهم من السلوان غير التاريخ ، يسترجعون أحداثه وأمجادهم ، ويبسطون وقائعه وانتصاراتهم ، لكى ينيروا أمام بنيهم شعاعاً من الأمل المضيء ، ولكنها من ناحية أخرى ، كانت طافحة بفيض من الفنون الشعبية ، كانت قد تلاشت فى بلاد أخرى كثيرة ، وكانت تلك الفنون تتخذ لها لوناً مغايراً فى كل مقاطعة بحكم موقعها الجغرافى ، على البحر أو بعيداً منه ، على قمة جبل أو فى سفح الوادى ، حيث المطر لا ينقطع ، أو حيث الشمس مشرقة حادة طول النهار ، وقد ساعد على تأصل ذلك كله وبقائه ، صعوبة المواصلات بين كل مقاطعة وأخرى ، فكانت إسبانيا أشبه بدول عديدة تديرها حكومة مركزية ، وهو أمر لا يزال ملحوظاً حتى الآن ، على الرغم من القطر والطيران وعابرات الفضاء !

كانت قصة كسيلة من بين المصادر الغنية التى استلهمها كتاب ذلك العصر ، فعرضتها كاتبة إسبانية مقلة ، فى قصة شيقة ، ذات أسلوب ممتاز دافق بالحياة هى : دولوروس غومث دى قادس Dolores Gómez de Cadiz وقد نشرت قصتها للمرة الأولى فى مدريد عام ١٨٦١ ، وقد صورت خلالها واقع الأندلس خلال القرن الحادى عشر تصويراً أخاذاً ، إلا أن مصادرها ، إذا كانت عن الجانب الإسبانى دقيقة وصحيحة ، فقد كانت على جهل تام بالتاريخ العربى للأندلس ، حتى إنها لا تفرق بين طارق وطرفة ، وتجعل الثانى هو الذى دخل طليطلة فاتحاً ، حيث وجد بها مائدة سليمان ، فنقلها إلى قصر الملك فى مراكش ، والحق هو أن طرفة بعد الحملة الاستطلاعية التى قام بها ، لا نلقاه فى أحداث الأندلس مرة أخرى ، وأيضاً فلم تكن حتى ذلك التاريخ قد أنشئت مدينة مراكش وبالتالى فلم يكن بها ملك ، ولم ترسل إليه المائدة ، وإنما حملت فيما حمل من ثروات وغنائم أخرى إلى الخليفة فى دمشق ، كما تقرر كتب التاريخ العربى الخالص ، أو العربى المترجم إلى الإسبانية أو الإسبانى الأصيل ، ولو قد تحاشت المؤلفة مثل هذه الأخطاء ، لاستكملت قصتها كل عناصر الخلود .

بعد ذلك بعام واحد ، أى فى سنة ١٨٦٢ ، عاود نشرها فى مجموعة من الأقاصيص القصيرة ، أحد كبار كتاب ذلك النوع من القصص هو «أنتونيو تروبا» Antonio Trueba ، وكان قد تخصص فى اصطياد الحكايات من أفواه العامة ، فعرضها من جديد فى بساطة وسهولة فى كتابه « حكايات شعبية » . Cuentos «

populares استجمع فيها عناصر الأقصوصة دون أن يجمح به الخيال أو يخرج بها عما يحكيه عامة الناس .

وأخيراً فإن كاتبة معاصرة ، تخصصت فيما تعورف عليه بين الأدباء الإسبان « بأدب العادات » هي « كونتشا إسبينا » Concha Espina أديبة ذات شهرة عالمية ، وعديد من رواياتها وقصصها مترجم إلى أكثر من لغة ، أرادت ، وقد تقدمت بها السن ، أن تختم حياتها الأدبية بقصة عن « القديسة كسيلة نشرت طبعتها الأولى في مدريد عام ١٩٤٠ ، وإذا كان أسلوبها أقل بهجة ورونقاً من زميلتها الأولى ، إلا أنها كانت أوسع منها ثقافة ، فجاء رسمها للأحداث المنتزعة من التاريخ صحيحاً ودقيقاً .

ذلك تطور الأقصوصة وتلك أحداثها في عالم الإسبانية ، فلنحاول نحن من جانبنا أن نعطي لها جواً تاريخياً مبسّطاً ، يعين على تفهّم مغزاها وأحداثها .

— ٤ —

لم يكد المنصور العظيم يلفظ أنفاسه بعيداً عن العاصمة قرطبة ، عام ١٠٠٢ في مدينة سالم في الشمال الشرقي لإسبانيا ، عائداً من إحدى حملاته الحربية ، حتى بدا الصرح العظيم الذي أقامه : دولة متحدة قوية ، يتعرض لهزات عنيفة ، لم يكن بد من أن تؤدي إلى نتائجها ، فانهار صرح الخلافة وانتثر عقدها ، وتمزقت الدولة العربية في الأندلس إرْباً ، توزعتها المطامع ، وتقسّمتها الفتن ، فقام في كل ركن منها أمير ، ونشأت في كل كورة منها دولة ، وكانت في مجموعها أمة عظيمة ودول ضعيفة ، وقد ورثت هذه الدويلات مجداً من الثقافة والقوة ، أخذت تبدده في سرف وحمق ، وكان ملوكها ، وما أكثرهم ، وأتفههم ، نشوى من الترف والبذخ والثراء ، يتقاتلون فيما بينهم ويتصارعون على الحقير من جاه الحياة ، ويستعينون على تحطيم بعضهم بعضاً بأعدائهم من ملوك الشمال ، يدفعون لهم الجزية أحياناً ، ويتلقّون منهم المدد أحياناً أخرى ، يقاتلون به أشقاءهم في الوطن والدم والجنس ، وكانت أذكى سياسة اتّبعها ملوك الشمال الإسباني المسيحيون لتحطيم الدولة العربية ، هي أن يضربوا العرب بعضهم ببعض ، إذ تصالحوا حركوا بينهم روح الفتنة ، وإذا تقاتلوا أذكوا بينهم نار الحقد ، وإذا ضعف منهم واحد أجهزوا عليه واستولوا على ملكه .

كانت هذه الدويلات كثيرة ، وقائمة في كل ركن من الأندلس ، في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة ومالقة ومرسية ودانيه وشاطبة وبطليوس وغيرها ، وبين هذا السيل من الدول كانت طليطلة أوسعها في الرقعة ، وأنبلها في التاريخ ، وأقواها إذا قيست الدول بتعداد السكان وأعداد الجنود ، وأهمية موقعها الحربي .

كانت طليطلة من نصيب بني ذي النون ، قبيلة من هوارة ، وكان أقوى ملوكها الأمير يحيى بن إسماعيل ، وقد حكم بين عامي ١٠٤٣ و ١٠٧٥ ، متخذاً لنفسه لقب المأمون ، على عادة الصغار من ملوك ذلك الزمان ، وقد اتّسعت مملكة طليطلة في عهده حتى وصلت إلى حدود بلنسيه ، وأضحت من أعظم دول الطوائف الإسبانية رقعة وموارد ، ولكن المأمون جرياً على سنن رفاقه ، كان على أشد النزاع مع ابن هود صاحب سرقسطة ، وابن عبّاد أمير إشبيلية ، وقد ارتضى لنفسه ولخلقه أن يستعين عليهما بألدّ عدو لهم جميعاً في الشمال ، فعقد أواصر الود مع فرناندو الأول ملك قشتاله ، وأقر بسيادته ، بل تعهد بأن يدفع له الجزية ، وقد ساعده فعلا ضد رفيقيه في المنبت والوطن والدين ، ولكنه فعل ذلك ريثما يضعفون جميعاً . ومن ثم فلم يكد يستشعر ضعف المأمون ، حتى بدا هو نفسه يغير على طليطلة ويضيّق عليها الحصار ،

ولكن الأجل لم يمتد به طويلا ليستولى عليها .

ولكن طليطلة أيضاً لم يدم بها الزمن لتبقى عربية ، وإنما سقطت بعد ذلك بقليل ، ولسقوطها قصة لا بأس أن تروى ، ففيها عبرة وعظة ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، ذلك أن ألفونسو السادس كان على خلاف مع أخيه ملك قشتالة ، فالتجأ إلى بلاط المأمون فى طليطلة ، فأكرمه هذا وأمن إليه ، وتقول الرواية العربية إن ذلك الإسبانى اللاجئ كان ذات يوم يجلس فى حديقة قصر الأمير المطلة على نهر تاجه ، وعلى قرب منه بعض من قواد المأمون يتربضون ملء إهابهم الشباب والزهو والقوة ، فقال قائل منهم ، وقد سرح ببصره إلى الفضاء يستطلع الماضى ويتأمل الحاضر ، ما أروعها من مدينة محصنة ! . . . الجبل والنهر ، إنها أمنع من أن يقتحم أبوابها جيش غاز ، ولو كان جنده مردة الجن ، ولكن آفتها أنها لا تثبت أمام أى حصار طويلا ! . . .

سمع ألفونسو الدرس جيداً ووعاه ناصحاً .

ودارت عجلة الزمن سريعاً ، ومات أخوه ، وسنحت له الفرصة ليعود إلى المطالبة بحقه فى العرش من جديد ، وتضيف الرواية أيضاً ، أن المأمون ، بعد فوات الأوان ، أدرك الخطر الماحق الذى يمثل ذلك الأمير الإسبانى لو عاد إلى وطنه ، لقد عرف كل خبايا الدولة وخططها ، ولكنه أفلت قبل أن يقبض عليه ، وهناك فى قشتالة خاصم وزاحم وقاتل ، ثم أصبح أميراً ، وبعد أعوام استقر له الأمر ، ودانت له الدولة ، فقرر أن يضع نظرية القواد العرب موضع التنفيذ ! . . .

لقد حاصر طليطلة حصاراً عنيفاً ، كان يهجم على مزارعها فيحرقها ، ويتربص برجالها فيقتلهم ، ويتصيد حيواناتهم فيستولى عليها ، ولم تقاوم المدينة طويلا ، فثار سكانها ؛ وما أكثر ما كانت تثور طليطلة ! ولم يكن أمام أميرها القادر ، وكان ضعيفاً عاجزاً ، ما يفكر فيه غير الاستسلام .

وقد كان ! . . .

وسقطت طليطلة عام ١٠٨٥ بلا طلقة واحدة ، ومع أنها لم تكن أول مدينة إسبانية عربية تسقط فى يد المسيحيين من ملوك الشمال ، ولم يكن سقوطها نتيجة انتصار حربى ، أو عقب معركة هزم فيها العرب ، إلا أنه أحدث دوياً هائلا داخل إسبانيا وعبر حدودها ، وأحدث موجة من التشاؤم القانط الحزين ، يعبر عنها ابن الغسال الشاعر فى أبيات قليلة يحفظها لنا التاريخ :

يا أهل أندلس حثُّوا مطيَّكمُ
فما المقام بها إلا من الغَلَط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدوٍّ لا يفارقنا ؛
كيف الحياة مع الحيَّات فى سَفَط !

* * *

ذلك جوُّ القصة ، وتلك هى مقدماتها . والآن فلنعرض للقصة نفسها ، الجوهر والخطوط العامة ، ذلك أن التفاصيل ترتدى فى كل مقاطعة ثوباً ، وتكتسى فى كل عصر لوناً ، وتعكس ثقافة الحاكى والمستمع على السواء .

(للكلام صلة)

التنبؤ بالعواصف والأنواء

من تسجيلات أمواج البحر وهزات القشرة الأرضية

بقلم الدكتور محمد جمال الدين الفندى

لعل أكثر الناس خبرة بالبحر وأمواجه هم أهل السواحل والبحارة الذين يقضون أغلب حياتهم فى السفن إلا أن القليل منهم جداً ، هم الذين يحاولون فهم لغة الموج فهماً علمياً سليما . ومهما يكن من شىء فإن علماء الرياضة هم أقرب الفئات فهماً للموج وأكثرهم استعداداً للتعبير عنه ، لأنهم يبادرون إلى صوغه فى قالب المعادلات الرياضية ، إلا أننا للأسف الشديد نجد فرقاً شاسعاً واختلافاً كبيراً بين ماقد يسوقه لنا الرياضيون من نظريات وما ترصده السفن والمحيطات وتجمعه من مشاهدات مما لم يصل العلم بعدُ إلى إدراك كُنهه وتفسيره !

ولقد أدَّت الحاجة الماسَّة إلى جمع معلومات سليمة عن سطح البحر ، إبان الحرب العالمية الثانية إلى صنع الأجهزة الدقيقة التى تسجِّل أمواج البحر من حيث أطوالها وسعاتها وأزمانها ، من أجل إجراء البحوث فى هذا الصدد . وبذلك أمكن الحصول على نتائج لها قيمتها النظرية والتطبيقية . ولقد أصبح من اليسير الآن أن تسجَّل الأمواج بواسطة أجهزة تثبَّت فى عرض البحر على بعد ميل أو أكثر من الشاطئ .

ومن الجائز أن يقول قائل — من وجهة نظر ديناميكا الموائع — : إن أفواج الموج التى تقبل من الأجزاء المختلفة للعاصفة الواحدة ؛ أو حتى تلك التى تقبل من العواصف المتباينة ، إنما تنطلق حرة طليقة بحيث تحتفظ كل مجموعة منها بصفاتها أو خواصها المميَّزة . ومعنى ذلك أنه فى مقدورنا أن نجد لكل عاصفة تجتاح البحر حزمها الموجية الخاصة بين أفواج الموج وخليطه مما يفد على أى نقطة على الشاطئ تقع على مسار هذه الأفواج .

وعند ما نحصل على تسجيلات مستمرة للموج نستطيع أن نفرق بين الأمواج العادية والأمواج الطويلة التى تقبل من أى عاصفة بعيدة على البحر . واستخدم العلماء لإنجاز ذلك طرقاً شتى من وسائل الإحصاء والتحليل الرياضى ، انصبَّ أغلبها على تعيين توزيعات التردد والزمن الموجى للتسجيلات المتتالية ، وهذا الأخير هو الزمن الذى يمضى بين أوج أو حضيض موجتين متتاليتين . وصادف العلماء صعاباً كثيرة فى هذا العمل ، نظراً لأن الأمواج التى ترسلها العواصف عن بعد تضيع معالمها تحت تأثير أمواج البحر القصيرة ، ولذلك عمدوا إلى محاولة الفصل بين أفواج الموج المختلفة من أجل الحصول على تفصيلات أقرب للفهم ، وتوضيحات أسهل فى التطبيق ، واستخدموا فى سبيل ذلك آلات دقيقة تقيس سعة كل موجة من الأمواج التى تمر بجهاز التسجيل .

وعندما استخدمت هذه الأجهزة فى السنين الأخيرة أمكن الحصول على ما قد نسميه « طيف الموج » على الشاطئ ، وهو يضاهى إلى حدٍّ ما طيف أمواج

الأثير التى ترسلها الشمس وتصل إلى الأرض . وبمضاهاة هـذا الطيف مع ما قد يسجله رجال الرصد الجوى من معلومات فى عرض البحر ، وجد أن هناك توافقاً بديعاً بين ظواهر الجو ، وما يدل عليه الطيف .

فقد ثبت مثلا أن الأمواج الطويلة التى ترسلها الأعاصير المختلفة من عرض البحر أو المحيط ، تتوقف النهايات العظمى لأطوال أمواجها على سرعة الرياح فى تلك العواصف . وعندما قورنت الأزمنة المقيسة التى بدأت عندها أفواج كل موجة معينة فى الخروج لتصل إلى نقطة الرصد مع الأزمنة المقدرة من خرائط الطقس، التى بدأت عندها تلك الأمواج فى الانطلاق ، ثم الأزمنة التى انتهت عندها عمليات تولد تلك الأفواج فى العاصفة ، وجد أن أفواج الموج التى تنساب فى اتجاه بالذات ، إنمـا تنطلق حرة بسرعة تتفق مع أزمنتها الموجية . وفى العادة تبلغ سرعة (المجموعة) فى المياه العميقة نصف قيمة السرعة التى يمكن أن تنطلق بها موجة منفردة خلال مسافة محدودة . ويرجع السبب الرئيسى فى هبوط قيمة السرعة إلى النصف على هذا النحو ، إلى أن الطاقة التى تنطلق فعلا مع (المجموعة) هى نصف الطـاقة الموجية . ولهذا السبب نفسه نجد أن جبهة أفواج الموج إنما تتلاشى تدريجياً باستمرار الزمن والتقدم بمضى الوقت ، بينما تتولد جبهة جديدة ، وهكذا تستمر هذه العملية ...

وتتناسب سرعة المجموعة مع زمن الموجة ، وهى عندما تقدر بالعقدة تبلغ قيمتها فى المياه العميقة ثلث زمن الموجة محسوباً بالثوانى . وهذا هو السر فى أن الأمواج الطويلة التى تتولد عندما تبلغ العاصفة أوجها يمكنها أن تلحق بالأمواج القصيرة التى سبق انبثاقها من العاصفة فى مراحل تكوينها الأولى : ويتم ذلك على مسافات متباينة من العاصفة . وبطبيعة الحال كلما كبرت هذه المسافات توفرت فرصة الفصل بين النوعين من أفواج الموج :

وإذن فأول ما يستدل به على وجود الأمواج الطويلة فى طيف الموج الذى يرصد على مسافة كبيرة من العاصفة ، هو ظهور حزمة ضيقة من هذه الأمواج ناحية الأمواج الطويلة من الطيف . وباستمرار عملية الرصد نجد أن هذه الحزمة تزاح تدريجياً تجاه الأمواج القصيرة كما يزداد عرضها أو اتساعها فى نفس الوقت . وبمعرفة سرعة المجموعة والأزمنة المقيسة التى ينتهى عندها ورود أفواج الموج المتتابعة يمكن تحديد المنطقة التى تولدت عليها هذه الأفواج أو التى انبثقت منها . وهكذا يمكن تتبع خط سير العواصف والأعاصير فى عرض البحر أو المحيط ، وخاصة حين يتعذر جمع الأرصاد الجوية بواسطة السفن .

ولقد نجحت هذه الطريقة فى السنين الأخيرة وأتت بنتائج باهرة كان لها أكبر الأثر فى سلامة كثير من العمليات الملاحية وصيد الأسماك ونحوها من أوجه النشاط التى تتوقف على طبيعة سطح البحر وأمواجه وأنوائه . وأتاحت الدقة العظمى التى استخدمت فى تتبع فوج من الموج فى هذه الأيام ، ومن ثم التعرف على مواطن الاضطراب الجوى ، فرصة استخدام أمواج الساحل فى دراسة نظرية هامة تتعلق بأسباب وطرق تولد موج البحر . ونحن عندما نعتبر أكبر سرعة وصلت إليها الرياح فى أشد أجزاء العاصفة عنفاً هى س عقدة ، نجد أن أزمنة أفواج الموج التى ترسلها العاصفة آنئذ هى على وجه التقريب ثلث س ثانية . ومعنى ذلك أن عمليات رصد أطوال الموج، يمكن أن تعين فى تحديد أكبر سرعة تصل إليها الرياح فى الأعاصير التى تجتاح البحار . وبالمثـل يمكن أن نستخدم النقص التدريجى الذى نلاحظه فى الزمن الموجى المرصود فى طيف الموج فى عمليات حساب بعد العاصفة .

وعلى الرغم من أن المعلومات الجوية التي نستقيها عن طريق موج البحر لا تكون عادة حديثة بالنسبة للجو نفسه ؛ إلا أنها تكون ولا شك عظيمة الفائدة من حيث التنبؤ بحالة البحر وانتشار الأمواج . فمثلا نجد أن ملاحظة الموج الطويل الذى قد لا يزيد طوله على عدة بوصات يمكن أن تستخدم كدلالة على قرب هياج البحر أو قرب انتشار الأنواء العالية ، التي تقبل بعد ذلك خلال مدة تختلف من عدة ساعات إلى ٢٤ ساعة . ومثل هذا التنبؤ له قيمته العظمى فى كافة العمليات البحرية ، وخاصة الدقيقة منها .

أما من حيث هزات القشرة الأرضية الصغيرة ، تلك الهزات التي لا نحس بها ، ولكن تسجلها من يوم لآخر أجهزة الرصد الدقيقة ، فقد أتاحت لنا طرق تحليلها فرصة استخدام هذه الهزات فى الكشف عن معالم العواصف الجوية النائية ، ومواطن تولدها على البحار تماماً كما تستخدم أمواج للبحر فى هذا الصدد

ولقد كان المفهوم خلال فترة طويلة من الزمن أن هزات الأرض التي تتراوح أزمنة ذبذباتها بين ٣ ، ١٠ من الثوانى ، والتى يتغير مدى السعة فيها من يوم إلى آخر على خرائط أجهزة التسجيل الموجودة بالمراصد — كمرصد حلوان مثلا — لها صلات وثيقة بالعواصف التى تجتاح البحار المجاورة . وغالباً ما لجأت بعض المراصد إلى استخدام ازدياد نشاط هذه الهزات الصغيرة جدا وظهورها بوفرة ملحوظة على خرائط التسجيل فى بعض الأحيان كدليل على اقتراب العواصف .

ولقد عمد العلماء أول الأمر فى تفسير هذه الهزات إلى إلصاقها بأفواج الموج التى تنطلق من العاصفة عندما ترتطم بالسواحل ، خصوصاً السواحل الصخرية العظيمة الانحدار . وباستمرار عمليات الرصد الدقيق اتضح بعد مضى فترة من الزمان أن أغلب تلك الهزات التى تنتاب القشرة الأرضية إنما يتم تسجيلها قبل أن تظهر آثار العواصف قرب الشواطئ المجاورة بساعات عديدة ، وكما هو الحال فى خليج البنغال مثلا . ونجم عن هذه الحقيقة أن نبتت فكرة جديدة فحواها أن تلك الهزات هى من الظواهر التى تلازم مياه الأعماق ، وأنها تنتقل عبر قاع البحر .

وعندما درست تلك الاهتزازات على طول شواطئ الولايات المتحدة الممتدة على الخليج الأطلسى تبين أنه يمكن أن تصل إلى الأوج ثم تنمحى آثارها تدريجيا قبل أن تدرك العاصفة الشاطئ . وعملت محاولات لتعيين الاتجاه الذى تقبل منه الهزات الموجية فى كل مرة . ومن هذه الطرق قياس الفرق فى الزمن بين لحظة وصول موجة واضحة إلى ثلاث محطات تبعد كل محطة منها عن الأخرى عدة أميال . وكللت هذه الأعمال كلها بنجاح باهر ، مما حمل العلماء على تكوين شبكة من محطات الرصد الثلاثية هذه من أجل تتبع الأعاصير والأنواء كالتورنادو والهاريكين ونحوها .

وعندما جمعت النتائج وقورنت ببعضها البعض أمكن الجزم بأن أغلب هزات القشرة الصغيرة ؛ إنما تنجم عن العواصف التى تجتاح مناطق المياه العميقة من البحار ، كما تهيئ لنا عمليات تسجيل هذه الذبذبات وتحليلها طريقة مثلى لتتبع الأعاصير والأنواء والتنبؤ بها . وأصبح من اليسير تحديد مناطق الأعاصير الشديدة عندما تتواجد على بعد نحو ألف ميل من محطات الرصد الثلاثية .

وقد دلت الأرصاد والتسجيلات التى جمعت فى أوروبا على أن أغلب هذه الذبذبات الصغيرة إنما تحدث بالقرب من الشواطئ . وعمد العلماء إلى استنباط طريقة لتحليل أفواجها التى تتجمع من آن لآخر على خرائط التسجيل ، وذلك باستخدام وسائل تشابه وسائل تحليل أفواج موج البحر الذى سبق ذكره ، وفصل

الذبذبات الصغيرة التى تقبل عن بعد عن غيرها من الذبذبات ذات السعـات الكبيرة التى تتولد قرب الشاطئ ، فوجد أن هناك توافقاً ظاهراً بين أزمنة ذبذبات القشرة الأرضية وأزمنة أفواج موج البحر الذى يقبل من العاصفة .

ولقد أدّى هذا الاكتشاف الخطير إلى صوغ نظرية حديثة تفسر لنا كيف تتولد هزات القشرة الأرضية الصغيرة . والحق أنه لم يكن هناك أدنى شك فى أن الطاقة اللازمة لتولد تلك الهزّات الصغيرة إنما تنجم من الطاقات المنبثقـة من الأعاصير فى أعالى البحار والمحيطات . أما الطريقة أو الوسيلة التى تنتقل بها تلك الطاقة إلى قاع البحر ، فإنها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنشاط الموجى الذى تحدثه العاصفة .

ومهما يكن من شىء فإن الثابت علمياً أن انتقال تلك الطاقة لا يمكن أن يتم عن طريق فوج من الموج العادى ، والسبب فى ذلك هو أن ذبذبات الضغط التى تحدث تحت فوج يتقدم فى اتجاه معين تتناقص شدتها تناقصاً سريعاً بازدياد العمق ، بحيث تصبح عديمة الأثر على مسافة لا تزيد كثيراً على طول عدة أمواج ، وكذلك لأن أطوال موج البحر تكون عادة صغيرة بالنسبة لأطوال هزات القشرة الأرضية . وعلى ذلك تصير ذبذبات الضغط تحت أفواج هذا الموج عديمة الأثر . ولا تختلف طرق انتقال الطاقات من موج البحر إلى الشاطئ الصخرى عن طرق انتقالها إلى القاع فى شىء .

ولقدتضمَّن صوغ النظرية الحديثة هذه الاعتبارات كلها ، فأرجعت هزات القشرة الأرضية أو ذبذباتها التى تتراوح أزمنتها بين ٣ ، ١٠ من الثوانى إلى تغيرات الضغط الكبيرة نسبياً التى تحدثها الأمواج الواقعة ، وهى الأمواج التى تتولد عن طريق عمليات التداخل بين فوجين من الموج يسيران فى اتجاهين متضادين . ولقد ثبت أنه تحت مثل هذه الأمواج الموقوفة تتولد تغيرات ثانوية فى الضغط ، ذبذباتها ضعف ذبذبات الموج الأصلى ، ولا ينمحى أثرها بسهولة على أبعاد كبيرة . والأصل فى ذبذبات الضغط هنا هو ما ينشأ من تغيرات فى كمية الحركة للماء فى الاتجاه الرأسى . وهى التى تعطى ذبذبات الضغط الواقع على قاع البحر .

وقد يقول قائل إنه لا يمكن أن تتولد هذه الأمواج تماما فى البحر ، إنه ليس من شك أن أمر تولدها لا يختلف كثيراً عن أمر تولد الأمواج الشبيهة بهذه الصورة المثالية ، ذلك الأمر الذى لا يتطلب أكثر من تلاقى فوجين من الموج الذى تتساوى فيه الأزمنـة الموجبة والذى يكون منطلقاً فى اتجاهين متضادين . وهـذا هو عين ما يحدث فى حالات الانخفاضات الجوية التى تتحرك بسرعة ، أو فى حالات أفواج الموج المرتد من الشواطئ عظيمة الانحدار .

وتتوقف سعة موجة التضاغط عند القاع على حاصل ضرب ارتفاع الفوجين اللذين تتولد عنهما أمواج التضاغط هذه . وقد وجد أن هذه السعة تكفى فى أغلب الحالات لتولد هزات فى القشرة الأرضية يمكن رصدها وتسجيلها . وتبين كذلك أن الأثر الذى يحدثه ارتفاع معلوم من الموج يزداد بازدياد عمق المياه ، وذلك بسبب ما يحدث من تجاوب أو توافق كالرنين سواء بسواء .

ولعل أهم ما يسترعى الانتباه فى هذه النظرية هو أن أزمنة هزات القشرة الأرضيـة تصل إلى نصف الأزمنة الموجية ، بمعنى أنه إذا حدث أن انتشرت أفواج من الموج حرة طليقة ، كما هو الحال فى أمواج البحر ، فإنه يمكن تمييز الذبذبات الصغيرة التى تولدها الأفواج التى تختلف فيها الزمن الموجى .

وهكذا استطاع العلماء بعد جهد عن طريق تحليل مثل هذه الهزات من التثبت من صدق هذه

النظرية من الوجهة التطبيقية . ولقد دلت مجموعات الطيف الموجى التى سجلت حديثاً على أفواج متناقصة الشدة من موج البحر ، متوسط أزمنتها الموجية عشر دقائق ، على حين أن دلت تسجيلات اهتزازات القشرة الأرضية فى الوقت نفسه على نشاط متوسط زمنه الموجى ٤,٥ ثانية . وعلى العموم وجد أن الزمن الموجى لهزات القشرة الصلبة المنطلقة من أى عاصفة هو نصف الزمن الموجى لأفواج الموج الناجمة عنها .

ويرى العلماء — بعد ما اكتسبوا من خبرة فى هذا الميدان الجديد — أن المعلومات اللازمة الخاصة بموج البحر وأنوائه وعواصفه يمكن أن تستقى كلها عن طريق تسجيلات هزات القشرة الأرضية فإذا كانت العاصفة قريبة ونشطة فى الوقت نفسه فإنه يمكن تعيين مكانها بسهولة عن طريق تسجيلات محطات الرصد الثلاثية . أما إذا تواجدت ذبذبات ضعيفة مختلطة بأخرى قوية نسبياً فإنه يلزم استخدام طريقة تحليل الطيف الموجى .

وليس من شك أن احتمالات استخدام الهزات الأرضية بغية الحصول على المعلومات اللازمة الخاصة بالأعاصير ومناطق الاضطراب الجوى فى عرض البحر هى احتمالات تبشر بالنجاح العظيم ، خصوصاً وأن هذه الهزات إنما تنتشر خلال القشرة الأرضية بسرعة متوسطها ٢½ من الأميال فى الثانية ، ولذلك فهى تصل قبل أن ترد أمواج البحر المتولدة معها فى العاصفة نفسها التى على بعد ألف ميل مثلا بما لايقل من ٢٤ ساعة . وهذا كسب زمنىّ عظيم له قيمته لدى الملاّحين والصيادين ومن على شاكلتهم .



نقد مسرحية (شقة للإيجار)

بقلم الأستاذ فؤاد دوارة

حينما صدرت مسرحية «شقة للإيجار» للأستاذ فتحى رضوان فى شكل كتاب فى يونيو عام ١٩٥٩ كانت تحمل تجربة جديدة فى لغة الحوار المسرحى، فقد كتب المؤلف أجزاء منه باللغة العامية الدارجة، وأجزاء أخرى بالفصحى المعربة وقال فى مقدمتها :

«يدور أكثر الحوار فى نصف هذه المسرحية باللغة العامية، ويدور باقى الحوار فيها باللغه العربية الفصحى، وأنا مسئول عن الحوار الذى جرى باللغة العربية الفصحى، أما تبعة الحوار باللغة العامية، فتقع على أبطال المسرحية ذاتها».

وقال كذلك كلاماً آخر كثيراً دفاعاً عن استعمال اللغة الفصحى فى المسرح وفى جميع مجالات الحياة، وهو كلام قريب مما تردد بعد ذلك على لسان «الشيخ طولان» فى الفصل الأول من المسرحية فى حديثه مع الفتاة الخليعة «تنهدات» لأنها لم تفهم حديثه باللغة العربية الفصحى.

وحينما كتبت عن المسرحية فى ذلك الوقت لم أستطع أن أؤيد هذه التجربة الجديدة، ورأيت أنها أفقدت الحوار المسرحى وحدة نسيجه وانتظام إيقاعه، وحولت بعض المواقف الجادة إلى مواقف تثير الضحك أو الابتسام فى أحسن تقدير..

وها هى «فرقة المسرح القومى» تقدم مسرحية «شقة للإيجار» بعد أن عدل كاتبها عن تجربته الأولى، وفى ذلك وحده انتصار لحركتنا المسرحية المعاصرة إذ كسبت إيمان كاتب جادٍّ عميق كالأستاذ «فتحى رضوان» بأن اللغة العامية تصلح لغة للحوار المسرحى، بل هى أصلح اللغات للمسرحيات التى تعالج مشكلاتنا المعاصرة.

وقد أدخل المؤلف على المسرحية كذلك تعديلات أخرى وإضافات قربتها من طبيعة العرض المسرحى.. وبقيت مع ذلك عدة أشياء تحتاج إلى تدبر ومناقشة.. فلا شك أن المسرحية على خشبة المسرح شئ آخر مختلف تماماً عنها بين دفتى كتاب.. والمسرحية لا تكتسب حياتها الكاملة، ولا تظهر كل مزاياها وعيوبها إلا بعد تجسيدها على المسرح ونفث الحياة فى شخصياتها وأفكارها..

* * *

فى الفصل الأول نلتقى بحشد كبير من الشخصيات الغريبة المتنافرة.. «زهران» صاحب المنزل الذى ظلت إحدى شققه خالية شهوراً طويلة.. و «عبد المغيث» البواب الشاعر الساخر من كل شئ.. و «تنهدات» الغانية الجميلة التى تريد تأجير الشقة، فيغازلها كل من «زهران» و «عبد المغيث» ثم تنصرف فيتبعها «زهران»، وما يلبث أن يتبعهما «عبد المغيث» أيضاً..

يخرجون تاركين «الشيخ طولان» المصلح الدينى الذى لا يتكلم إلا بالفصحى، والذى يريد تأجير الشقة ليجعلها مقراً لجمعيته الدينية. ويأتى «ممدوح» الشاب المتوتر الأعصاب، ونفهم أن البوليس السياسى يطارده، وأنه يريد تأجير الشقة لهدف ثورى سرى.. ثم يأتى «ماركو» التاجر الأجنبى وتابعه، إنه يريد تأجير الشقة ليستخدمها مخزناً للمواد النادرة ليتاجر بها فى السوق السوداء، ومن حديثه نفهم صلاته الوثيقة المريبة بوزراء ذلك العهد وكبار رجاله.

ويظل «عبد المغيث» البواب حائراً بين هؤلاء المستأجرين، حتى يأتى «عزت بك» الموظف الكبير الثرى، فيندق عليه، ويوافق على قيمة الإيجار المطلوبة دون مناقشة.. فيفوز بالشقة، ونفهم أنه

سيستغلها ثلاثة أو أربعة أيام كل شهر كوكر لملذاته ونزواته .. وينصرف سعيداً بإتمام الصفقة ، فى حين تتقارب الميول والأهواء بين كل من « عبد المغيث » و « الشيخ طولان » و « ممدوح » ، وتتفق عوامل الثورة فى نفوسهم على الأوضاع الفاسدة السائدة فى المجتمع ، ويعرض عليهم « عبد المغيث » الاستفادة من الشقة فى الأيام التى لا يحضر فيها « عزت بك » واتخاذها مقراً لاجتماعاتهم .

* * *

ومن الممكن أن نأخذ هـذا الفصل على أنه prologue أو مقدمة لموضوع المسرحية الذى سيعرض علينا فى الفصول التالية ، وإن كان من الإسراف الواضح أن تستغرق مقدمة المسرحية فصلا كاملا دون أن تتضح الخيوط الأولى للمشكلة الأساسية التى ستعالجها المسرحية ..

وليس باستطاعتنا قبول هذا الفصل على أنه عرض للشخصيات ، فكل الشخصيات التى ظهرت فيه اختفت تماماً من بقية فصول المسرحية باستثناء « عزت » و « عبد المغيث » و « ممدوح » الذى يظهر فى النصف الأخير من الفصل الرابع . وكان فى النص المنشور لا يظهر بالمرة . ويبدو أن المؤلف قد أحس بانقطاع الصلة بين الفصل الأول وبين بقية فصول المسرحية ، فجعل « سامى » الشاب الذى يهـوى « اعتدال » ويرغب فى الاقتران بها هو نفسه « ممدوح » الشاب الوطنى الثائر .. ولكن هذا التعديل لم ينجح وحده فى ربط الفصل الأول ببقية المسرحية فى وحدة فنيّة متماسكة البنيان .

إن المبرّر الوحيد المقبول لوجود هذا الفصل فى المسرحية هو أنه يقدم صورة لمجتمعنا المنهار قبيل الثورة وللتيارات والاتجاهات المختلفة التى كانت تتجاذب أفراد هذا المجتمع . ولكن أما كان من الأفضل عرض هذه الصورة من داخل المشكلة التى تعالجها المسرحية ومن خلال نسيجها الدرامى المتماسك ؟ . أعتقد أن ذلك كان ممكناً وقد وفق الكاتب فيه توفيقاً لا يستهان به فى الفصول الثلاثة الأخرى .. ولو حذف الفصل الأول ، وأدمجت الحقائق والصور التى قدمت فيه فى بقية الفصول لكان ذلك أدعى إلى نجاح المسرحية ، وتحقيقها لأهدافهـا . ولكن حالت دون ذلك رغبة الكاتب فى الرمز بالشقة الخالية إلى مصر الحائرة الباحثة عن قائد واتجاه ..

ولا نستطيع أن نتفق مع القائلين بأن من حق الكاتب المسرحى أن يخرج على تقاليد البناء المسرحى ووحدة الموضوع الذى يعالجه ؛ ليقدم لنا استعراضاً للمجتمع الذى يصوره ، ويخدم الفكرة التى يعرضها .. قد نقبل هذا الخروج على التقاليد المسرحية إذا استطاع الكاتب أن يقدم لنا شكلا جديداً متكاملا للمسرحية ، ولكن أن يخرج على هذه التقاليد فى أحد الفصول ، ثم يعود ليعالج بقية الفصول داخل الإطار التقليدى فذلك ما ينبغى على النقاد أن يناقشوه ، ويشيروا إليه ، بدلا من أن يبتكروا له أسماء جديدة لم يسمع بها أحد من قبل ..

وشىء آخر .. إن كبار كتاب المسرح فى أوربا وأمريكا ممن يضرب بهم المثل على الخروج على تقاليد المسرح المتوارثة ، هؤلاء الكتاب لم يستطيعوا أن يحققوا ذلك إلا بعد أن استنفدوا أساليب المسرح التقليدى ، ووقفوا على قمة تطوّر طويل من الأعمال المسرحية الناضجة ، فأصبح من حقهم أن يخرجوا على تقاليد عرفوها جيداً وهضموها تماماً .. وهم فى خروجهم يتعرضون على كل حال إلى هجوم كثير من النقاد وما زالت أعمالهم تؤخذ بشكل عام على أنها تجارب لم تستقر لها بعد تقاليد فنية مقبولة .

أما بالنسبة إلينا ، ونحن الذين لم نكد نعرف أصول الكتابة للمسرح ، ولا نستطيع أن نزعم أننا استوعبنا تراث الإنسانية فى المسرح بحيث نستطيع أن نقف على آخر تطوراته .. أعتقد أنه ليس من السهل بالنسبة لكاتب مسرحى عربى ، أن يزعم أنه قادر فى هذه المرحلة

من مراحل تطورنا على خلق شكل جديد للمسرحية .. على أن هذا ليس غلقاً لأبواب التجديد والابتكار ، وإنما هو طبيعة التطور الفنى ومقتضياته ، ولن يستطيع الخروج عليها ! إلا عبقرى فذ ، فالعبقريات تحطم كل القواعد والقوانين ، ولا أعتقد أن أحداً ممن يكتبون لمسرحنا قد بلغ هذه المرتبة بعد !

* * *

تبدأ مسرحية «شقة الإيجار» الحقيقية من الفصل الثانى فنرى «عزت» يفيق من عربدته ليواجه حياته كلها .. إن مأساة الفتاة الساقطة « اعتدال » تهزه من أعماقه ، وتوقظه من غفوته الطويلة . . لقد كانت فتاة شريفة كسائر الفتيات ، كابنته وبقية الناس الشرفاء . . ولكن أباها مات وهى طالبة فى التوجيهية ، وأصبح عليها أن تواجه مسئوليات أسرتها ، وتحقق أمنية أمها فى سترها فى الحياة والمات . . ولا تجد « اعتدال » وسيلة شريفة لكسب الرزق فى هذا المجتمع المنحل المتعفن ، فتضطر إلى السقوط ، والسرقة لتشترى لأمها الكفن . .

ويحاول « عزت » أن يغرق ضميره فى كئوس الخمر المتلاحقة ، ولكنه ما إن يفيق حتى يتذكر تلك المأساة الدامية ، ولا يستطيع إلا أن يعتبر نفسه أحد المسئولين عنها . . إنه يقضى حياته فى لهو لا ينقضى ، ولا يقدم لمجتمعه أى عمل نافع . . ويحاول أن يرضى ضميره عن طريق منحة مالية كبيرة يهبها « لاعتدال » . . ولكنها تثور وترفض إحسانه ، وتواجهه بحقيقته وبحقيقة تصرفاته فتزيد أزمته إحتداماً . .

وفى اللحظة نفسها التى يستيقظ فيها ضمير «عزت» يهاجم البوليس السياسى الشقة ، ويعثر على منشورات ثورية وآلة « رونيو » . . ويقبض على « عزت » بتهمة الاشتراك فى جمعية سياسية سرية تعمل على قلب نظام الحكم .

ويعجب « عزت » بالتهمة الخطيرة ، وهو الذى بدأ يحس بمدى تفاهة حياته وقذارتها ، ونراه فى الفصل الثالث فى السجن ، وقد زاد احتكاكه بالمسجونين — من أفراد الشعب المضطهدين والمثقفين المشتغلين بالسياسة — من حدة ثورته ، وإحساسه بالمحنة القاسية التى تلف البلاد . . إنه حائر لا يعرف الطريق الذى ينتهجه ، وخاصة بعد أن ثبتت براءته وتقرر الإفراج عنه . . شىء واحد يعزيه ويمنحه بعض الثقة فى الحياة ، ذلك هو الحب البنوى البرىء الذى تمنحه له « اعتدال » بعد أن هجرت حياتها الماضية ، ووجدت عملا شريفاً تعيش منه . . فإذا كان الفصل الرابع وجدنا « عزت » يحاول علاج مشكلته والتكفير عن حياته السلبية الماضية عن طريق تكوين جمعية خيرية تبنى المستشفيات والمدارس . . ولكنه لا يلبث أن يكتشف أن أعضاء الجمعية من كبار الأثرياء ليسوا سوى منافقين مخادعين . .

وماذا يجدى نشاط هذه الجمعية أو غيرها فى مجتمع منهار الأساس مخلخل البنيان ؟ . إن الأمر يحتاج إلى علاج جذرى شامل يقضى على كل الأوضاع الفاسدة ، والظروف القاسية التى تطحن حياة الشعب وتحيلها إلى مأساة . . ويظهر « ممدوح » الذى تحول إلى محرر اقتصادى فى إحدى الصحف ، يكتب ما يطلبون منه كتابته لا ما يريد هو أن يكتبه . . إنه يحس بالمأساة هو الآخر ، ولكنه لا يدرى أين الحل . . إنه يتصور أن زواجه من « اعتدال » قد ينقذه من حيرته وضياعه . . ولكن « إعتدال » ترفض بإصرار ؛ لأنها لا تستطيع أن تنسى ماضيها ، وهى تخشى أن يطاردها عارها ويصم أولادها . . وهى تؤكد لممدوح إنه لا يريد الزواج منها إلا كهرب من الأزمة النفسية التى يعانيها . . ولكنه مهرب مؤقت ، ولن يلبث أن يفيق على حقيقة المأساة التى تلف حياة الشعب كله . . ويحاول ممدوح الانتحار فتطيش رصاصته وتصيب « عزت » ، وتكون هذه الرصاصة بمثابة الشرارة التى تضىء لهم الطريق . . سيهجر « عزت » الجمعية الخيرية وسينشىء جريدة ثورية يكتب فيها « ممدوح » كل ما يرغب فى أن يقوله . . ولن يخافوا من السجن أو التعذيب فى سبيل غايتهم الوطنية الكبرى .

* * *

واضح من هذا التلخيص السريع أن المشكلة التى تعالجها المسرحية جادّة وحيوية إلى أبعد حد ، وقد نجح المؤلف إلى درجة كبيرة فى تصوير طبيعة المأساة التى كانت تلف حياتنا ، ولكنه لم يحقق ذلك عن طريق تتابع الأحداث فى بناء درامى متكامل ، بقدر ما حققه عن طريق العرض السريع الذى أشرنا إليه فى حديثنا عن الفصل الأول ، ثم عن طريق الحوار الخطابى الطويل الذى أنطق به كلاً من « عزت » و « عبد المغيث » و « ممدوح » . والأول منهم بصفة أخص .

لقد بدأت أزمة « عزت » فى الفصل الثانى ، واستمرّت طوال الفصل الثالث حتى بلغت قمتها الأولى وبدا لنا فى أول الفصل الثالث أنها قد انتهت إلى حل سرعان ما يبدو لنا زيفه ، فتعود الأزمة إلى قمتها من جديد ، وقد اتخذت شكلا أكثر موضوعية ووطنية ثم ما تلبث أن تنحدر سريعاً إلى الحل السعيد الذى توصّل إليه بإصدار الجريدة .

ويخيّـــل إلىّ أن اهتمام المؤلف بعرض مأساة « اعتدال » وعلاقتها بممدوح قد أثّر إلى حدّ ما على

وضوح الخط الرئيسى فى المسرحية ، كما أن شغل جانب كبير من الفصل الرابع بعرض فساد الجمعيات الخيرية قد أوقف نموّ الخط الدرامى دون مبرر فنىّ كاف ، لقد تطورت أزمة «عزت» فى الفصل الثالث من أزمة شخصية إلى أزمة عامة ، وكان التطور الطبيعى لهذه الشخصية يقتضى أن نراها فى الفصل الرابع ، وقد نزلت إلى ميدان الكفاح السياسى الفعلى ولا بأس من أن نستمع فى هذه الحالة إلى عبارات فى الحوار تشير إلى فشل محـاولات «عزت» فى ميدان الإصلاح الاجتماعى .

* * *

ومن المفهوم أن تظل شخصيات المسرحية حائرة منسحقة لا تدرى طريق الإصلاح السليم ، فقد كانت تلك طبيعة الغالبيّة العظمى من شخصيّاتنا فى ذلك العهد . شخصيات يعذّبها الإحساس بالظلم والفساد ، وتريد الإصلاح وتتوق إليه ، ولكنها لا تدرى الطريق . أقول : إن هذا مفهوم بالنسبة لشخصيّات المسرحية ، ولكنه غير مفهوم بالنسبة إلى كاتب ناضج الوعى كفتحى رضوان ... فالحلّ الذى انتهت إليه المسرحية بإصدار جريدة وطنيـة ليس إلا جزءاً ضئيلا من الحلّ الضّخم الذى كانت تحتاجه البلاد فى تلك الفترة ... نعم ، إن ذكر الثورة الشاملة قد تردد على ألسنة أبطال المسرحية أكثر من مرة ، وقد تكون الجريدة الوطنيـة الصادقة التى سيصدرها «عزت» إحدى وسائل التمهيد لهذه الثورة ... ولكن السبب الحقيقى لتأزّم أبطال المسرحية ، وفشلهم فى محاولاتهم الإصلاحية ، لم يرد ذكره فى المسرحية كلها ولو بمجرد إشارة عابرة ... فمن الواضح أن الفساد المستشرى الذى كانت تعانى منه بلادنا لم تكن تجدى معه أى جهود فردية . . وكان الأمر يتطلب عملا جماعياً يشترك فيـه كل المخلصين المؤمنين بوطنهم ... ولو وفق «عزت» أو «ممدوح» إلى الارتباط بمثل هذا العمل الجماعى لزال عنه الإحساس بالضياع والتخبط ولكان من المؤكد أن تؤتى جهوده أطيب الثمار .

أنا لا أقول إنه كان من الضرورى أن تنتهى المسرحية إلى هذا الحل العام ، ولكنى أعتقد أنه كان من الأفضل أن يشير إليه المؤلف ولو مجرد إشارة ليوضّح حقيقة المأساة التى طحنت أبطاله ، بل وطحنت الشعب كله .

* * *

لقد تميّزت مسرحيات «فتحى رضوان» السابقة بجو فكرى خالص يغلب على كل مواقفها ومشاهدها ، ويسبغ عليها جوًّا قريباً من الرمزية ، فتبدو لأول وهلة بعيدة عن الواقع ، وإن كانت ترتبط به فى الحقيقة أقوى ارتباط ، وتعالج مشكلاته من زاوية إنسانية عامة عميقة الأغوار ، سامية الأهداف والمرامى .

ويخيل إلى أن هذا النوع من المسرحيات يتلاءم مع مواهب الأستاذ «فتحى رضوان» وتكوينه الفنى أكثر من هـذا اللون الواقعى المباشر الذى تمثله مسرحية «شقة للإيجار» .

ولعل مما يؤيدنى فى هذا الرأى أن أقوى عناصر هذه المسرحية هو حوارها الملىء بالآراء الخصبـة والتّشبيهات القوية الموحية ، وبخاصة فى تلك المواقف التى يناقش فيها الأبطال المبـادئ العامة والأفكار المجرّدة ، وأن من أبرز عيوبها ضعف بناء شخصياتها ، وتطورها بصورة سريعة غير مقنعـة فى كثير من الأحوال . وهذا عيب لا يمكن أن يبرز على هذا النحو فى المسرحيات الذهنية التى تجسد فيها الشخصيات أفكاراً معينة ، أو ترمز إلى جانب من جوانب الصراع ، دون حاجة إلى دقة فى تحديد سماتها الواقعية ، وتكوينها النفسى المقنع ..

* * *

وبذل « نبيل الألفى » جهداً طيباً موفقاً فى فهم النص ، وتنفيذه وبثّ الحركة والحياة فى سطوره .. ورسم الشخصيات رسما مقبولا ، واختار لها الممثلين المناسبين ، واستعان بديكورات بسيطة جميلة ، لم تبدُ متكلّفة أو مبالغاً فيها بصورة تسىء إلى تتبع الجمهور لمسرحية يقوم الحوار فيها بدور البطولة .. واستعمل الموسيقى التصويريّة بإحساس فنى سليم بدت معه كجزء متمم لبعض فقرات الحوار الحاسمة .. ولا آخذ عليه إلا عجزه عن إقناع الممثلين بالبعد عن الأسلوب الخطـابى فى الأداء فى كثير من المواقف ..

ولن آتى بجديد حينما أقول إن كلا من « حسين رياض » و« سناء جميل » و « شفيق نور الدين » قد وفّقوا إلى حد بعيـد فى أداء أدوارهم ، وبخاصة الأخير الذى كان أكثرهم حفظاً وإخلاصاً لدوره .. وبرز « توفيق الدقن » فى أداء دوره الصغير ، وتخلص من مبالغته فى الأداء ،التى أساءت إلى فنه فى أكثر من دور سابق .. أما « محمد الطوخى » فبالرغم من أنه كان مقنعاً فى دور « الشيخ طولان » إلا أننى لم أرتح لأسلوبه فى أدائه ، ربما لأنى أحسست أنه يؤديه بصـورة توحى أن الدور أصغر منه ومن مواهبه ..

ولم يوفّق الممثل الجديد « حسن الشربينى » فى أداء دور « ممدوح » ، فقد بدا متوتّرا منفعلا بصورة مبالغ فيها طوال ظهوره على المسرح ، حتى لقد صعب عليه بعد ذلك أن يؤدى لحظات الانفعال الحقيقيّة بصورة مقنّعة .. بل اضطر إلى مزيد من المبالغة ، دفعت الجمور إلى الضحك فى بعض مواقف الجد العنيف والمأساة .. وإن كان واجب الإنصاف يقتضينا أن نشرك كلاًّ من المؤلف والمخرج فى فشل تنفيذ هذه الشخصية ..

إننا لا نختلف جميعا فى أن مسرحنا العربى على الرغم من مرحلة الانتعاش التى يعاصرها مازال ماضياً فى طريق المحاولات والتجارب .. وفى طريق المحاولات والتجارت لا بد من أخطاء وانحرافات قبل أن نعرف الطريق السوى . ومسرحية [شقة للإيجار] تمثّل خطوة هامة جادة على هذا الطريق .. تؤكد أن كاتبها سيسهم فى تقدمنا المسرحى بخطوات أخرى وخطوات .. وإذا كنا قد أخذنا عليها بعض الملاحظات فيما يتعلق بشكلها وبنائها ، فلا شك أن مضمونها الإنسانى السليم وهدفها الوطنى الجاد ، يغفران لها كثيراً من هذه الملاحظات ..

وبعد ، هل أنا فى حاجة بعد ذلك إلى أن أؤكد أن كاتب هذه المسرحية يحتل من نفسى مكانة الأخ الكبير الذى أعتز بصلتى به وبمتابعتى لكل ما يكتب ؟.

الواقع أنى لم أكن فى حاجة إلى شىء من هذا؛لو أن أخلاقيات النقد الأدبى وقيمه المخلصة الشريفة مازالت تهتزّ فى بعض النفوس بحيث نحتاج دائماً إلى أن نؤكد بين الحين والآخر أن تنـاولنا لعمل أدبى بالنقد الموضوعى المخلص ، لا يمكن أن يؤثّر بحال أو يتأثر بصلاتنا الشخصية وتقديرنا الإنسانى لمؤلفى هذه الأعمال .

نقد الكتب

مع الشعراء المعاصرين

ديوان نار وأصفاد

للأستاذ محمود حسن إسماعيل

١٨٠ صفحة – مكتبة الأنجلو المصرية – شركة فن الطباعة

مرّت الأمة العربية فى النصف الأول من القرن العشرين بفترات عصيبة من النضال المرير والكفاح الطويل فى سبيل مقوّمات الذات وبناء الكيان المستقل. فكانت الانتفاضات والوثبات والثورات وكلها ترمى إلى تحرير الإنسان العربى وتحرير الوطن العربى من ظلمة الجهالات ورقّ العبوديات، ومن ظلم الطغاة وسيطرة العتاة الذين كانوا يتمتّعون بخيرات هذه البلاد دون أن يتيحوا لأبنائها التمتّع بما أفاضه الله عليهم من خير وبركة.

وكان لابد للشعر من أن يصوّر هذه الانتفاضات والوثبات والثورات، وكان لابدّ للشعراء من أن يرتفع صوتهم، وأن يرسموا نبضات الأفئدة وخلجات النفوس الثائرة المنطلقة إلى حياة حرّة كريمة، وإلى مستقبل زاهر أفضل..

وإذا المطابع تقذف كل أسبوع أكثر من ديوان واحد لغير واحد من الشعراء الذين لم يتنكّروا لعروبتهم، ولا للغتهم، ولا لعمود الشعر، فكانوا الصلة الوثقى بين ماضينا وحاضرنا.. وكأنى بهم يرسمون للمستقبل هذه الخطوط الواضحة للجيل الصاعد ليظلّ متمسكاً بلغته، وبقوميته وبعروبته ذات النزعات الإنسانية التى تحمل فى أطوائها بذور الخير للبشرية كلها.

أكتب هذه الخواطر وأمامى أكثر من ديوان واحد لشعراء تخطّوا فجر الشباب إلى زهْو الكهولة. وكأنى بهم قد أخذوا على عاتقهم أن يكونوا امتداداً طيباً لمن سبقهم من الشعراء الكبار الذين جدّدوا رونق الشعر بعد نكسته الطويلة فى عصور الانحطاط – وأن يكونوا امتداداً لتلك النفحات العبقة التى تركها البارودى والكاظمى وإسماعيل صبرى وشوقى وحافظ والمطران، والزهاوى والرصافى وغيرهم وغيرهم من فحول الشعراء الذين حافظوا على رونق الشعر القديم وجزالته، إلى جدة معانيه التى تصوّر الواقع الذى نعيشه فى القرن العشرين.

لقد برز إلى الساحة شعراء حملوا الراية نفسها، وأخذوا يردّدون تلك الأصداء الحلوة العذبة بواقعيّة أدقّ وأساليب أرشق وصور أبدع، وخلجات تلامس أفئدة الأمة العربية فى كل بقعة من بقاعها؛ من محيطها إلى خليجها.

أكثر من ديوان تحتل رفوف مكتبتى لشعراء مطبوعين وقد يكون من الأمانة لتاريخ الأدب المعاصر أن نخصّ هذه الدواوين بكلمات تشير إلى هذه الوهجات التى نبضت بها أفئدة أصحابها.

وأبدأ بديوان « نار وأصفاد » للشاعر محمود حسن إسماعيل، ويرمُز عنوانه إلى النيران المشتعلة فى كل أرض عربية تنزع إلى التحرر، وإلى الأصفاد التى

لا تزال تكبّل بعض الأقطار العربية بالمعاهدات والالتزامات والقيود !

وفى اختيار العنوان دليل على أن الشاعر يُحسُّ إحساس قومه ويريد من هذه النيران المشتعلة أن تحطّم هذه القيود ، وأن تحرق تلك الأصفاد ، لتنعم النفوس المعذبة . بطمأنينتها ، والبلاد المضطهدة بحريتها وبأمنها ورخائها ، ولتصبح خيراتُها وكنوزُها بيد أهلها لا بيد الأغراب الذين استثمروها .

وأمرّ مروراً سريعاً بعناوين القصائد فإذا بى أجد الشاعر قد نضا عنه تلك الأثواب المهلهلة التى لبسها أنداده القدماء . فلا أقع على قصيدة مدح ، ولا أنشودة تزلّف كاذب ، ولا أطياف ملق ونفاق ، ولا على روح ذليلة تستجدى ، ولا دمعة حزن كاذبة على صديق لدود ! . إن القصائد كلها — وقد خلتْ حتى من الإخوانيات — تصوّر واقع الأمة العربية فى ماضيها وحاضرها ، فى نضالها وكفاحها ، تصوّر أمجادها وفتوحاتها الكبرى منذ عهد النبى الكريم محمد « ص » إلى يومنا هذا حيث وقفت تبحث عن « ذاتها » المنطلقة التى أعطتْ الدنيا ثمراتِ هدى وحضارة ما يزال أثرها باقياً إلى الآن .

فحرية الأمة العربية هى الشغل الشاغل لهذا الشاعر الذى جعل ديوانه قصائد فى أربع مراحل .

أما المرحلة الأولى فخصها بنبى الحرية « الذى ألف القلوب على السلام والحب ، وشق فى غياهب الوجود طريق الفجر » — النبى العربى الكريم الذى مس جبينه الخاشع للحجر فارتفع لله ، وظهره المقوس للطغيان فسواه للكرامة ، وبصره الضارع للظلم فأعلاه للحق ، وقيده الصاغر للبطش فأحاله أجراس حرية ، وكان للعرب رسول وحدة وتوحيد .

وهى قصائد تحكى قصة الظلام ، وجنـازة الوثنية ، ومعجزة العنكبوت ، والفارس المندحر ، ونشيد الغار ، والنور المهاجر — وهى هجرة تسطر فى قلب الزمن أسطع برهان على انتصار العقيدة وقوة الإيمان .

سرَى محمّدُ تطوى الشمسَ رايتُهُ
فى موكبٍ قبـل هذا ما سمعناه
يمشى وصاحبُهُ الصدّيقُ وحدهُما
فى مَهْمَهٍ تفـزعُ الأيام لُقياهُ
عقيدةٌ جنّبتْها الإيمان ، يملؤُها
صفواً ، وتمـلأُ بالبشرى حناياه
يمشى . . فتحسبُهُ الأقدار جاريةً
لهـا من الغيب ما للغيب ترضّاه
مُبَشِّرٌ بضُحّى للكون ، ينْقذُهُ
من ظُلْمة ، ليلُها لجّتْ خطاياه
ظُلْمٌ وشِرْكٌ ، وقومٌ عاكفون على
ربٍّ من الصخر مسكينٍ عرفناه
صخرٌ ذليلٌ يعافُ الوحشُ جبرَتَهُ
وذرّةُ الوهم لا ترضى بمثـواه
أنّى إليهم ببحرٍ لا ضفافَ لَهُ
من الضياء ، تروّعُ الشمس ضَحْواه
سرٌّ من الله ، ذاب العقلُ . واند
حرتْ أطوادُه الشمّ فى أعرار معناه

بعد أن يصوغ لنا الشاعر قصة « نبى الحرية » وهى قصة شائقة لا تملُّ ترديدَ نغماتها العذبة يقص لنا قصص « معارك الحرية » : قصة القيد ، قصة الحرية مع الرق ، قصة الكرامة مع التّسلّط والاستبداد ، قصة النار والأصفاد ، الدخان واللهب ، الظلمات والأضواء ، قصة النار المؤججة بالإيمان والحق — قصصها مع الأصفاد الناشبة فى صدر كل عربى حر ، وفوق كل تراب عربى دنسته قدم مستعمر : فى ضفاف النيل ، فى بردى ، فى الفرات ، فى شطآن الخليج ، فى سفوح الأطلس وجبل الجزائر — فى كل أرض أظلتها راية العرب — فى جميع هذه البِقاع نسمع صوت الشاعر يجلجل فلا يعبّر عن « ذات نفسه » بقدر ما يعبّر عن « ذوات نفوس » إخوانه العرب الأحرار الذين تضطرم فى قلوبهم جذوة الثأر :

على الشرق نارٌ وللشرق ثارْ !

* * *

على الشرق نارٌ ستُفْنى الطُّغاه
وتأكلُ من سَدَّ يوماً خُطَاه
ومَن قيَّدُوهُ وصدّوا ضُحَاه

* * *

وللشرق ثارٌ عرفنا مداه
إذا أذَّنتْ للجهاد الصلاه
دفَنّا مع الغاصبين الحياه .

* * *

على الشرق نار وللشرق ثار

ليس فى الديوان كله ، كما قلت ، قصيدةٌ أو مقطوعة ذاتُ أثر شخصى أو نزعة وجدانية — لا شيء إلاّ ما يتصل بوجدان الأمة فى كفاحها ونضالها ، فإذا انتهت أغنياته فى معارك الحرية أطلّتْ علينا قصائده فى « فجر الحرية » ومن قصائد هذه المرحلة : « البعث » ، « طريق الضياء » ، « شجرة الحرية » ، « يوم الخلاص » ، « موكب الوحدة » . وتكاد تكون أكثر هذه القصائد فى ثورة مصر — هذه الثورة التى :

نبتتْ فى كُلِّ صدرٍ نابضٍ
فيه للأوطان جُرْحٌ وأثر

* * *

زأر الصوتُ الذى هزَّ الورى
ومضى للقَيد حُرًّا .. فانكسر !
ومضى للبَغْى فى مَعْقِلِه
فتهاوَى مثل لمحٍ بالبصر
من كفاح النيل .. من أبطاله
ومنَ الروح القوى المدَّخَرْ
أنبتَ الله لمصرٍ دَوْحةً
تسكبُ العِزَّةَ من قلب الثمر

نوَّرتْ حريّةً .. وارتفعتْ
فى سماء النيل شماءَ الزَّهَرْ
أيقظ الشرقُ ضحاها .. فغدا
ركبُهُ للشمسِ وثَّاب السَّفر

الشاعر متفاعل مع الأحداث تهزُّ وجدانه وتثير ضميره فيفيض قلبه بنبرات من الشعر الحار الذى يلامس قلوب قارئيه ، فليوم الخلاص حين رحل آخر جندى من جنود الاحتلال عن أرض القناة قصيدة ، وحين أُممت القناة قصيدة ، وللعدوان على بورسعيد أكثر من قصيدة ، ولموكب الوحدة قصيدة :

من جهة الشمسِ حيّتْكَ المناراتُ
ورفرفتْ لك فوق النيل راياتُ
وأقبل الدهر نشواناً ، براحته
فجرٌ من الخُلْد ، صاغتهُ السماوات
وفى الجبين سُطورٌ ، راح يحملها
لَوْحٌ من النُّور ، خطّته النُبُوّات
دمَشْقُ فيه نشيدٌ ، طالما شجيتْ
به العصور ، وغنته الحضارات

إلى أن يقول :

دار الزمانُ . وعاد النُّور .. تحمله
من العروبة أرواح وراحات
نصرٌ أعادَ إباءَ الشرق .. كم ذهبَتْ
لهُ ضحايا .. وكم غنّتْ جِراحات
ووحدةٌ بارك الأحرارُ سُدَّتها
وظلّلَتْها من الله العنايات
تعانقتْ فى هَوَاها عِزّةٌ ، وجرتْ
على القلوب ، تُغَذّيها الحُشاشات
يجرى بها بَرَدَى والنيلُ ضمّهُما
ركبٌ له من أمانِ الله ضفّات

ويطول بى المدى لو رحت أقف عند كل

قصيدة ، فبعد أن سجّل معارك الحرية التى خاضتها الأمة العربية ، وبعد أن وصف شروق فجر الحرية خصّ المرحلة الرابعة بـ «أغانى الحرية» وهى أغنيات حلوة عذبة تنبع من نفس صافية يختتمها الشاعر بهذه الأنشودة التى تردّدها الملايين من أبناء العرب

وفّق الله على النُّور خطانا
والتقتْ فى موكب النصر يدانا

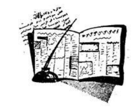
وأكثر قصائد الديوان ، بل كلها أغنيات حزينة ، حلوة تقصّ قصة كفاح الأمة العربية عبر العصور ، ولا سيا فى النّصف الأول من القرن العشرين — قصة النار والأصفاد التى يلخّصها الشاعر بنشيده الحارّ الذى تنبض كل كلمة من كلماته بالألم والنّشوة . ثم بالعزة والكرامة :

ولمّا تشاكى القيدُ حوْلى ، وأعولتْ
من الرّق أيّامى ، وضجّت سلاسلى
وأخرسَ جلاّدُ الطغـاة قيـاثرى
وشـلّ حـديدُ المستبدِّ أناملى
ودوّخ أرضى ظالمٌ .. فحصّادُها
بكفّيه ، أحزانُ الربىَ والجداولِ
ولجت حَوَالىَّ الحياةُ .. فدمعةٌ
تقول لأخرى : ذاب فى التّيه ساحلى .
وحرٌّ على القُضبان غنّى عذابُهُ
وآخرُ .. حُرٌّ فى قيودِ المجاهلِ
ومزّقَ أقدامى غريبٌ .. فأصبحُوا
وهم غُربةٌ تشقى بحُزنِ المنازلِ
وأطرق غالى من ذُهول . وأوغلتْ
أفاعى الأسىَ .. ترمى بسُمِّ المقاتلِ
تلفّتُ .. فانساب الدُّجى من مزاهرى
مزاميرَ ليلٍ .. عن خُطَا الفجر غافلِ
تلفّتُ .. وانشقّتْ من الليل ثورةٌ
وفجرٌ بكفّيها جـديد المشـاعلِ
وبشرى أذانٍ مرَّ بالليل صَحْوُهُ
كما مرَّ بالأعواد حـدٌّ المناجلِ
يوحّدُ أيام العروبة زَحْمُـهُ
ويسحق من أوطانها كُلَّ واغلِ ..
فقلتُ لنارى .. أذَّن الفجرُ .. فارتعى
وشُدّى على الأصفاد شـدَّ المقاتلِ
وما مرَّ عُمرُ الطّيف .. حتى ترنحتْ
وذابت قيودى من عميق المفـاصلِ
فكبرتُ .. جل الله ! .. عادت حقيقتى
ورنّتْ أناشيدى .. وغنّت بلابلى !

إن الشاعر الذى عاش مع الأحـداث ، ورأى فجر الثورة ، ورأى فجر انطلاقة العرب الكبرى — من حقه بعد ما مرّ عمر الطّيف أن يترنحّ . وأن ترنّ أناشيده وتغنّى بلابله ..

وأناشيده فى ديوان «نار وأصفاد» هى غير أناشيده فى ديوانيه «أغانى الكوخ» و «هكذا أغنى»

من أغان رومانتيكية تتحدث عن الحب والطهر والأحلام إلى أغان تنبثق حكماتها من الوهج والشرر وضرام النيران — نيران الثورات التى أضرمها العرب فى وجوه المستعمرين



الحياة الثقافية فى شهر

منبر ثقافى جديد

فى الشهر الماضى ظفرت الثقافة الجادّة بإقامة منبر جديد ليتعاون مع منابر الثقافة فى هذا البلد على السير بالثقافة قُدُماً . هــذا المنبر هو مجلة « الكاتب » التى ظهر العدد الأول منها فى شهر أبريل الماضى ، ويتولى رياسة مجلس إدارتها السيد صلاح سالم ، ويرأس تحريرها الأستاذ أحمــد حمروش ويقوم بسكرتيرية التحرير الأستاذ رأفت الخيّاط ؛ تعاونهم طائفة من خيرة الكتّاب .

ولقد هدف القائمون بأمر مجلة « الكاتب » إلى توكيد ثقافتنا القومية وإبراز دورها الإيجابى فى بناء أمّتنا وفى بناء العالم ، حين وجدوا أن من الأخطاء التى تهدد ثقافتنا تمييعَ شخصيتنا وإذابة حضارتنا القومية فى تيّارات أجنبيــة ، بهرجها عارض ، وعُجمتها واضحة ؛ بحجة تخلّفنا الثقافى .

وهدفوا — كذلك — إلى توحيد الثقافة الإنسانية ووحدة الضمير الإنسانى بالأخذ والعطاء ، حين وجدوا أن من الأخطاء التى تهدد ثقافتنا عزْلَنا عن تيارات الفكر العالمى باسم « الاكتفاء الذاتى » .

ثم رأوا أن توكيد تكامل المعرفة الإنسانية والقيم الإنسانيــة هو السبيل إلى دفع خطر آخر يهدّد ثقافتنا ، وهذا الخطر كامنٌ فى تفتيت الثقافة باسم التخصص الذى يزيّن للعــالم الأميّة فى الآداب والفنون ، ويزيّن للأديب والفنّان الأميّة فى العلوم ، وينتهى بفصل الخبرة عن القيم ، وبتجزئة « الإنسان » فى المواطنين .

ورأوا أيضاً أن توكيد الماضى والتمهيد للجديد باتخاذ نقطة الابتداء من الحاضر فى البحث عن أمسنا وغدنا على السواء ، هو العلاج لما يهدّد ثقافتنا من تحطيم التراث باسم التقدم والتطوّر ، وشلّ التقدم والتطور باسم المحافظة على التراث .

كذلك رأى القائمون بأمر تلك المجلة أن ثمّة خطراً يهدد ثقافتنا وهو الفصام القائم بين ماهو خاص وما هو عام ، وهو يتجلّى فى الابتذال وفى بُغض الثقافة الرفيعة باسم الجاهيرية والشعبية من جهة ، وفى احتقار الثقافة الشعبية باسم الصفوة الممتازة من جهة أخرى . والحلُّ عندهم لهذه المشكلة هو توكيد حق الثقافة العليا فى حماية نفسها من عبث العابثين ، وتوكيد حق الجماهير فى ثقافة الصفوة الممتازة . وهدفوا — فى رسالة تلك المجلة — إلى أن تنقل المجلةُ الجامعةَ إلى كل بيت دون أن تبتذل الحقيقة فى سبيل الأميّين من قرّاء أو كتّاب .

ثم جعلوا هدفهم الأخير القضاء على النفاق الفكرى ، وعلى التستّر على مشاكلنا من ناحية ، وعلى المبادرة إلى تسفيه كل جهد قائم مهما كان نبيل الغاية ، نبيل الطريق من ناحية أخرى ؛ وذلك بمناقشة هذه المشاكل فى

صراحة تامة وموضوعية تامة ، بعيداً عن التزييف أو النقد الهدام .

من أجل هذه الرسالة النبيلة قام هذا المنبر الثقافى الجديد ليؤدى رسالة نبيلة ، وإننا إذ نرحب بالزميلة « الكاتب » إنما نرحب بروح تعاونى قوىّ يساندنا فى رسالتنا نحو خلق الوعى الثقافى الذى تعمل فى ميدانه « المجلة » ، وتشاركها فى هذا الكفاح النبيل زميلات عزيزات كمجلتى « الشهر » و « الأدب » .

آراء رجال الكنيسة فى ثورة الجزائر

خلال المعركة الدائرة بين أباة الضيم من أبناء الجزائر ، وبين طغاة الشر من أبنـاء فرنسا ، يُنشر بيننا كتاب جديد أخرجته مؤسسة المطبوعات الحديثة عنوانه « ثورة الجزائر والكنيسة » كتبه المطران إلياس زغبى وجمع فيه آراء طائفة كبيرة من رجال الكنيسة يرون فى وحشية فرنسا فى الجزائر مخالفة لتعاليم الدين المسيحى وخروجاً على أصوله ، كقول المطران شبُّولى مطران أنجيه بفرنسا فى المحاضرة التى ألقاها فى مدينة « ليل » بتاريخ ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٥ :

« الكنيسة إذن لا تستطيع الوقوف إلى جانب الذين يعتبرون الحالة الاستعمارية أمراً دائماً ، مستندين فى هذا الرأى الخاطئ إلى ما يعود به الاستعمار على الدولة المستعمرة من هيبـة ومنـافع مادية » .

أو كقول الأب رنيه فوايوم بصدد الحالة فى الجزائر :

« هل يمكن الكنيسة أن تساند تصرفات لا يجوز لها الموافقة عليها ؟ وهل يجوز لكاهن يخدم النفوس أن يترك المسيحيين الذين كلف رعايتهم يتبعون سياسة تتناقض مع الضمير الإنسانى والمسيحى دون أن يساعدهم على أن يعوا واجباتهم ؟ لا شك أن الكهنة الذين سيرفعون صوتهم بالاحتجاج يلزمهم تجرد نفسى عميق ورأى نير وقلب مفعم بالمحبة لئلا يخونوا رسالة يسوع المسيح التى عهـد إليهم أن يبلغوها للعالم بدون تحوير » .

وقد وردفى رسالة أعضاء «الجمعيةالكهنوتيةالفرنسية» :

« إننا نحن كهنة الكنيسة الكاثوليكية التى أسسها السيد المسيح لجميع الأجناس بلا استثناء ولجميع المدنيات لا يحق لنا أن نجعل من حدود القومية الضيقة حاجزاً تقف عنده أبصارنا ، بل يجب علينا أن نثبت للملأ أن الكنيسة وحدة مستقلة عن أية أمة من الأمم ، وأنها تتوسم الخير فى نشأة أمم جديدة » .

ويقول المطران زغبى إن نشأة أمم جديدة عن طريق الاستقلال إنما هى خير ، وليست فقط خيراً لها ، بل للمجتمع البشرى بأسره الذى تزوّده بقيم جديدة وثروات جديدة .

ولقد ضمَّن المطران زغبى كتابه بحوثاً عن : الكنيسة تحارب العنصرية فى الجزائر ، اللاعنصرية والمساواة ، اللاعنصرية والإخاء ، معنى الوطنية فى نظر رجال الكنيسة ، الكنيسة تستنكر أساليب قمع الثورة الجزائرية ، حق استقلال الجزائريين فى استغلال أرضهم لمصالحهم ؛ إلى غير ذلك من البحوث التى تدعو إلى منح هؤلاء المجاهدين حتهم فى الحياة الحرة الكريمة ونشر مبادئ العدالة والسلام .

وظهور هذا الكتاب متضمناً آراء رجال الكنيسة وتحدِّيهم للدولة الغاصبة الغشوم وثيقة من الوثائق الجديرة بالاهتمام .

الكتاب العربى المخطوط

لون جـديد من ألوان التأليف ، ذلك الذى حرصت جامعة الدول العربية على أن تقـدمه للناس مصوَّراً ، فقد اجتمع لمعهد المخطوطات القائم بهذه الجامعة — والذى يشرف عليه الدكتور صلاح الدين المنجِّد ، مديره ؛ والأستاذ كمال حمادة ، وكيله — طائفة من المخطوطات النادرة ، فرأى المعهد أن يعنى بناحية لم يُعْنَ بها أحد من قبـل ، وهى تأريخ الكتاب العربى المخطوط من حيث ورقه ، والخطوط المختلفة التى كُتب بها على مر القرون ، وعنواناته ، وفواتحه وخواتمه ، وفصوله وتزويقه ، وتصويره ، وتجليده ووقْفه على خزائن الأمراء والعلماء أو على المكتبات

قال النبي صلى الله عليه وسلم قيدوا العلم بالكتاب
كتبه علي بن هلال حامداً لله تعالى على نعمه
ومصلياً على نبيه محمد وآله وعترته

خاتمة رسالة « مدح الكتب والحث على جمعها » للجاحظ المتوفى سنه ٢٥٥ هـ / ٨٦٩م من نسخة كتبها الخطاط الشهير ابن البواب سنة ٤١٣ هـ / ١٠٢٢م
(استامبول : متحف الأوقاف T 2014 – معهد المخطوطات)

العامة ، والمؤثرات التى أثّرت فى ازدهاره وانحطاطه وغير ذلك .

وقد عكف الدكتور صلاح الدين المنجّد على تحقيق هذه الغاية ، فجمع لذلك — قبل كل شىء — الأنموذجات من مجموعات المعهد الغنية ، المنتقاة من مختلف بلاد العالم ، لعرضها فى معرض دائم يقام فى معهدالمخطوطات ، وانتقى — مما جمعه — الأنموذجات التى ضمنّها الجزء الأول من هذا الكتاب، لتكون دليلا للمعرض وأساساً للدراسة الموسعة التى ستصدر فى الجزء الثانى من هذا الكتاب . ومن هذه المخطوطات ماهو مكتوب بخطوط مؤلفيها .

وقد رتّب النماذج حسب تاريخ كتابتها ، وبدأها بلوحات من المصاحف ، ثم بدأ بعرض لوحات الكتاب بعد ذلك فى موكب تاريخى يبدأ من القرن الثالث الهجرى حتى القرن العاشر ، ثم ختمها بلوحات من المخطوطات الخزائنية أى التى كتبت لخزائن السلاطين والأمراء ، ثم لوحات من المخطوطات المزوّقة ، ثم المخطوطات المصوّرة .

وقد علّق الدكتور المنجّد على كل لوحة ببيان اسم الكتاب الذى اختيرت منه اللوحة ، واسم المؤلف وتاريخ وفاته ، ثم تاريخ كتابة المخطوطة ، وموضع كتابتها ، والتذييلات التى عليها ، ثم اسم المكتبة المحفوظة بها ، ورقمها فيها .

والكتاب بمظهره الذى خرج به يُعَدّ تحفة من التحف جديرة بالاقتناء .

أنباء ثقافية

● تتابع وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى الإقليم الشمالى نشاطها الثقافى بنشر طائفة من الكتب ، وقد أشرنا من قبل إلى نشاطها فى نشر أثرين من تراثنا القديم هما : « ديوان بشر بن أبى خازم الأسدى » و « المحكم فى نقط المصاحف » .

وها هى مديرية التأليف والترجمة فى تلك الوزارة تعنى بالأدب الجزائرى فتنشر من آثار أديب الجزائر محمد ديب روايتين‌هما : « الدار الكبيرة » و « الحريق » كتبهما مؤلفهما قبل ثورة الجزائر ، ولكن تباشير الثورة تبدو فى الرواية الأولى ، وأطياف الثورة وهى تتحرك تبدو فى الرواية الثانية . وقد قام بترجمة هاتين الروايتين الأستاذ سامى الدروبى .

كما نشرت فى سلسلة أخرى اسمها « سلسلة الثقافة الشعبية » كتاب « الوطن العربى » للأستاذ أنور الرفاعى و « التعاونيات » للدكتور عدنان شومان .

● أقيمت فى الإسكندرية حفلة أدبية تذكارية بمناسبة انقضاء عشر سنوات على وفاة الشاعر الأديب المحقق الأستاذ خليل شيبوب .

ومما يذكر فى هذا الصدد أن ديوان شيبوب ما زال مخطوطاً ينتظر من يبعثه إلى الحياة كما بُعث أخيراً ديوان عبد الرحمن شكرى .

وكان المرحوم خليل شيبوب قد نشر ديواناً منذ أربعين عاماً عنوانه « الفجر الأول » كما نشر جزءاً من معجم قانونى قام بتصنيفه .

● حصلت دار « بنجوين » الإنجليزية على أرباح قدرها ٣٦٤,٥٨٨ جنيهاً فى عام ١٩٦٠ من بيع قصة « عشيقة الليدى تشاترلى » التى ألّفها د . ه . لورنس . ويقدَّر هذا المبلغ بثلاثة أضعاف مجموع ما ربحته تلك الدار فى عام ١٩٥٩ . وبلغ ما بيع من هذه القصة حتى الآن مليونى نسخة .

● زار القاهرة فى الشهر الماضى الأديب الأردنى الأستاذ يعقوب العودات الذى ينشر مقالاته وكتبه باسم « البدوى الملثم » فكان موضع حفاوة كثير من الأدباء العرب .

وقد انتهز فرصة زيارته للقاهرة فدفع إلى المطبعة بأصول كتابين هما : « البستانى ، معرِّب الإلياذة » ، ومجموعة أقاصيص . وهو يعدُّ الآن كتاباً عنوانه « الأدباء العرب فى المهاجر » يتحدث فيه عن جميع الذين هاجروا إلى العالم الخارجى بما فى ذلك أوروبا .

● صدرت فى بيروت مجموعة أقاصيص مترجمة عن الإيطالية عنوانها : « أطفال وعجائز » للأديب الأردنى الأستاذ عيسى الناعورى .

وقد فرغ الأستاذ الناعورى من إعداد كتابين جديدين أحدهما عن المستشرقين الإيطاليين الذين عرفهم ، والآخر قصة مطوّلة تصوّر روحانية الشرق بإزاء مادية الغرب .

● اهتمت الدوائر الأدبية فى لبنان بكتاب « فلسفة تاريخ محمد » للمؤرخ المعروف الأستاذ محمد جميل بيهم ، . ففى الكتاب فصول ممتعة طريفة عن النبى محمد بين خصومه وأنصاره فى الكتلتين الشرقية والغربية ، والأحداث الفكرية والاجتماعية التى مهدت للإسلام ، وتطوُّر سياسة محمد تجاه الأديان، وتطوُّر علاقاته بأهل الكتاب ، وتطور علاقاته السياسية بالدول ، وشخصيته ، وأثر الإسلام فى اكتساب الناس .

ويناقش المؤلف كذلك فى كتابه كتباً وآراء للدكتور فيليب حتّى والدكتور إسحاق موسى الحسينى والأساتذة عبد الباسط الفاخورى وجرجى زيدان وجبرائيل جبور ومحمد عبد الغنى حسن وغيرهم . كما يصحح كثيراً من الأخبار الخاطئة حول سيرة الرسول وانتشار الإسلام ، ويردُّ على المتحاملين على الرسول الكريم ردًّا منطقياً عقلياً مع الاستناد إلى الواقع التاريخى الذى تؤيده أصحُّ المصادر وأوثق الروايات .

● ظهر كتاب « الرد على الماديين » الذى تناول فيه مؤلفه الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى بسط نظريات المذهب المادى وآراء دعاته ، ثم ردَّ على هذه الآراء ، بانياً ردوده على ضوء نظريات الإسلام .

وقد عرض الأستاذ خفاجى للموازنة بين أصول الإسلام الروحية والاقتصادية والسياسية وبين أصول المذهب المادىّ .

● شهدت منابر الرأى فى مصر فى السنوات الماضية كثيراً من مواقف الدكتور محمد بهى الدين بركات ليدلى بآرائه — عن طريق المحاضرة أو المقالة — فى ميادين الاجتماع والاقتصاد والفقه الدستورى والثقافة والتربية والتعليم . وكانت آراؤه فى كل هذه الميادين تتسم دائماً بجدة التوجيه وصدق النصيحة وإصابة الهدف الاجتماعى .

ولا يزال موقفه المشرف من حركة رسم

الكلمات العربية ومن نزغات اللاتينية الحرفية للأبجدية العربية يرنُّ صداه فى الآذان ؛ فقد أحسن الدفاع عن الرسم العربى ، وطالب بالتجديد فى غير مجافاة للأصول والتقاليد . كما لا تزال تنبؤاته منذ ربع قرن فى ميدان الحياة الاقتصادية والثقافة الإنسانية وتعليم البنت تثبت صحتها .

وقد جمع الدكتور بهى الدين بركات محاضراته ومناظراته ومناقشاته ومقالاته فى كتاب جعل عنوانه « صفحات من التاريخ » راجياً أن تكون ذات فائدة لمن يريد أن يتتبع التاريخ أو يبحث أحوال البلاد فى حقبة من أحفل حقبها بالحوادث والتطورات . وقامت بنشره مؤسسة المطبوعات الحديثة وطبعته دار الهلال .

● صدر فى لندن باللغة الإنجليزية كتاب « الجذور الفكرية للحركة القومية فى مصر » من تأليف الأستاذ جمال محمد أحمد .

● أصدر الدكتور فيليب حتى كتاباً ضخماً جديداً باللغة الإنجليزية عنوانه «الشرق الأدنى فى التاريخ» .

وقد سجل فى هذا الكتاب أحداث خمسة آلاف سنة من تاريخ العرب .

● « سيرة الغزالى وأقوال المتقدمين فيه » . هو كتاب قدمه الأستاذ عبد الكريم العثمان بين يدى المؤتمر الذى أقيم فى دمشق لمرور تسعة قرون على ذكرى الغزالى ؛ جمع فيه وحقق مجموعة من أبحاث رجال التاريخ والطبقات والسِّيَر التى تتناول حياة الغزالى وعصره وما إلى غير ذلك .

وقد راعى الأستاذ عبد الكريم أن يكون من بين هؤلاء : المعاصر للغزالى كعبد الغافر الفارسى ، والمتأخر قليلا كابن عساكر ، وهكذا حتى القرن الثالث عشر الهجرى .

وجمع هـذه الأبحاث من عدد من الكتب المخطوطة والمطبوعة ؛ وأغلب المطبوع نادر مفقود .

وقد يسَّر الأستاذ عبد الكريم العثمان بنشر هذه الأبحاث على الذين يدرسون الغزالى طريق الدرس والبحث ، حين جمع هذه الدراسات التى أرَّخت للرجل ، وحين ضمَّن هذا الكتاب أوسع دراسة قديمة عن حياة الغزالى وبيئته ومؤلفاته وتلاميذه وآراء العلماء فيه بقلم السيد المرتضى الزبيدى .

ولم يكتف بهذا ، بل وجد أن الواجب يحتم عليه أن يشير إلى بعض الملاحظات حول حياة الغزالى وأسباب خروجه من بغداد ، وهل سافر إلى مصر ؟

وقدَّم لهذا الكتاب الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة . ونشرته دار الفكر بدمشق .

● « النثر العربى المعاصر فى مائة عام » . دراسة أوفت على التسعمائة صفحة قام بها الأستاذ أنور الجندى ، شملت آثار أدبائنا الناثرين فى الفترة من عام ١٨٤٠ حتى عام ١٩٤٠ وذلك بظهور رفاعة الطهطاوى ومدرسته . وبلغ عدد هؤلاء الأدباء ١٢٥ أديباً من جميع الأقطار العربية ، وقد قسَّمهم المؤلف على أربع فترات متداخلة كانت أبرزها فترة ما بعد الحرب الأولى حيث ظهرت طائفة كبيرة من الكتَّاب الذين كان لهم أبرز الأثر فى نهضة النثر العربى من حيث الأسلوب والمضمون .

وقد تناول المؤلف هذه الشخصيات بعرض لتاريخ حياة كلٍّ منهم وثَبْت لمؤلفاته وتقديم نماذج من كتاباته . كما تضمَّن الكتاب دراسة مطوَّلة عن تطور النثر فى خلال معركة المحافظة والتجديد التى كانت أبرز معارك الفكر العربى فى هذه الفترة ، كما تناول معارك اللغة العربيـة والأدب المحلِّى والتجديد وأدب التجزئة والوحدة . وتناول بالبحث كذلك النوافذ التى تفتحت للحركة الأدبية وهى : البعثات والهجرة والترجمة والأزهر والجامعة والصحافة .

ونشرت هذا الكتاب مكتبة الأنجلو .

● لم تكد تمضى فترة قصيرة حتى كانت دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى وشركاه) قد قطعت شوطاً كبيراً فى إخراج الموسوعة الأدبية القيّمة ، التى تنهض بمهمة نشرها وهى كتاب « شرح نهج البلاغة » لابن أبى الحديد ، الذى يقوم بتحقيق أجزائه العشرين الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم . وظهر منها حتى الآن تسعة أجزاء ، ولم يبق على ظهور الجزء العاشر إلا أسابيع قلائل .

● بدأ الدكتور فؤاد صرّوف — الذى رأس تحرير مجلة « المقتطف » زمناً طويلا بعد وفاة عمه الدكتور يعقوب صرّوف — تسجيل ذكرياته الأدبية تمهيداً لنشرها فى كتاب كبير .

● كان الدكتور أحمد موسى قد قام خلال وجوده فى ألمانيا بعمل فهرس مبوّب وموسّع لمجلة « المقتطف » ، ثم ظل يتابع هذا العمل بعد عودته حتى استوفى السنوات السبع والسبعين التى صدرت فيها تلك المجلة .

والآن ينتظر الشروع قريباً فى طبع هذا الفهرس الضخم الذى أعدّه الدكتور موسى إعداداً بديعاً بحيث ييسر على الباحث عن أية مادة نشرت فى المجلة الوصول إلى غايته دون عناء .

● « ابن الرومى فى الصورة والوجود » . دراسة موسّعة للدكتور على شلق ، خالف فى كثير من نواحيها ما ذهب إليه دارسو ابن الرومى ، ولا سيا الأستاذ العقاد .

وفى الوقت ذاته صدرت فى بيروت ترجمة لكتاب المستشرق « روفن جست » عن ابن الرومى ، وقد قام بهذه الترجمة الدكتور حسين نصار .

● يصدر قريباً كتاب جديد من مخطوطات المرحوم الأستاذ سلامه موسى عنوانه « ماهى النهضة ؟ » أبرز فيه أهمية العقل والعلم والأسس الحضارية للجماعة .

● صدر فى كربلاء بالعراق كتاب فى جزءين للأستاذ غالب الناهى عنوانه « دراسات أدبية » ، ترجم فيه مؤلفة للأدباء والشعراء الذين ولدوا فى كربلاء .

● منذ أشهر أصدرت مكتبة مصر مجموعة من المسرحيات تحت عنوان « مكتبة الفنون الدرامية » يشرف على تحريرها الأستاذ عبد الحليم البشلاوى ؛ ظهر منها حتى الآن تسعة كتب يتناول كلٌّ منها ناحية من نواحى الفنون الدرامية تختلف عن الأخرى . كان أولها « الأحرار » للكاتب الأمريكى « سدنى كنجزلى » وهى نموذج للمسرحية التاريخية . ثم « الرجل العجوز » للكاتب الروسى « مكسيم جوركى » ، وهى نموذج للمسرحية الواقعية الأصيلة . و « بيت الدمية » للكاتب النرويجى « هنريك إبسن » ، وهى نموذج لمسرحية الأفكار . ثم « الينبوع » للكاتب الأمريكى « يوچين أونيل » ، وهى مزيج من التاريخ والخيال . ثم « قطة على سطح من الصفيح الساخن » للكاتب الأمريكى « تنيسى وليامز » عالج فيها الشذوذ الجنسى . ثم « الشائعة » للكاتب الإنجليزى « تشارلز مونرو » ، وهى مثال لمسرحية المشكلة . وكان الكتاب السابع وعنوانه « عيوب التأليف المسرحى » للناقد الأمريكى « وولتر كير » أول كتاب فى النقد المسرحى يصدر فى هذه المجموعة .

وحين وجد المشرف على هذه المكتبة أن التليفزيون قد أخذ نصيباً وافراً فى مجتمعنا قصر الكتاب الثامن على « ثلاث تمثيليات للتليفزيون » للكاتب الأمريكى بادى تشايفسكى .

وأخيراً صدر الكتاب التاسع وعنوانه « مسرحية فى العصر » وهى ملهاة فى ثلاثة فصول للكاتب المجرى « فيرينك مولنار » وقد قام بترجمتها الأستاذ محمد فتحى المستشار الثقافى للجمهورية العربية المتحدة فى بون عاصمة ألمانيا الغربية .

معارض الفن

بقلم الأستاذ محمد صدقى الجباخنجى

● فى ٢٩ مارس افتتح الفنان ميشيل كنعان معرضه الثانى بصالة العرض بدار الأخبار بشارع الصحافة.

ومعروضات هذا المعرض هى استمرار تقدمى لمعروضات المعرض الأول الذى استبعد فيها العلاقات القائمة بين الفنان وما يراه أو يستشعره فى وجوده وواقع حياته؛ ليعيش فى أوهام الفكر المطلق اللامحدود.

ويقول الكاتب چورچ حنين فى دليل المعرض «إن ميشيل كنعان يزرع مسامير لكى يسقط المساحة، ويستعمل الخيط لكى يفك العقد، ويستخدم مصاريع الخشب لكى يرى من خلالها كل شىء، ويشيد من خيوط الحديد أسواراً. ليجعل المادة تعبر عما هو خاص بالإنسان وحده..»

وبمثل هذا الكلام وغيره من الألفاظ التى استعملها الكاتب چورچ حنين فى تفسير فلسفة الفن المجرد، الذى تدفعه الطاقة الجامحة المعادية لقوانين الجمال النوعى الذى تؤمن به النفوس الهادئة المستقرة المستغرقة فى تأملاتها الروحية أو العقلية، نجد أنفسنا فى حيرة وقلق وشك فى سلامة العقل البشرى، إذا اعتبرنا أن ما يقدمه الفنان كنعان فن يقوم على غير الهزل اللطيف والدُّعابة والابتكار فى استخدام مواد مستهلكة ومتباينة كأنها أضغاث أحلام.

● وفى مساء يوم الأربعاء الموافق ٥ أبريل افتتح الدكتور ثروت عكاشه وزير الثقافة والإرشاد معرضين أولهما صالون «جمعية أتيليه القاهرة» الرابع واشترك فيه ٣٢ فناناً وفنانة من أعضاء الجمعية بثمان وخمسين لوحة وتمثالا وهم: إستر منشا وآشود زوريان وإما كالى عياد وأنجى أفلاطون وحسنى البنانى وخديجه رياض وراتب صديق وراغب عياد ورمسيس يونان وسعد الخادم وسعد محمد كامل وسند بسطا وسيمون سامسونيان وسيمون مسعود وصبرى راغب وصدقى الجباخنجى وعبد الهادى الجزار وعفت ناجى وعلى كامل الديب وعائدة شحاته وفرانشسكو ديلاميكو وفؤاد كامل وڤيسيلا فريد وكمال النحاس وايلى عزت ومارجريت نخله ومنير شريف وموريس فريد ونظير خليل ويوسف سيده ويولاندا موسكاتيللى. واستمر المعرض حتى ١٨ أبريل.

● وفى اليوم نفسه افتتح السيد الوزير بمتحف الفن الحديث معرض الفنانين الخمسة الذين انقضى على تفرُّغهم العام الأول وهم: تحيه حليم وراتب صديق ورمسيس يونان وصمويل هنرى ومحيى الدين طاهر.

ويحوى المعرض ثمانين لوحة وتمثالا غالبها تم فى سنة التفرغ التى انتهت بنجاح، وبعضه عرضه الفنانون لتعزيز وجهات نظرهم الفنية، ومع ذلك ما زلنا نجد روح التشاؤم تغلب على ثلاثة منهم، لأن اللجنة العامة للتفرغ أصدرت قرارها — بحضور تسعة أعضاء من بين سبعة عشر عضواً بمد التفرغ لسنة أخرى لاثنين، وهما المصور رمسيس يونان والمثَّال محيى الدين طاهر. فلماذا إذن رفضت اللجنة استمرار تفرغ الثلاثة الآخرين؟

هذا هو السؤال الحائر بين الفنانين التشكيليين الذين كانوا يأملون أن يزاد عددهم إلى عشرين أو ثلاثين بدلا من أن ينقص إلى اثنين. وأن يكون التفرغ لمدة خمس سنوات على الأقل بدلا من أن يكون لسنة واحدة، على أن يقرر بعدها استمرار التفرغ بصفة دائمة، طالما أن الفنانين يؤدون واجبهم الفنى كما ينبغى.

وفن رمسيس يونان الذى يقدمه على تسع لوحات زيتيَّة هو من النوع التجريدى الذى يحتاج إلى ثقافةفنية وأدبية عالية لإدراك المعانى الخفية التى تتضمنها تلك المحاولات الغامضة التى يلذُّ للمشاهد أن يشارك الفنان فى الكشف عنها. وهذه التجارب التى لا تقدِّم نتائج حاسمة، ولا تحمل أسماء لمسمَّيات معلومة، توحى بأن



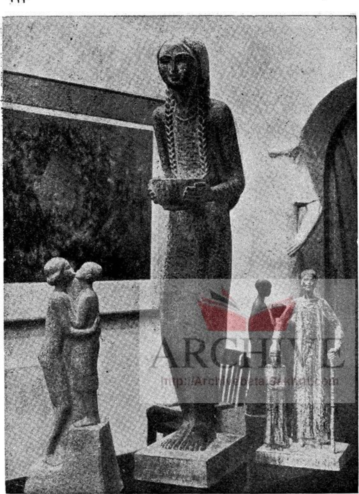
لوحة من الفن التجريدى — للفنان رمسيس يونان

الأضواء والظلال تستطيع بدون تطبيق على صور الإنسان أو الأشياء التى تعودنا رؤيتها ، أن تكون فى ذاتها موضوعاً لأشكال ذات معان معلومة فى وجداننا

والوجدان هو مخزن ذكريات الطفولة ، ولا يكاد يتبينها العقل الواعى إلا إذا توفرت له فرصة التأمل ، لا مجرد الرؤية السطحية العابرة . وهذا التفاعل بين المجهول والمعلوم .. بين المعانى الخفية والظواهر الشكلية، لا يتمّ إلا عن طريق الرمز الذى يمكن الاستناد إليه فى تجربة التأمل والتأويل والكشف عن خفايا النفس الباطنة . ويتميز الفن التجريدى الذى يقدمه الفنان رمسيس يونان بالتفاصيل الدقيقة لتكوينات خطية متشابكة لا حصر لها كأنها الأصداف ذات الشُّعب المتنوعة الأحجام والأشكال التى يخرجها البحر من جوفه فى سكون الليل ؛ ليضعها على الشاطئ ، فإذا تأمّلتها وجدت فيها من الأشكال ما لا يخطر على بال، واستعمل فيها مشتقات اللون البنى فبدت كل لوحة كسبيكة منصهرة من الذهب ، شكّلتها يد الفنان بمهارة وحذق ودراية فى استعمال أدوات التلوين واستغلال كل الإمكانيات والخدعات التى جعلت منها صورة لطبيعة ثانية مستلهمة من عوالم خفية غير منظورة .

أما فن المثال محيى الدين طاهر فهو نقيض فن المصور رمسيس يونان ، فنجده يتمسك بالصورة الظاهرة ويهتم بتفاصيل أعضاء الجسم فى أرشق حركاتها . وهو لا يؤمن إلا بالشكل الذى يراه وينقل عنه بأمانة ، محاولا أن يصوغ مقاييس الجمال فى أقرب صوره الحسيّة التى يألفها الناس فى الطبيعة . ولقد نال الفنان محيى الدين طاهر موافقة لجنة التفرغ بالإجماع على التفرغ لفنه لسنة ثانية . وملاحظتى على فنه أن نجاحه وتوفيقه فى التماثيل الصغيرة المعروفة باسم Bibelots — وهى التى استحق عليها جائزة الدولة التشجيعية لعام ١٩٥٩ — لا يعنى أن يكلف نفسه مشقة عمل التماثيل الكبيرة .

ويتلخص فن المصورة تحية حليم فى العناية بسطح

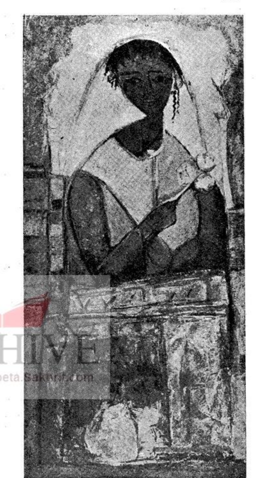


مجموعة
من التماثيل

للفنان
محيى الدين طاهر

وملمس اللوحة عناية خاصة ، واستعمال الألوان التى تنتمى إلى فصيلة الألوان الترابيـــة الطبيعية ومزجها بمركبات لتساعدها على التسامى بفنها إلى درجة تبدو فيها قريبة الشبه من صور « الفرسك » التى نشاهدها على الجدران القديمة . ويعززها فى ذلك أسلوبها التعبيرى الذى تضحى من أجله بالتفاصيل الواهنة التى قد تعوق تعبئة لوحاتها بالمعانى الإنشائية التى تجيش بنفسها فتبادر إلى إثباتها فى خطوط أساسية صريحة صادقة يلعب فيها الزخرف بإحساس شاعرى عميق المعنى . ولضربات فرشاة ألوانها الجريئة أهمية فى تأكيد ملمس اللوحة وتفسير معانى الأشكال والوجوه وحركات الأجسام التى تصورها على طبيعتها الأولية .

ومن بين ما يقدمه المصور محمد راتب صديق ثلاث لوحات يبدو فيها شعوره العميق بالدراما ، وهى « لقاء سليمان بملكة سبأ » و « العشاء الأخير » و « قابيل وهابيل » وقد أتمها فى فترة التفرغ مع ثلاث لوحات


انتظار للفنانة تحية حليم

والحركات والأوضاع . ومثل هذا الاتجاه نحو معالجة مواضيع تاريخية يحتاج عادة إلى دراسة واعية لتفاصيل الأحداث والعوامل النفسية والمادية الدافعة إليها ، وهو أمر لا يشق على فنان مثل راتب صديق لما له من الثقافة والخبرة التي جعلته ينفرد بين زملائه المتفرغين بتسجيل الأحداث التاريخية .

أما المثّال صمويل هنرى فنجده إلى جانب اهتمامه بالمواضيع الاجتماعية والإنسانية فى تماثيل «العامل» و «حامل الجرار» يميل أيضاً إلى الجانب الشاعرى فى تماثيل «انطلاقة» و «نهم» و «قبلة حمامتين» .

ونجده يعود إلى العصور البدائية فى تقدير مقاييس الجمال فى بناء التمثال بشعور قوى راسخ فى تبسيط سطوح الكتل وتوزيعها وإبراز أهم الجوانب التى تعزز الموضوع الذى يستهويه . . وقد يكون حصاناً أو قطاً أو وجهاً لإنسان .

والبداوة فى الفن أساسها البساطة ، ورسوخ


نهم للمثال صمويل هنرى

أخرى . أما لوحة «مذبحة الأبرياء» فهى إلى جانب لوحات ورسوم أخرى أتمها منذ سنوات تعزز أسلوبه الفنى الذى يعالج به الأشكال التى لا تتركب من خطوط بل من ظل ونور . والألوان لا تحددها لمسات ذات وضع معين ، بل تبدو سابحة فى بحر من الأضواء المشعة المختلطة بالظلال العاكسة . وثمة ظاهرة أخرى تؤكد ميله إلى الاتجاه الدرامى الذى يقوم على التعبير بالإيماءات



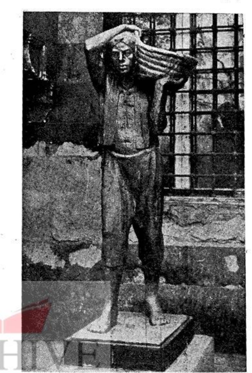
من المولد — للفنان أحمد فتح الله

التكوين البنائى ، وتجنب التفاصيل الدقيقة ، وتركيز الاهتمام على جزء أو جزءين فى التمثال للتعبير عن المضمون ، كما نرى فى تمثال « النهم » وقد برزت عيناه ومالت رأسه إلى الخلف وهو يروى عطشه بينما امتلأ جوفه بالماء حتى تكورت بطنه من الأمام .

والفن البدائى نشأ نشأته الأولى فى كل مكان كما ينشأ الطفل ، وتتشابه عناصره مع عناصر الفن التعبيرى الذى غزا أوربا مع ريح الشمال ليثبت وجوده فى ميدان الفنون الحديثة . . وهنا تتبادر إلى أذهاننا الرسوم التى تقدم بها المثال صمويل هنرى ، وجميعها من المنهج التعبيرى من حيث التكوين والتاوين ، أما الخطوط الرقيقة التى تسيل عذوبة ، فهى نقيض القوة التى تنم عنها تماثيله لتعوض شعوره المتكامل بالحياة .

● وفى مكتبة الفن بمتحف الفن الحديث نظم ثلاثون من شباب الفنانين من طلبة القسم الحر بكلية الفنون الجميلة المعرض الأخير لأعمالهم التى تبلغ ٢١ لوحة تقدم بها : أحمد فتح‌الله وأحمد محمد الرشيدى ورفعت أحمد والدكتور رمسيس حبيب وسعد الدالى وعلى محمد دسوقى وليلى الصاوى ومحسن حسين ومحمود عبد الرشيد ومحمد محمود قناوى ومراد نسيم ، و٣٥ تمثالا تقدم بها : إسحاق ويصا وأمينة السيد وألفى متى و ا . بويجيان وجلال قابيل وحسين رفعت وسيد أبو السعود وعبد المجيد شكرى وفايزة محمود إبراهيم وفتحيه مخاوف وفوزى أحمد عبدالله وفتحى هابيل ولاتسهان وليلى الأزهرى ومحمد مصطفى ومحمود بربرى ومجدية مجدى ومعالى عبد العزيز ووليم شنوده ، وهم آخر دفعة من طلبة النظام القديم الذى كان يخول للطالب الدراسة أربع سنوات ليتقدم بعدها إلى مسابقة مرسم الأقصر .

ويبدو فى جميع اللوحات والتماثيل المعروضة الرغبة الصادقة فى مزاولة الهواية الفنية بحب وإخلاص . ومن بين هؤلاء الشباب الموظف بالتليفونات أو السكة



العامل — للفنان جلال قابيل

الحديدية أو مصلحة السياحة أو هيئة التليفزيون ، ومنهم الطالبة بكلية الآداب ، أو الحاصل على بكالوريوس طب قصر العيني أو ليسانس قسم الآثار بكلية الآداب . . فهل يليق أن تعدل لائحة القسم الحر لتحرم هؤلاء الفنانين من متابعة هوايتهم الفنية باقي المدة التي نصت عليها اللائحة التي انضموا على أساسها إلى هذا القسم ؟

ويقول المسئولون إن الدراسة الحرة باقية ومستمرة ،

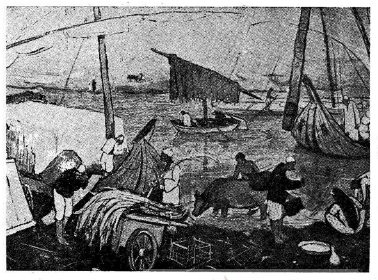
ويقول الطلاب إن إعادة قيدهم — وفقاً لنظام اللائحة الجديدة — يفوت عليهم السنوات الدراسية السابقة التي تخول لهم الاشتراك في مسابقة مرسم الأقصر ، وإن كثرة عدد الأساتذة المنتدبين للتدريس في قسمي التصوير والنحت يجعلهم في حيرة بين وجهات النظر الفنية المختلفة .

وقد يكون هذا النظام أفضل للطلاب حتى لا يكونوا تحت تأثير واحد مباشر ، وحتى تتهيأ أمامهم فرصة الإفادة من كل أستاذ ، بدون تقليد أو اتباع .

والمعروضات في جملتها تدل على توفر الحماسة والرغبة في مواصلة دراسة الفن دراسة واعية ، وأن هذه المواهب ما كانت لتظهر أو تنكشف إلا بتيسير هذه الدراسة الحرة التي أنشأتها وزارة التربية والتعليم في سنة ١٩٤٢ وألحقتها بكلية فنون القاهرة ، بدون قيد أو شرط ، كما أجازت لمن يرغب بعد دراسة أربع سنوات التقدم إلى مسابقة مرسم الأقصر الذي أنشأه الدكتور طه حسين — عند ما كان وزيراً للتربية والتعليم — ليكون عوناً للفنانين الناشئين على دراسة تراثهم الفني بين آثار طيبة القديمة .

وإذا كان الفن الصادق هو ما يصدر عن الهواية والحب فإن « الفنانين الأحرار » قد أثبتوا في معرضهم الأخير رغبتهم في مواصلة دراسة الفن ، الذي هو خير ما ينفعهم في أوقات فراغهم ، فخير الناس أنفعهم للناس ، ولا يتأتى هذا النفع إلا بالفن الدافع إلى حب الجمال وحب الخير . أما أصحاب المواهب الفنية الذين حرمتهم ضرورات الحياة من أن يعيشوا لفنونهم ويشاركوا في النهضة الفنية مشاركة فعالة ، فهم أحق بالرعاية والاهتمام ، طالما أننا لا ننكر الموهبة والاستعداد الشخصي في مجال الإبداع الفني . وأمام كلا الفريقين متسع للدراسة بالقسم الحر .

والدراسة الحرة هي علامة من علامات انتشار الوعي النامي في قلوب أسبق وأرقى شعوب الأرض حضارة وفناً ، فعلى أرض وادي النيل توالت الحضارات الفرعونية واليونانية — الرومانية ، ثم المسيحية والإسلامية في أكثر من ستة آلاف سنة ، ولا يكاد بلد في الإقليم



من وحى النيل
للفنان مراد نسيم

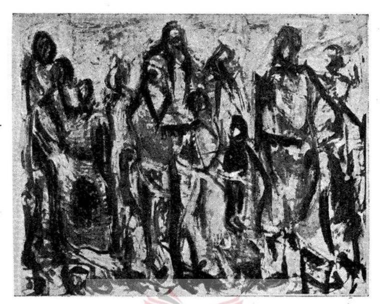
المصرى يخلو من آثار تلك الحضارات التى هى الميراث الأول لحضارة الإنسان . فمن البدرشين والجيزة وميت رهينة وعين شمس واللاهون إلى أهناسيا وبنى حسن وتل العمارنة والأقصر ، ومن صالحجر والفيوم وأسيوط وجرجا إلى الفسطاط والقاهرة والإسكندرية والمنصورة ، تنتشر الآثار التى يتكون منها تراثنا التاريخى والفنى الجدير حقاً بالدراسة والبحث بما يلائم روح العصر الحديث . ولعل من أبسط ما يحقق هذا الغرض هو التوسع فى تعميم المراسم الفنية الحرة فى كل الأقاليم ، وهو أمر موكول إلى وزارة الثقافة والإرشاد إذا أرادت الأخذ به لتحقق نهضة فنية لاتقل فى أهميتها عن مشروع تفرغ الفنانين ، بل لعل مشروع التفرغ عند ما يصبح حقاً لكل فنان عامل يكون عدة هذه المراسم التى يمكن بها أن نحقق نهضة فنية إقليمية متميزة .

● وفى قاعة «الفن للجميع» قدم الفنان صلاح طاهر من ١١ إلى ٢٤ أبريل عرضاً لأعماله فى الفن التجريدى الذى يجد فيه مجالا لانطلاقاته المتحررة من القيود وعبودية التقاليد التى كانت تحدد طريقه عند ما كان يلجأ إلى تصوير واقع حياته ومشاهداته ومشاعره بالنسبة لشىء معلوم محدد الأوصاف .

وتخرج معظم هذه الانطلاقات من الوجدان المعبأ بالذكريات وشحنات عاطفية ، كلما حاول استغلالها وإثارتها ، تفجرت وازدادت وتكاثرت طاقاتها التى يتولد فيها الشر ويتحول إلى قوة دافعة متحركة تأبى الركود أو الاستسلام للتأملات الشاردة المضيعة لدوافع الإلهام والابتكار والإبداع .

ويحوى المعرض مائة اسم لمائة لوحة مختلفة فى أحجامها وألوانها وأساليبها ، وتشترك جميعها فى الدلالة على قدرة الفنان صلاح طاهر على تحريك يده عشرات المرات فى تصنيف التعبير التجريدى فى كل مجالاته واتجاهاته . وتنفرد كل لوحة منها بخصائص تجد منها ما لا تجده فى غيرها .

والتجريد الإرادى يحدده ذوق الجمال والنظام لعالم الأشخاص والأشياء ، فنرى الفنان صلاح طاهر ينفعل مع مفاهيم تحدد معانيها فكرة شائعة بين الناس ، ليشارك فيها بعواطفه الإنسانية ؛ منها لوحة «الكونغو» الذى



الكونغو — للفنان صلاح طاهر

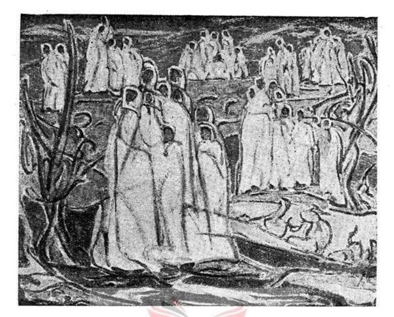
اضطربت لها حواسه ومشاعره فراح يضرب بفرشاة ألوانه بقسوة تفسر بشاعة المأساة التى يعيشها الكونغو ، وتتألف عناصر الدراما العنيفة من بقع من الألوان الحمراء تتخلل مساحات من الخطوط السوداء الثائرة التى ترمز إلى شبح الخيانة الوطنية . وفى لوحات « الحجاج » و « الجزائر » و « إفريقية » توضيح لصلات الأفراد بإحساس روحانى بنائى تضامنى .

والتجريد غير الإرادى يحدده الانفعال النفسى لعالم المفاهيم والقيم الفنية ، وأوضح مظاهر هذا التجريد نجدها فى لوحة « ظلال الشك » — التى خصها الدكتور ثروت عكاشه بإعجابه — وتتكون من ظلال سوداء متناثرة على أرضية اللوحة البيضاء ، وهى من فصيلة التجريد الرمزى لإحساس غامض يتأتى عادة من عفو الخاطر ، ويعتمد على الذوق الجمالى فى تشكيل انفعالات تخلقها الحساسية التى لا تستند إلى دوافع حسية ، بل تستمد مادتها من المحصول الثقافى لتوضيح دوافع نفسية خفية .

وهناك أمثلة من التجريد الهندسى نشاهدها فى أكثر من لوحة ، نذكر منها لوحة « دردشة » و « خطوات رصينة » و « نغم هندسى »

وهناك نوع من التجريد الجبرى ، ويبدأ بالهمس الرقيق فى لوحة « رجاء » و « طرب » ، ومن الترانيم الموسيقية الهادئة فى لوحة « ترابط » و « حركة مرحة » إلى الصراخ فى لوحة « الكونغو » ، والصياح العاطفى الذى تتردد فيه نداءات مدوية فى لوحة « اللهب الراقص » و « مشاركة وجدانية » و « كبت » ثم لا يلبث حتى يعود إلى البهجة فى لوحة « اختيال » و « طموح » و « ضحكة مجلجلة »

وهناك نوع آخر من التجريد الميتافيزيكى يضاعف فيه جهوده للبحث عن جوهر جديد فى لوحة « خواطر بيضاء » و « من الغابة » و « جوريقى » و « مكان مهجور » .



الحجاج — للفنان صلاح طاهر

وفى التجريد غير الإرادى لا يتمثل الفنان صلاح طاهر – عند بداية العمل – الصورة النهائية ، ولا يسعى إلى هدف معين ، بل أراه يرسم الخطوط ويضع الألوان ، ويتولى عملية الحذف والإضافة مرات ومرات . ويظل يواجه بنفسه تجاربه الفنية ودراساته الأكاديمية الأولى ، وتطور علاقته بالعمل الفنى الذى يعتمد فيه على الفطنة والتلقائية والاسترسال فى مضاعفة حركات الخطوط والألوان الخالصة أو المشتقة أو المركبة بكافة درجاتها وطبقاتها ، حتى يرتفع البناء ويتخذ شكلا يرضى عنه ذوقه بتوفير عناصر توحى بمركب الأشكال ومركب المعانى ، التى تتيح للمشاهد فرصة تأمل عوالم جديدة .

● ومرة أخرى نلتقى مع المهندس الزراعى رشيد خفاجى ، لا فى الإسكندرية بل فى القاهرة ، حيث يعيد تقديم معرضه الأول الذى افتتح من ١٩ أبريل واستمر حتى يوم ٢٥ بجمعية أتيلييه القاهرة . ويحوى المعرض ٥٣ لوحة وتمثالان .

والفن عند رشيد خفاجى صادر عن الهواية التى هى أصدق الدوافع إلى إجادة التعبير عن الانفعالات ، والمشاعر والبيئة التى يعيش فيها ، عند ما يعزز الهواية بالدراسة العلمية لتكونولوجية العمل الفنى ، الأمر الذى دعا رشيد خفاجى إلى أن يحاول بالتجربة العملية التطور بفنه بسرعه فى مراحل متباينة – له فى كل منها أكثر من عمل متميز – منذ بدأ فى سنة ١٩٤٨ دراساته بالقسم الحر بكلية الفنون الجميلة . والدأب على البحث هو من سمات طموح الفنان الذى يأبى على نفسه الركود أو الوقوف ، بغية الكشف عن الأسلوب الذى يصدق حسه ويساعده على التعبير الصادق عن مشاعره وأفكاره . وفى رأيى أن لوحة « رقص بلدى » هى بداية طريقه الجديد .

والفنانون المصورون هو أكثر الفنانين تطلعاً وتطوراً واختلافاً فى تقدير القيم الجمالية، وطريقة التعبير عنها بالأسلوب الذى يروق لكل فنان، تبعاً لكثرة وتنوع المواد التى تستعمل فى هذا الفن، واختلاف طبيعة عناصرها، علاوة على اختلاف الأحاسيس الشخصية والمواضيع التى يألفها والمناظر التى تستهويه، لتصبح عنصراً من عناصر شخصيته الفنية. وبهذه الفوارق الجوهرية يستطيع كل فنان أن يختار ويحدد نوع اللغة التى يجيد التعبير بها بطلاقة.

ومن بين لوحات الفنان المهندس رشيد خفاجى ما يحدد ذاتيته ووجهة نظره الجمالية فى فن التصوير مثل «عازف الربابة» ومن «النوبة» و «فلاحات» و «دردشة» و «مريوط» و «قطط» وفيها استعمل الألوان الداكنة بأسلوب راسخ البناء على عكس لوحة «الحصاد».

ولقد سئل المصور الفرنسى «أوچين كاريير» الذى كرّس حياته لتصوير الأمومة وحدد أسلوبه باستعمال الفرشاة العريضة فى توزيع درجات لون بنى واحد قريب الشبه من مزيج القهوة واللبن «كاپوتشينو»، ماذا يصنع لو طُلب منه تصوير ببغاء؟ فأجاب إن هذا ليس من اختصاصه.

ومن هذا القول نستطيع أن ندرك أهمية أسلوب الفنان الذى تحدده ميوله وتجاربه.





مِن مجلات الشرق والغرب

عرض وتلخيص

بقلم الأستاذ عبد المنعم شميس

● وجهات نظر « سومرست موم »

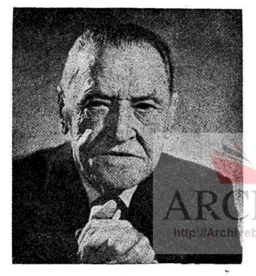
نشرت مجلة (الكتب والكتاب) البريطانية مقالين متتالين عن الكاتب البريطانى المعروف سومرست موم ، جاء بهما معلومات طريفة عن حياة الكاتب وعن فنه

تقول المجلة إن موم مليونير ، وهو أغنى كاتب بين الأحياء . ويقيم فى بيته المكون من ١٢ غرفة فى الرفيرا الفرنسية ، ومعه سكرتيره الخاص (ألان سيرل) وطباخ وثلاثة من الخدم ، ويوجد دائماً فى بيت الكاتب الكبير ضيوف ، بعضهم مدعوون لزيارته ، وآخرون قادمون بغير دعوة .

ويكتب موم مذكراته التى يطلق عليها اسم (الحقيبة البالية) وهى التى أوصى بنشرها بعد موته . وفى كل صباح يضيف إليها صفحات من ذكريات شبابه . أما مؤلفاته التى لم تنشر فقد أحرقها واستغنى عن نشرها .

لقد كتب موم من أجل الحصول على المال ، وبيته الكبير ملىء بالتحف المنتقاة بعناية تامة ، وهى تضم لوحات عالمية ، وقطعاً نادرة من البورسلين والبرونز والعقيق .

وفى مطلع حياته الأدبية وجّه إليه نقد شديد لتصريحه بقوله « إنى أبغى الشهرة والمال » وإذ نجح موم



سومرست موم

فى تحقيق ما ابتغاه وصفه بعض النقاد وكثير من الكتّاب المثاليين أو الأقل منه موهبة وشهرة بقولهم : « إنه كاتب تجارى » . وكان ردّه على ذلك : « لماذا يغضب الناس لأنى حصلت قدراً كبيراً من الأموال عن طريق كتبى ؟ إنها الحماقة ! ... لقد كنت فى حاجة ماسة إلى الاستقرار وراحة البال ، فهيأت نفسى ومهدت لها الطريق . . إن الاستقرار يمنحنى الحرية »

وهذه الحياة القلقة غير المستقرة التى يشير إليها موم بدأت بمولده فى باريس عام ١٨٧٤ . فقد توفى أبواه وهو فى العاشرة ليتبنّاه أحد أعمامه . وكان ذلك

العم رجلا قاسيا فظاً لا ينجب أطفالا . وزاد من قلق موم فى ذلك الوقت أشباح مرض السل التى كانت تتراءى له وهو لم يعد بعد طفلا صغيراً بالإضافة إلى إصابته بالتلعثم . ولم يكن موم فى المدرسة الداخلية تلميذاً اجتماعياً متفاعلا كبقية أقرانه ، بل كان ينسحب فى سكون لينزوى فى قوقعته الهادئة ، وحيداً يتأمل .

ولم يوفق فى أول عمل اختاره لنفسه ؛ ألا وهو الاشتغال بالقانون والخدمة فى السلك الدبلوماسى . فانتقل إلى دراسة الطب بالكلية الملكية فى جامعة كمبردج ، ثم فى جامعة هيدلبرج بعد ذلك .

وفى أوقات الفراغ كان يلجأ موم إلى كتابة مذكراته التى ضمنها خبراته وآراءه واستنتاجاته وهو يعتبرها بمثابة دائرة معارف خاصة يرجع إليها وقت الحاجة

ويقول موم فى مذكراته هذه : «بعد احتراق الكتابة ظللت عشر سنوات لا يزيد دخلى السنوى عن مائة جنيه . ولم يبدأ دخلى يرتفع بدرجة مرضيــة إلا بعد أن نشرت مسرحيتى الأولى « ليدى فردريك » وكان ذلك عام ١٩٠٧ » .

وفى مكان آخر من مذكراته يقول سومرست موم :

« إننى لم أكن أبداً إنساناً اجتماعياً .. لم يكن يلذ لى الاستمتاع بصحبة الآخرين .. إننى لا أستطيع مطلقاً نسيان نفسى . والرجال من حيث هم كذلك ، لا يثيرون اهتمامى فى شىء ، ولكننى أهتم بهم من حيث هم أفراد يمكن استخدامهم كمادة لكتابتى . . . . . إن نواحى الغموض ، والانفعالات العنيفة – وليست الشهرة – هى التى تثيرنى ، وهى التى تعرضت لها فى مؤلفاتى . إن حياة المشاهير والعظماء غالباً ما تكون سطحية خالية من هذه المشاعر والانفعــالات ، أما الرجل العادى فهو لا يخفى شيئاً من ذلك ، ومن اليسير التعرف على إحساساته » .

وطاف موم العالم شرقه وغربه باحثاً عن شخصيات لقصصه . وهو فى ذلك يقول :

« لقد سافرت كثيراً . أولا لأننى أحب الأسفار ، وثانياً للبحث عن شخصيات وموضوعات كتابتى . ولم أذهب إلى الهند فى أول الأمر لاعتقادى أن رديارد كپلنج قد تناول فى قصصه كل ما يمكن أن يكتب عن الهند . ولكننى بعد أن زرتها أخيراً أسفت أشد الأسف ، لأننى لم أفعل ذلك منذعشرين عاماً مضت . لقد شاهدت هناك أشياء كثيرة .. كثيرة جداً . . لم يتعرض لها كپلنج فى مؤلفاته قط »

ومع أن سومرست موم يبلغ الآن السابعة والثمانين من عمره فهو لا يزال مغرماً بالأسفار والرحلات . ولم يطرأ أى تعديل على برنامجه الخاص بالكتابة . وفى كل يوم يسير موم ميلا كاملا داخل حديقته الفسيحة ويطيب له كثيراً الاستحمام فى حمام السباحة الفخم الملحق بمنزله ، وهو يدخن دون انقطاع ، ولكنه أقلع عن الخمر ولا يتناول سوى كأس واحدة من شراب « المارتين » قبل الغذاء .

وعندما سئل سومرست موم عن وجهة نظره فى الأدب بصفة عامة ، وكتابته هو بصفة خاصة وعن رأيه فى وصف النقاد له بأنه مجرد قصاص محترف أجاب بقوله :

« إنه ليس مما يسيئنى فى شىء أن يقال عنى إننى قصاص محترف . بل على العكس فإننى أفخر بذلك ... إن الهدف الأسمى للفن فى نظرى هو تحقيق أكبر قدر من المتعة والشعور باللذة : لذلك فإننى لا أجد أية غضاضة فى أن يحترف إنسان الكتابة طالما أنه يسهم فى بلوغ هذه الغاية . أما من يكتب لغير ذلك الهدف ، فهو غالباً لا يقرأ . ولا أعرف تماماً لماذا يكتب ! »

ويجيب سومرست موم عما إذا كان ينوى كتابة روايات جديدة فيقول :

« لقد فرغت من تأليف كتاب يتضمن عدداً من المقالات ولكنى لن أكتب قصصاً جديدة بعد الآن . لقد كانت آخر رواية كتبتهــا هى كاتالينا Catalina التى نشرت عام ١٩٤٨ . . . لا تنتظروا روايات أخرى حتى إذا بلغت المائة عام ؛ ذلك أنه من النادر أن يحصل المرء على أفكار جديدة بعد انقضاء سنى شبابه الأولى. وفى الواقع فإن كل قصصى تقوم على أفكار تعود أصلا إلى أيام شبابى . . . إننى أستطيع اليوم أن أقول إننى قد كتبت فعلا كل ما أريد أن أكتب » .

ويتحدث سومرست موم عن علاقته بالخالق والكون فيقول :

« إن العالم ينتظر من رجل فى مثل سنى ، يخطو آخر خطواته نحو القبر ، أن يعيد النظر فى علاقته مع الخالق ونظرته إلى الطبيعة والكون ؛ ولكن أخشى أن شيئاً من ذلك لن يحدث . إننى كنت دائماً – وسأظل – إنساناً لا يؤمن إلا بالظواهر المادية الملموسة ، وفيما عدا ذلك فإننى لا أعرف عنه شيئاً ... وأود أن أضيف هنا بأن الفضيلة الكبرى فى نظرى هى الشفقة أو الرحمة .. أو كما يطلق عليها البعض : الخير » .

أما وجهة نظر سومرست موم عن فلسفة الهند التى تعرّض لها فى روايته « حد الموسى Razor's Edge » فهى كما كتب فى مذكراته :

« إن فلسفة الهند تقوم على أساس أن الروح تنتقل من حياة إلى حياة لتطهر نفسها وتنفض عنها الأخطاء والخطايا . . إلى أن تندمج أخيراً مع الروح اللانهائية . ولكننى لا أستطيع مطلقاً تعقل هذه الفكرة ويعتقد فلاسفة الهنود بأن « الأنا » أو الذات هى مصدر كل الشرور والآثام ، وهى السبب الرئيسى فى انعدام السعادة والإحساس بالشقاء . ولكنى أيضاً لا أستطيع الاعتقاد فى هذا الرأى ، وإن كان ثلاثة أرباع سكان العالم يؤمنون بذلك .

« وأذكر أننى تقابلت يوماً مع إحدى الشخصيات الهندية الهامة ، رئيس الوزارة ، عند ما كان يتلقى علومه فى جامعة أكسفورد . وسألته لقد قضيت الآن فترة طويلة متصلاً بالثقافة الغربية ، فهل ما زلت تعتقد حقاً فى تناسخ الأرواح ؟ » وأذكر أن وجهه قد امتقع واعتراه تغيير مفاجئ وقال : « عزيزى مستر موم إننى ما لم أومن بتناسخ الأرواح فأولى بى أن أنتحر » .

ويمضى مستر موم يقول :

« إن العقيدة والسياسة من أهم الموضوعات التى يطول فيها الجدل والنقاش . ولكن ليس من رأيى أن يثقل الكاتب على قرائه بالحديث فى السياسة والاجتماع وما إلى ذلك ؛ فاعتقادى أن الأديب ليس فى وسعه دائماً المساهمة فى الوصول إلى حلول فعالة . ولما كان الفنان أولا وقبل كل شىء إنساناً مبدعاً خلاقاً فيجدر به أن يولى اهتمامه بالأفراد من حيث هم . وليس ضرورياً أن يقحم نفسه فى مشكلات السياسة والاقتصاد » .

وولیم سومرست موم ، الذى يرسم بالكلمات بدلا من الفرشاة والألوان ، لا يصوّر شخصياته أبداً فى ألوان زاهية برّاقة . والجنس البشرى فى نظره عبارة عن سلالة عجيبة متنافرة بعثرت هنا وهناك بلانظام ، وشخصيات قصصه من الرجال لا تتسم بالروح البطولية أو المشاعر الإنسانية السامية ، بل على العكس من ذلك ، فهى غالباً شخصيات ضعيفة يتضح فى سلوكها كثير من نواحى النقص والتعرض لعديد من المشكلات أما شخصياته من النساء فهن أكثر ضعفاً ، ضيقات الأفق يتميزن بالأنانية إلى أبعد الحدود

وعند ما وجّه النقد إلى موم على أنه إنسان لا يبحث إلا عن الجوانب المظلمة ويعمى عن رؤية الجوانب المشرقة فى حياة البشر أجاب بقوله :

« لا . . إننى لست كذلك ؛ إننى لا أعنى إلا بتصوير الواقع كما هو ، ولكن الناس هم الذين يريدون الهروب من معرفة واقع أنفسهم » .

وتزوّج موم من الليدى جون هوب وأنجب منها ابنته الوحيدة ليزا ، وانتهت علاقته الزوجية بالطلاق منذ أكثر من ثلاثين عاماً . ومع أنه يعترف فى صراحة بأن له تجارب كثيرة فى الحب فى مختلف أنحاء العالم فهو على حد تعبيره لم يخاطر بالزواج مرة أخرى :

« ... لقد كنت أنا دائماً هو المحب . ولست المحبوب . وبعد كل هذه التجارب فإننى أعتقد الآن أن أطول حالات الحب وأكثرها بقاء وديمومة هو ذلك الحب غير المتبادل .. الحب من جانب واحد » .

● ندره حدّاد ... شاعر من حمص

كان ندره حداد شقيقاً لعبد المسيح حداد صاحب جريدة « السائح » .

وقد تناولت حياته عشرين سنة من القرن الماضى ، ونصف القرن الحالى ، فابتدأت على ضفاف العاصى وانتهت على ضفاف الهدسن . وجاءت نهايتها تكملة مؤثرة جداً لآخر قصيدة نظمها ثم ألقاها فى عرس ابنة عمه ، وكان فى تلك السهرة الحافلة مترحاً فوق المعتاد بكثير . إلا أنه ما إن انتهى من إلقاء قصيدته حتى شعر بانزعاج مفاجئ ، فخرج من قاعة الاحتفال إلى غرفة مجاورة حيث ارتمى على مقعد يطلب الراحة ، ولكن الطبيب الذى استدعى

فى الحال ما جاءه بالراحة المرجوّة ، وجاءه بها الموت فى دقائق معدودات .

بهذه الكلمات ختم الكاتب الكبير ميخائيل نعيمه مقاله عن ندره حداد الذى نشره فى صحيفة الديار اللبنانية .

وذكر الأستاذ نعيمه كيف تأسست « الرابطة القلمية » فى نيويورك عام ١٩٢٠ . ثم فقدت عميدها جبران خليل جبران عام ١٩٣١ ، وكان أعضاؤها هم :

رشيد أيوب ، وإلياس عطا الله ، ونسيب عريضة ، ووليم كاتسفليس ، وندرة حداد ، ووديع باحوط ، وعبد المسيح حداد ، وإيليا أبو ماضى ، وميخائيل نعيمه .

وللشاعر ندره حداد ديوان واحد أصدره فى نيويورك عام ١٩٤١ بعنوان « أوراق الخريف » وقد شاء أن يرمز بهذا العنوان إلى خريف حياته . وهو حمصىُّ المنبت ، يكثر من الترحيب بحمص وعاصيها ومن ذكر صباه وشبابه فيها :

خذونى إلى أرض حمص صحابى ... فإنى بها لا أزال الولوع
وقولوا إذا مت دون إياب ... براه الحنين ، وذرف الدموع

ويقول ميخائيل نعيمة :

إن كل مهاجر عنده حنين إلى مسقط رأسه ، مهما تكن حرفته أو مكانته . فكيف بقلوب الشعراء المهاجرين ؟

لذلك صدق ندره حداد إذا ما سمعته يقول :

لا زار جفنى الكرى ، لا هزنى الطرب
إن كنت يوماً لغير العــرب أنتسب

فهو لا ينطق بما فى قلبه وحده ، بل بما فى قلوب الآلاف من إخوانه المهاجرين الذين ما أوتوا مثله مقدرة البيان الشعرى .

وفى ملامحه الشاعرية يقول ميخائيل نعيمة :

« إنه قد يبلغ به الزهد حد التشاؤم المطلق فينكر على الحياة أى معنى وأى قصد ، كما فى قصيدته « أمام الجبل » :

حياة الناس واحدة ... ومكتوب لها الفشل
فأبقى ما بها عــدم ... وأضيع ما بها أمل

إلا أن تشاؤمه لا يبلغ به حد إنكار العزة الإلهية كما تشهد قصيدته التى عنوانها « الله » . وهو إذا تبرم بالدين ، فبالطقوس التى حولت العبادة من اتصــال باطنى بالخالق إلى مجموعة مراسيم خارجية . وله فى ذلك قصيدة دعاها تخيلات ، ومما جاء فيها قوله :

ود غيرى الصلاة لله فى ... الجامع أو فى كنيسة أو كنيس
وودت الصلاة لله فى الروض ... بعيداً عن تلك الطقوس
حيث لا أسمع المرائى يصلى ... عالياً يستغيث بالقــديس

● آراء ستيفن سبندر فى الشعر العالمى

شاعر فى حوالى الستين من عمره مر بالقاهرة ، ومر ببيروت ... هذا هو ستيفن سبندر الشاعر الإنجليزى الشهير ، أحد العمالقة الثلاثة أودن ، وماكنيس ... ثم سبندر .

وقد تناول سبندر الشعر الألمانى ، والشعر الفرنسى والشعر الأمريكى والشعر الإنجليزى فى حفل أقامته له مجلة (شعر) البيروتية .

وقال سبندر :

فى ألمانيا :

تكاد الوثبة الشعرية المعاصرة أن تكون معدومة ، ومع ذلك فقد كان للشعر الألمانى أثره الكبير على الحركة المعاصرة فى انجلترا . وأهم من شارك بهذا التأثير هو «ريلكه»، الذى تأثرت به شخصياً ، وترجمت له المراثى العشر .

فى فرنسا :

الوثبة الشعرية آخذة فى التقهقر منذ عشرين عاماً ، فالشاعر الفرنسى يعتبر الشعر مهنته ، ومن هنا كان اهتمامه بالشهرة كبيراً

ومن خصائص الشعر الفرنسى أنه متوثب ديناميكى لتفاعله مع كل الفنون ، الرسم والتصوير والنحت .

ولكن القصيدة الفرنسية تهتم بالشكل أكثر من اهتمامها بالمضمون ، وهى منذ أكثر من مائتى سنة محافظة على هذا الاتجاه ، فهى تجمح إما إلى الشكلية الخالصة ، وإما إلى اللاشكلية والفوضى .

فى إنجلترا :

القصيدة الإنجليزية تقوم على المضمون ، والشكل ضرورى فقط كوسيلة . والسبب الذى أدى إلى هذا الاتجاه . فى انجلترا هو النقد الذى يركز على المادة الشعرية ، لا على كيفية التعبير . والشعر فى إنجلترا ليس مهنة ، لهذا فالقصيدة منحصرة فى جماعة ضئيلة من الناس هى جماعة المهتمين بالشعر . وربما انحصرت فى الشعراء .

فى أمريكا :

أما فى أمريكا فالشعر ما زال مدرسياً ، ولكنه أفضل من سواه .

وتحدث سبندر عن ت . س . إليوت فقال :

إن ظله ما زال يوجه الشعراء المحدثين . مع أنه لم يأت بمادة جديدة منذ عشرين عاماً ، وكان الأثر الذى تركه إليوت عند الشعراء الشباب مضراً ، لأنهم حاولوا تقليده ففشلوا لأنه من الصعب تقليد شاعر كهذا .

● برتولت برخت أشهر كاتب ألمانى معاصر

يقول عن نفسه فى إحدى قصائده :

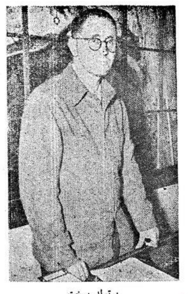
أنا برتولت برخت من أبناء الغابة السوداء
حملتنى أمى ، فظللت أعيش داخل شرنقتها الحريرية
فى المدن . . وفى أعماق الغابات
وستظل معى دائماً حتى أموت

ولد برتولت برخت فى مدينة أوسبورج الباڤارية فى العاشر من فبراير عام ١٨٩٨ . وكان أبوه صاحب مصنع ورق ، وفى الحرب العالمية الأولى عمل برتولت طبيباً فى الجيش الألمانى . ومنذ اشتراكه فى الحرب أصبح ضد الحروب . وحينما بلغ الخامسة والثلاثين كان هتلر فى أوج قوله . فظل الكاتب طوال خمسة عشر عاماً لاجئاً سياسياً فى الدانمرك والسويد وفنلندة وأمريكا ، وأخيراً ألقى عصاه فى ألمانيا الشرقية حيث عاش بقية حياته . وتوفى عام ١٩٥٦ بعد أن أصبح أشهر كاتب فى ألمانيا الشرقية والغربية على السواء .

وقد تناولت مجلة تايم الأمريكية حياة برتولت برخت وفنه بالتعريف والتحليل فقالت : إنه المؤلف المسرحى الذى احتل مكان چورچ برناردشو ، وإنه خليفة شكسبير وجوته وشيللر .

وفى وقت واحد مثّلت روايتان من روايات برخت . إحداهما رواية (ثلاثة بنسات) التى عرضت فى نيويورك ، وثانيتهما رواية (شجاعة أم) التى عرضت فى مسرح أوبرا برلين الشامخة فى برلين الشرقية .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تمثل فيهـــا روايات برخت خارج ألمانيا ، فقد مثلت خلال



برتولد برخت

السنوات الماضية فى الأرجنتين والصين وتشيكوسلوڤاكيا وفرنسا وإيطاليا واليابان والمكسيك وبولنده وإسبانيا والسويد وأمريكا وروسيا كما ترجمت كتبه وأعماله الفنية والنقدية إلى معظم اللغات العالمية .

سئل برخت مرة عن رأيه فى معنى الدراما فقال :
– أن نتعلم كيف نحيا .

لقد غادر برتولت برخت إمريكا عام ١٩٤٧ عائداً إلى وطنه وأقام فى برلين الشرقية . وحين قامت ثورة ١٩٥٣ فى المدينة كتب هذا الموهوب قصيدة قال فيها :

فى الليلة الماضية رأيت فى الحلم أصابع
تشير نحوى
إنها أصابع مجذوم . . كانت مقطوعة
فصحت كالمذنب « أنتم لا تعلمون ! »

وكان برخت فاشلا فى حياته . وقد صنع من الفشل نجاحاً ساحقاً ، وكان هدفه الدائم أن يسيطر برواياته على النظارة . ويلفتهم دائماً بالنقد اللاذع

ثم يحركهم إلى البكاء أو الضحك . وجعل من مسرحه تطوراً اجتماعياً .

وأدرك بفطرته الواعية حقيقة النفس الإنسانية التى لا يتبدل جوهرها ، وعن طريق هذا الإدراك نجح فى فهم الإنسان . وكانت روايته (الرجل هو الرجل) تعبيراً رائعاً عن هذه الحقيقة فى مجالها العالمى .

وكتبت صحيفة «لوموند» الفرنسية عن رواية (شجاعة أم) قائلة :

« من غير أن تعرف كلمة واحدة من الألمانية . تستطيع أن تفهم هذه الأم الشجاعة ، وتسر برؤيتها تتحرك فى جميع مشاهد الرواية . إن الكلمة الوحيدة التى يجب أن تعرفها هى كلمة (فراو) أى سيدة باللغة الألمانية . وبعد ذلك سترى وجه الأم المنحوت فى خشب الغابة القوى ، المعبر ، الملىء بالألم والسعادة فى لحظات الألم والسعادة .

وكتبت مجلة عالم « المسرح » اللندنية عن تلك الرواية التى وصلت إلى وثبة العالمية :

« فى كل وقت تظهر عربة الأم الشجاعة . تجر بها وسائل الحياة ، ومعها أطفالها يجرون هذه العربة العجيبة التى طافت معظم مسارح أوربا .

إن وجه الأم هو وجه إنسان يتألم . ويهجره أصدقاؤه وحظه ، ثم تلقى المقادير على كتفه حبلا تضعه الأم حول عنقها ثم تجر عربتها التى هى بيتها ومستقبلها وحياة أطفالها . وتسير بهذه العربة نحو المجهول » .

وقالت مجلة (دى بونيون) التى تصدر فى ڤيينا :

« كتب برت برخت كلمات للكورس ، وأغنيات للأم هى من أعظم الشعر الألمانى الذى عرف فى أدب ألمانيا .

أما الحوار فقد كان معبراً واضحاً لا تقوى عليه موهبة إلا تلك الموهبة العبقرية التى تضم الثقافة النقية والشعور العميق فى نفس واحدة .

لقد أصبحت رواية (أم شجاعة) التى استغرق تأليفها عشر سنوات نموذجاً فنياً إبداعياً » .

- **الأخطل الصغير ... والأخطل الكبير**

بشارة الخورى الشاعر اللبنانى الذى قال عن نفسه :

كذب الواشى وخـاب ... من رأى الشاعر تاب
عمره فجر من الحب ... وليـل من شراب

كتب عنه الكاتب اللبنانى أحمد حيدر مقالا قال فيه :

إن الأخطل الصغير يحاكى الأخطل الكبير فى كل الوجوه ، فى خمره وفخره وسلاسته ورقته ودينه وعصبيته : وحبه لوطنه ، ودفاعه عن أهله ووطنه . فتأمل كيف يمر الشاعر بالصحراء ، وبماذا يحس ويشعر فى تلك الأجواء :

بغـداد ما حمل السرى ... منى سوى شبح غريب
جفلت له الصحـراء (م) والتفت الكثيب إلى الكثيب
وتلصصت زمر الجنادب ... من فوهـات الثقوب
يتسـاءلون وقد رأوا ... قيس الملوح فى شحوبى
والتمتمات على الشفـاه ... مضرجـات بالنسيب
تبكى لها قبل الصبا ... ويذوب فيها كل طيب
يتسـاءلون من الفتى (م) العربى فى زى الغريب
صحراء يا بنت السماء (م) البكر والوحى الخصيب
أنا إن ذكرت ذكرت (م) أحلامى وأنغامى وكوبى
إحدى الشموع الذائبات ... أمـام هيكلك الرهيب

